

مِعْرَاجُ الرُّوحِ
الصَّلَاةُ



معراج الروح الصلاة

Copyright©2025 Dar al-Inbiath

الطبعة الثانية

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

سليمان أحمد شيخ سليمان

رقم الإيداع

2023/27934

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6704-24-4

رقم النشر

034

دار الإنبعث للنشر

القاهرة 2025م

Mobile: 002 01000780841

www.daralinbiath.com

مِعْرَاجُ الرُّوحِ الصَّلَاةِ

تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

د. عبد الله محمد عنتر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملحوظة: هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الدروس
الوعظية التي ألقاها الأستاذ فتح الله كولن في المساجد
خلال فترة السبعينات من القرن الماضي.

من هو فتح الله كولن؟

محمد فتح الله كولن: عالمٌ ومفكرٌ تركيٌّ وُلِدَ عام (١٩٣٨م) ونشأ في عائلة متدينة، وكان والده "رامز أفندي" من أهل العلم والأدب والدين.

عُيِّنَ إمامًا في جامع "الشُّرُفات الثلاث (Üç Şerefeli)" في مدينة "أدرنة (Edirne)" حيث قضى فيها مدة سنتين وستة أشهر في غرة العشرين من عمره في جو من الزهد ورياضة النفس، وقرر المبيت في الجامع وعدم الخروج إلى الشارع إلا لضرورة. نشأ الأستاذ فتح الله كُولُنْ في هذا الجو الإيماني، واجتهدَ في تحصيل العلوم الشرعية والعصرية، وكان تأثره واضحًا بمؤلفات بديع الزمان "سعيد النورسي" * المسماة بـ"رسائل النور".

أدرك فتح الله كُولُنْ في وقت مبكر أن المجتمع الإسلامي عامة يعاني من ثلاث علل كبرى هي: الجهل، والفقر، والفرقة... فنذر نفسه للدعوة إلى العلم والعمل لتفعيل مشروع تربويٍّ متكامل يُعالج هذه المعضلات الثلاث من جذورها، وحثَّ الأثرياء على التضامن الاجتماعي ومساعدة الفقراء والاستثمار في مجالي التربية والتعليم، واتخاذِ التواصل والحوار البناء سبيلًا لحل الخلافات المتجذرة، وتأسيس ثقافة التعايش مع الآخر، ونشر السلام على كل المستويات المحلية والعالمية.

وقد أكد دوماً أن مَكْمَن المشكلة هو الإنسان، وما لم نُعد صياغة الإنسان صياغة صالحة فلن يتأتى لنا حل مشكلاتنا المستعصية، ومن ثمَّ فقد سعى طيلة حياته على أن يُخرج نموذج الإنسان المسلم المثالي المتمسك بجذوره الروحية، المنفتح على ثقافات العالم ومتطلبات العصر، الموفِّق بين العقل والقلب والسلوك، الواقف نفسه لخدمة الإنسانية كسباً لمرضاة الله تعالى، إيماناً منه بأن هذه هي رسالة الإسلام الحقيقية والسبيل التي سار عليها كل الأنبياء ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... لذا تميزت جميع المشاريع التي حث على إنجازها ببعدها الإنساني الشامل حيث حرصت على خدمة الإنسان من حيث هو إنسان، دون تمييز بين عرق أو لغة أو دين أو ثقافة.

وانطلاقاً من هذه الأفكار والاجتهادات التي نادى بها فتح الله كولين فقد انبثقت حركة مدنية تربوية مجتمعية أُطلق عليها اسم "الخدمة"؛ نظراً لطبيعة أنشطتها القائمة على خدمة الإنسانية في مجالي التربية والتعليم، فلاقت قبولاً شعبيّاً هائلاً، إلى أن وصلت إلى ١٧٠ دولة حول العالم، وشملت مؤسسات تعليمية تزيد عن ٣٠٠٠ مدرسة، و٣٠ جامعة، ومئات من المدن الجامعية، وبيوت الطلبة.. كما ضمت "الخدمة" مؤسسات إعلامية (صحف ومجلات ومحطات إذاعية وفضائيات تبث بعدة لغات، ومنها قنوات ثقافية - إخبارية - اجتماعية - للأطفال)، إلى جانب مؤسسات العلاج والمشافي الصحية، وعدد من أكبر دور النشر في تركيا وخارجها، وجمعيات ومنتديات لرجال الأعمال والتجار... وهناك عشرات المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت، تبثُّ بـ ٢٢ لغة، وتنشر مقالاته ومؤلفاته وأخباره.



كما شملت الأنشطة المجتمعية التي قام بها المتطوعون من أبناء الخدمة أعمالَ الإغاثة الإنسانية للمنكوبين وضحايا الحروب، فكانت مؤسسة "هل من مغيث؟ (Kimse Yok mu?)" بمثابة يد العون التي مدّتها الخدمة إلى منكوبي العالم وضحايا الحروب والنزاعات، فوصلت أعمالها الخيرية إلى جنوب إفريقيا وشرق آسيا...

وأما على صعيد التربية والتعليم فقد امتازت المدارس الدولية التي تنهل من فكره بالجودة العالية والتناغم بين معطيات العلوم والقيم الأخلاقية، مما جعلها تتبوأ المراتب الأولى وتُحقّق النجاح الباهر أينما وُجِدت في العالم، ويتنافس عليها النخبة لِيُسجّلوا فيها أبناءهم.

ويرى كُولْنُ أن العالم أصبح قريةً صغيرة، لا سيما بعد النقلة النوعية التي شهدها في وسائل النقل والاتصال؛ ولهذا فإن أية حركة قائمة على الخصومة والعداء لن تؤدي إلى أية نتيجة إيجابية، وأنه يجب الانفتاح على الإنسانية بأسرها، وإبلاغ العالم كله بأن الإسلام هو دين الرحمة والأخوة بين بني البشر، و"أن المسلم لا يمكن أن يكون إرهابيًّا، وأن الإرهابي لا يمكن أن يكون مسلمًا"، وقد ذكر مرارًا وتكرارًا أن هناك مجالات واسعة للتعاون والتعاقد بين المسلمين وبين أبناء الأديان والثقافات الأخرى لتأسيس سلام واستقرارٍ على مستوى العالم.

اهتمّ كُولْنُ بفكرة الحوار والتواصل والتفاهم بين التيارات الفكرية المختلفة على المستوى المحلي داخل تركيا، وعلى المستوى الإقليمي والدولي بين أتباع الديانات وأبناء الحضارات والثقافات المتعددة، ودعا إلى نهج التعارف والاحترام المتبادل والتسامح والتعايش، ونبذ التعصب وإدانة العنف.



وعُرف في تركيا وفي العالم بـ"داعية الحوار والتسامح والتوافق"، ولقيت دعوته هذه صدىً إيجابياً واسعاً في تركيا وخارجها، ووصلت إلى ذروتها في الاجتماع الذي عقده في الفاتيكان عام (١٩٩٨م) مع بابا الفاتيكان "جون بول الثاني (John Paul II)".

ولقد احتلَّ المرتبة الأولى في قائمة أهم مائة عالم في الاستطلاع الذي أجرته مجلة "فورين بوليسي" (*Foreign Policy*) عام (٢٠٠٨م) -وهي مجلة أكاديمية أمريكية ذائعة الصيت- ومجلة "بروسبيكت" (*Prospect*) البريطانية المشهورة.. كما حصل على جائزة غاندي العالمية للسلام عام (٢٠١٥م)، وقد أنشأت له عدّة جامعاتٍ في الولايات المتحدة الأمريكية وإندونيسيا وأستراليا أقساماً خاصة باسمه (أي كرسي أكاديمي)، ومراكز علمية متخصصة، وانعقدت مؤتمرات وندوات دولية عديدة في جامعات عالمية لدراسة أطروحاته ونظرياته الدعوية والفلسفية والإصلاحية والتربوية.

وله قرابة ثمانين كتاباً تناول فيها القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي ومشكلات العصر... بعضها مترجم من التركية إلى أكثر من خمسين لغة أخرى تقريباً.



كتب الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية

- ١- البيان الخالد - القرآن الكريم - لسان الغيب في عالم الشهادة
- ٢- النور الخالد - محمد ﷺ - مفخرة الإنسانية
- ٣- خواطر من وحي سورة الفاتحة
- ٤- نفخة البعث - شواهد الحياة بعد الموت
- ٥- أضواء قرآنية في سماء الوجدان
- ٦- حقيقة الخلق ونظرية التطور
- ٧- ترانيم روح وأشجان قلب
- ٨- طرق الإرشاد في الفكر والحياة
- ٩- من البذرة إلى الثمرة - تربية الأبناء وبناء شخصية متكاملة
- ١٠- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
- ١١- القدر في ضوء الكتاب والسنة
- ١٢- الموازين أو أضواء على الطريق
- ١٣- ونحن نقيم صرح الروح
- ١٤- ونحن نبني حضارتنا
- ١٥- المَوشور (سلسلة المَوشور-١)
- ١٦- لمسات في إصلاح المجتمع (سلسلة المَوشور-٢)
- ١٧- الرد على شبهات العصر (سلسلة أسئلة العصر المحيرة-١)
- ١٨- نحو عقيدة صحيحة (سلسلة أسئلة العصر المحيرة-٢)
- ١٩- الاستقامة في العمل والدعوة (سلسلة أسئلة العصر المحيرة-٣)
- ٢٠- جيلنا وإشكالاته العصرية (سلسلة أسئلة العصر المحيرة-٤)



- ٢١- ألوان وظلال في مرايا الوجدان (١-٢)
- ٢٢- جهود التجديد (سلسلة الجرة المشروخة-١٢)
- ٢٣- شد الرحال لغاية سامية (سلسلة الجرة المشروخة-١٣)
- ٢٤- إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى (الجرة المشروخة-١٤)
- ٢٥- عقبات في سبيل الحق (سلسلة الجرة المشروخة-١٥)
- ٢٦- أنين الروح (سلسلة الجرة المشروخة-١٦)
- ٢٧- خط الاستقامة (سلسلة الجرة المشروخة-١٧)
- ٢٨- عصر الابتلاءات (سلسلة الجرة المشروخة-١٨)
- ٢٩- كلمات شاهدة (حوارات مع فتح الله كولن-١)
- ٣٠- مواقف في زمن المحنة (حوارات مع فتح الله كولن-٢)
- ٣١- القلوب الضارعة (إشراف)
- ٣٢- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-١
- ٣٣- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٢
- ٣٤- الغرباء
- ٣٥- أنفاس القلب
- ٣٦- ملامح بنيتنا الاجتماعية والاقتصادية

فَهْرَسْتَان

المقدمة	١٥
تمهيد	٢٣
المدخل	٣٥

الفصل الأول: حقيقة الإسلام

١- تعريف الإسلام	٤١
٢- كلمة الشهادة والإسلام	٤٥
٣- حقيقة "لا إله إلا الله"	٤٧
٤- الإسلام عقيدة لكل الأنبياء	٥٥
٥- أهمية طاعة الأنبياء	٥٨
٦- سيدنا محمد ﷺ خاتم المرسلين	٦٢
٧- مفهوم الإيمان والعمل والعبودية	٦٦

الفصل الثاني: الصلاة في الإسلام

١- مكانة الصلاة وأهميتها في الإسلام	٧٧
٢- الصلاة بوصفها عبادة	٩٩
٣- أداء الصلاة بوعي وإدراك	١١٤
٤- نواة الصلاة	١٤٨
٥- أبعاد الذكر والتوبة في الصلاة	١٥٥

- ٦- الصلاة ورقة القلب ١٥٩
- ٧- صلاة سيدنا رسول الله ﷺ ١٦٤
- ٨- الأمراض التي تتسلط على العبد في الصلاة ١٦٨
- ٩- المقارنة بين إعلاء كلمة الله والصلاة ١٨١
- ١٠- وظيفة المسجد ١٩٠

الفصل الثالث: التهيؤ للصلاة

- ١- الوضوء ١٩٥
- ٢- الأذان المحمدي ٢٢٠
- ٣- النوافل ٢٢٤
- ٤- الإقامة ٢٢٧

الفصل الرابع: شروط الصلاة وأركانها

- ١- تمهيد ٢٢٩
- ٢- شروط الصلاة ٢٣١
- ٣- مع أركان الصلاة ٢٤١
- ٤- العناصر المتممة للصلاة ٢٥٤

الفصل الخامس: مواقيت الصلاة

- ١- تمهيد ٢٦٥
- ٢- تخصيص الصلاة بخمسة أوقات ٢٦٨
- ٣- الحكمة من تخصيص الصلاة بخمسة أوقات ٢٧٦

الفصل السادس: ثمرات الصلاة

- ١- ثمرات الصلاة على المستوى الفردي ٢٩٣
- ٢- ثمرات الصلاة على المستوى المجتمعي ٣١٧

الفصل السابع: صلاة الجمعة

- ١- أهمية صلاة الجمعة..... ٣٢٥
- ٢- صلاة الجمعة عبادة شمولية..... ٣٣٣
- ٣- أمور يجب مراعاتها في الجمعة..... ٣٣٥
- ٤- أول صلاة جمعة..... ٣٤٠
- ٥- وقت الإجابة المنشود يوم الجمعة..... ٣٤٣

الفصل الثامن: صلاة النوافل

- ١- فضل صلاة النوافل..... ٣٤٧
- ٢- بعض صلوات النوافل..... ٣٥٤

الفصل التاسع: الأدعية التي تُذكر في ثنای الصلاة

- الأدعية التي تُذكر في ثنای الصلاة..... ٣٧٣
- نبذة عن بعض الأعلام..... ٣٧٩
- المصادر..... ٣٨٣



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

عندما فقد النبي ﷺ عمه أبا طالب وزوجته خديجة في عامٍ واحدٍ، نال الحزنُ منه، وتسَلَّلَ إليه حتى سمي ذلك العام "عام الحزن"؛ لقد فُقِدَ سنده على الصعيد المادي من الداخل والخارج، فاقتضت الطبيعة البشرية أن يعيش حزنًا لا يخرج عن حدود الضوابط الشرعية.

لقد كان هذا الحزنُ مرفودًا بروافدٍ أخرى، منها تكذيبُ قومه له، وعدم انصياعهم لدعوته، ومنها رحلة الطائف التي عاد منها حزينًا مشفقًا على أهلها بعد أن سلطوا عليه صبيانهم وسفهاءهم فرموه بالحجارة وأدموا عقبه ﷺ.

لم يشأ الله تعالى أن يترك قلبَ مصطفاه ﷺ متألمًا حزينًا دون ترويح عنه، فأرسل إليه دعوةً مقدّسةً من خلال بريد جبريل عليه السلام، وزوّده بمركبةٍ خاصّةٍ خارقةٍ للعوالم المادية سمّاها "البراق"، لا تخرج إلا لخواص الخواص من ضيفان الرحمن، فامتطأها النبي ﷺ برفقة جبريل عليه السلام من مكة إلى بيت المقدس، ومنه عروجًا إعجازيًا ما ورائيًا إلى السماوات السبع، فالجنة والنار، فاللوح والقلم، فالعرش والفرش، فسدرة المنتهى،

إلى أن رأى من آيات ربّه الكبرى، وما كذب الفؤاد ما رأى، في رحلة استثنائية خارقة لعالم المادة، شاء لها القدر أن تكون نبراساً للطريق، ومفتاحاً لرحلات العروج المتكررة من الأرض إلى السماء، ومن عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

لقد تلقى النبي ﷺ في قمة هذه الرحلة الإعجازية تكليفاً إلهياً بالصلاة، فكانت خمسين صلاةً في اليوم واللييلة عليه وعلى أمته من بعده في ابتداء التكليف كما نعلم، وما انفك يراجع ربه بناءً على نصيحة موسى عليه السلام إلى أن استقرّ التكليف على خمس صلواتٍ في الأداء لكنها خمسون في الأجر، فجاء التكليف الإلهي بالصلاة في ذلك الزمان والمكان إرشاداً سبحانه إلى طريق المعراج الذي لا يتوقف، وهدياً إلهياً إلى زمان ومكان وكيفية المعراج لمن استطاع إليه سبيلاً.

جاءت الصلاة للإنسان خلاصاً من الهموم والأحزان، وراحةً للنفس والجنان، وقرّةً لعين المصطفى العدنان، فكأنها "السلطان" الذي قال عنه الرحمن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (سورة الرّحمن: ٣٣/٥٥)، وعندما يريد النبي ﷺ الاستراحة كان يلجأ إلى الصلاة وينادي مؤذنه الخاص: "أرْحَنَا بِهَا يَا بِلَالُ"^(١)، فهي قرّة عينه وقرارة قلبه.

لقد عاد النبي ﷺ من تلك الرحلة الإعجازية، بعد أن لبى دعوة ربه، ولكن الله ﷻ أرفق معه دعوةً خاصّة من أهل السماء إلى أهل الأرض،

(١) سنن أبي داود، الأدب، ٧٨؛ مسند الإمام أحمد، ٣٦٤/٥.

وكلفه بإيصال نسخةٍ من هذه الدعوة تتناسب مع قدراتنا وطبائعنا البشرية، وتديقنا بعض ما ذاقه المصطفى ﷺ، وتفيض على أرواحنا ممّا تنسّمته الذات المحمّدية من نسمات المعراج الخاصّة، فكان فحوى الدعوة هو الصلاة، وجاءت بطاقة الدعوة وشعارها على هيئة "حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح"، ضمن الأذان الذي نسمعه يصدح خمس مرّات في اليوم واللييلة.

فالأذان ليس كلامًا عاديًّا يُقال، وليس سيمفونية يتبارى بها المؤذنون فحسب، بل هو النداء الإلهي، والدعوة المقدّسة للمعراج.. ومع كل صدحة أذانٍ نستشعر انفتاح أبواب السماء للمعارج، ونرقب ضيافة الله وهي تُجهّز للضيفان.. فكلُّ سامعٍ مدعوٌّ، وكلُّ من أجاب الدعوة سينال حظّه من الإكرام عبر المعراج الروحي، والانفتاح الغيبي، والنعيم بالقرب من الله، إلى أن يرى المدعوُّ من آيات ربه الكبرى.

هذه الرحلة المعراجية قد اختبرها النبي ﷺ بنفسه، وذاق جمالياتها بذاته، فمن ذاق عرف، وقد دعا إليها أحبّاه وأعزّاه وأمتّه، ليدوقوا ما ذاق، وليروا من آيات ربهم كما رأى، وليعيشوا المعراج بعد المعراج.. ولما كانت الكلمات عاجزةً عن وصف تلك الفيوضات؛ كان يختصر التعبير عنها عندما يقول: "وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"^(٢).

وقد توارث السلف الصالح هذا الركن الركين، فحافظت الأجيال الإسلامية عليه عبر العصور، وقام الفقهاء بدراسته دراسةً فقهيةً دقيقةً من

(٢) مسند الإمام أحمد، ٤٣٣/٢١.

حيث الأركان والشروط والواجبات والسنن والأبعاد والهيئات، وألقوا المؤلفات العملاقة والمفيدة في المباحات والمكروهات والمبطلات، ومنهم من أفنى عمره في المواقيت وآليات تحديد القبلة، وخدمة شعائر الصلاة وتيسيرها وتوصيلها إلى المتعطين لها، وما إلى ذلك مما يصاحب هذه الركيزة الإسلامية من شعائر.

لكن هذا الكتاب جاء على طرازٍ مختلفٍ، إذ إنه لم يقتصر على درس الشكل والهيئة والحركات الجسمانية للصلاة، بل أراد أن يعيد تعبيد طريق المعراج أمام العارجين، وإنارة السبيل أمام السالكين، وتجديد المسارات والإرشادات أمام الباحثين عنها.

فبعد أن استوفى الكتاب جوانب الصلاة الشرعية من حيث الحركات والهيئات والشروط والأركان والمبطلات وغيرها؛ لفت الأنظار إلى ضرورة تناولها على أنها "قرة عين رسول الله ﷺ"، فغاص في عمقٍ جديدٍ، والتقطَ من العقود ما هو فريد، فنظر فيما ورائيات الأذان ومدلولاته وإشاراته ومعانيه وما ينبغي أن يسكبه في آذان السامعين، واعتبره بمثابة بطاقة دعوة من الكريم سبحانه إلى موائد الرحمة من خلال الصلاة، ثم تناول القيام والركوع على أنه وقوف واستواء بين يدي الله فشبهه بحرف "أ"، فالمؤمن بمثوله بين يدي ربه ﷻ ووقوفه عاقداً يديه أمامه يتذكّر أنه المخلوق الأول الذي يعلن عن وجوده وهو واقف على رجله، فبينما تزحف بعض المخلوقات على الأرض، ويمشي بعضها على أربع نجد الحق ﷻ يمشي على الإنسان بالسير والوقوف مستويًا على قدميه مثل الألف "أ".

إن الصلاة التي يتحدث عنها الكتاب ههنا هي: إحساس العبد بِنَفْسِ مَلَكِ الْمَوْتِ من خلفه، وحساب الله من أمامه، ولجؤُهُ إلى الحضرة الإلهية خوفاً من إضلال الشيطان عن يساره، ووقوفه في انقياد تام وعبودية خالصة أمام الله تعالى رغبة في تأييد الملائكة عن يمينه.

فهي بمثابة كشف حساب مفصل في كل يوم وليلة يقدم خمس مرات، وهي تعني تخلص العبد من الذنوب خمس مرات في اليوم، وتشرفه بالمشول بين يدي ربه، بعد ذلك لا يبقى معنى لارتكاب الذنوب، ولا يوجد مبرر منطقي للتلطخ بالذنوب والآثام.

وهكذا فإن أداء الصلاة بهذه الروح وذلك الشعور، والوقوف بين يدي الله في انقياد تام وعبودية خالصة، وتجديد العهد مع الله سبحانه؛ كل هذا يعني توثيق الصلة مع الحق ﷻ، وهذا في حد ذاته أمرٌ يسيرٌ بالنسبة لمن ذاق حلاوته، أما بالنسبة لمن لم يصل إلى نشوته فهو أمرٌ جدٌ عسير.. وكما أن الصلاة وسيلةً للقرب من الله تعالى، فإن تركها كذلك سبب للبعد عن الله، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ"^(٣)، وكما أن غير المسلمين إذا أصبحوا في ذمة قيادة إسلامية ودخلوا في كنفها تمتعوا بكلّ الحقوق التي يتمتع بها الرعايا المسلمون، فكذلك المسلم إذا صلى الصلاة وتوجه للقبلة يدخل في ذمة الله ورسوله ﷺ، فلا يتعرض له أحد.. وإن أيّ عدوانٍ يقع على إنسانٍ دخل في كنف أحد وجواره يُعدّ عدواناً مباشراً على من أجاره.

(٣) صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٤؛ سنن الترمذي، الإيمان، ٩.

بمعنى أن الإنسان يصبح في حماية عظمى إذا دخل تحت ظلّ الله وكنفه ورعايته، ويكون التعظيم لشعائر الإسلام بمثابة حائل بينه وبين الشرك والكفر.

ما من شيء يجمع الناس؛ غنيّهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم، صغيرهم وكبيرهم ويجعلهم يصطفون بجوار بعضهم في مكان واحد مثل الصلاة، فحتى رؤساء الدول الذين لا يفارقهم حراسهم أثناء سيرهم ولا يُسمح لأحد بالاقتراب منهم يكونون مصطفين أثناء الصلاة مع المواطنين العاديين؛ وكما لا فرق بين العبد والسيد في الحضرة الإلهية فلا فرق أيضاً بين من يلبس سترةً غالية وخرقةً بالية في الصلاة، الفرق يكمن في التقوى فقط، ولقد أرسى الإسلام هذا المفهوم الاجتماعي، ونادى بمثل هذه المساواة بين الناس، فكفل بهذا المفهوم شعوراً بالأنس والألفة انتقل إلى كل مرحلة من مراحل الحياة وهيمنَ عليها، فلا يزدري أحدٌ أحداً، ولا يفرّ أحدٌ من أحد، بل يُصبح الناس بنياناً مرصوصاً في الساحات الاجتماعية كما في الصلاة تماماً.

وإذ يتسع قوس المعاني المعراجية في شرح معاني الصلاة من منظور المؤلّف ذي الطّور المعراجي؛ فإن أحدًا لن يستطيع أن يحيط بهذه المعاني الدقيقة والفهوم العميقة من خلال سطورٍ في مقدّمة، بل سيتوجّب عليه أن يلتهم سطور الكتاب متقافراً بين صفحاته إلى أن يأتي على ما بين دفتيه.

ولتحقيق هذا الهدف فقد أخذت دار الانبعاث على عاتقها ترجمة هذا الكتاب من اللغة التركية إلى العربية، وكان اسمه في التركية (Miraç Enginlikli İbadet - NAMAZ)، وقد جاء في العربية (معراج الروح الصلاة)، كما قامت بطباعته وتوزيعه، فجاء في (٣٩٢) صفحة مقسّمًا على تسعة فصول، تناول الفصل الأول حقيقة الإسلام من خلال التعريف بالإسلام ودراسة الشهادتين وأهمية طاعة الأنبياء، ودراسة مصطلحات الإيمان والعمل والعبودية.

ثم تناول في الفصل الثاني الصلاة في الإسلام ودرس مكانتها وأهميتها وأنها أول ما يحاسب عليه العبد، وكيف أنها توأم الإيمان وفهرس كل العبادات، ثم عرّج على شعور التعبدية في العبادات، وعدم التشوّف لأي أجر، وما يصاحب ذلك من أخطار الشرك والرياء في العبادات، ثم تعمق في أبعاد الصلاة فتحدّث عن نواتها ورقة القلب فيها، واستحضر صلاة رسول الله ﷺ للاسترشاد بها، ثم حدّر من الأمراض التي تتسلط على العبد في الصلاة من وسوسةٍ وكسلٍ وضعف همة.

الفصل الثالث خصّصه الكاتب للتهيؤ للصلاة والاستعداد لها، وما في ذلك من شعائر النظافة عند الوضوء ومراتب الطهارة والنوافل والإقامة، ثم جاء الفصل الرابع عن العناصر التي تشكل الصلاة من شروط وأركان وهيئات، وعن حكمة ما فيها من طهارةٍ وسترٍ عورةٍ واستقبال القبلة.

أما الفصل الخامس فسيدهش القراء عندما يطالعون فلسفة الوقت في الصلاة، والحكمة من تخصيص الصلاة بخمسة أوقات، والمعاني التي تعبر عنها تلك الأوقات.

ثم يأتي الفصل السادس للحديث عن الثمار والمكافأة، فيتناول ثمرات الصلاة على جانب الفرد والمجتمع، ثم يتناول في الفصل السابع صلاة الجمعة، وما يصاحب يوم الجمعة من شعائر.

يستطرد الفصل الثامن في سرد صلوات النوافل وفضلها وأقسامها وأشكالها، ويختص الفصل التاسع والأخير في أدعية الصلاة، وما ينبغي أن يتمثل به المصلي من دعاء في الركوع والاعتدال والسجود وجلوس ما بين السجدين والتشهد، ثم الآيات التي جاءت بصيغة الدعاء والأدعية المأثورة عن النبي ﷺ.

ختامًا: نترك القارئ الكريم يبدأ رحلته المعراجية في رحاب "معراج الروح الصلاة"، متمنين له الفائدة والنفعة، داعين الله ﷻ أن يمن بوافر الصحة وطول العمر على المؤلف، وأن يحقق كتابه هذا النفع والخير.

دار الانبعاث



تمهيد^(٤)

الصلاة معراج المؤمن، ودليله النوراني وبُراقه، وسفينة السالكين من أصحاب القلوب المؤمنة وطائرتهم، وأقرب منازل السائرين الذين يتغنون القرب والوصال وآخر مستقر لهم في العوالم الغيبية، ومن أكبر الوسائل لبلوغ الغاية والمرام.

والصلاة وما يسبقها من أعمال صالحة هي السبيل إلى نقاء الوجه وطهارة اليد وصفاء السريرة مثل حال أهل السماء، وهي الوسيلة التي يتقدم بها الإنسان على غيره يوم القيامة بياض ناصيته ونورانية بصره ونصاعة أعضائه من آثار الوضوء والسجود، ويمكننا أن نطلق أيضًا على عبادة الصلاة التي هي اسم وعنوان آخر للقرب من الله لما تحويه من أعماق مختلفة؛ اسم "الرباط" الذي يعني الاستغراق في فكر العبودية لله طوال العمر.

والوضوء -الذي ننوي تناوله بشكل مستقل في بحث لاحق إن شاء الله- هو أول تنبيه وأول استعداد في درب الصلاة.. أما الأذان -الذي يجب تناوله أيضًا بشكل مستقل- فتنبية ثان، وسبيلٌ لشِدِّ معنويٍّ آخر، بالوضوء يتطهّر الإنسان من الدنس البدني ومن السلبيات المحسوسة

(٤) محمد فتح الله كولن: ترانيم الروح، ص ٧٩

وغير المحسوسة، وبالأذان يستمع الإنسان إلى وجدانه وتصوراته.. وبالسنة القبلية يحاول اقتناص الصوت الداخلي في أعماقه، ثم ينتظر بدء الحركة الكبرى التي لا تتحقق إلا مع صلاة الجماعة.

إن هذه العبادة المباركة ذات الأبعاد الشاملة وذات الطابع المعراجي تقوم بنقل الإنسان إلى سماء اللانهاية لتصل به إلى عالم الملائكة.. والإنسان يُلقى بنفسه في لجة هذه العبادة خمس مرات في اليوم وكأنه يتطهر ويغتسل في جدول دافق، وفي كل مرة نغمر فيها نشعر بأننا تطهرنا أكثر فأكثر، ثم نقلنا هذا الجدول إلى بحرٍ واسع ويتجول بنا بين نقطتي البداية والنهاية، وكأنها تمرينات ننتقل بها خارج أبعادنا الاعتيادية إلى عالم الآخرة والخلود.

بالصلاة ينقسم الليل والنهار.. وتُنظَّم الحياة حسب مفهوم زمني يتخذ العبادة محورًا له، وبفضل هذا تجري تصرفاتنا وسلوكياتنا مجرى حسناً تحت مراقبة الله تعالى، وتأخذ حركاتنا وسكناتنا في غير العبادة شكل العبادة أيضاً، وتصطبغ بلون العبادة، وتبدأ حياتنا الفانية على وجه الأرض تتلون بلون السماء.

وفي اللحظة التي يوشك فيها الأذان أن ينطلق من بين ضجة الحياة، أو يشق الصمت المخيم عليها، أي عندما تشير عقارب الساعة إلى دخول الوقت، وتغير الشمس موضعها، وتزداد الحركة والضجة حول الجامع، وتُسمع خشخشة مكبرات الصوت، ويحاول المؤذن ضبط صوته تهيؤاً للأذان.. بعد كل هذه الإشارات حول قرب وقت الصلاة،

تبدأ في الصدور أحاديث صامته، وتُسمع أصوات غير واضحة المعالم مثل هذيان المستيقظ فجأةً من النوم، وتُسمع كلمات تتجاوز أبعادنا الجسدية، وكأن الإنسان بدأ يعيش حياة برزخ بين الدنيا والآخرة.. ومع أن الصلاة لم تبدأ بعد إلا أن أحاسيس أخرى تبدأ بالظهور نتيجة مناورات الفكر ومحاولاته البحث عن مجارٍ وقنوات جديدة.. ويدمدم الإنسان بأشياء لا تعدّ ولا تُحصى.. وهنا وبعد قليل وقيل بدء العبادة المُزَمَّع إقامتها تتوجه القلوب إلى نوع من التوثّب والشدّ الروحي.. وتحاول بمعاونة جميع القابليات والملكات الروحية الوصول إلى حالة من التهيؤ والاستعداد المرجوّ.

إن التوجّه إلى المسجد، والسير في الطريق، والشدّ المعنوي الأول الذي يحدث بسبب الوضوء؛ كلها مساعٍ للوصول إلى مستوى النضج والكمال في الأمر، أما الأذان فكأنه دعوةٌ للدخول إلى الحرم، وصوتٌ لِدُنِّي يساعداً في الوصول إلى تركيز معين في أعماقنا، وريشةٌ عودٍ تضرب على أوتار أحاسيسنا.

ومع أن آذاننا تعودت على صوت الأذان الذي يتكرر كل يوم، إلا أنه يظهر أماننا فجأةً على الدوام وكأنه قمر يرتفع من وراء التلال الموجودة بيننا وبين العوالم الأخرى، ويحول أنظارنا الأرضية إلى السماء كما الرعد، فيبدأ فاصل موسيقيّ إلهي كأنه صوتٌ نافورةٍ فوّارة أو صوتٌ شلال هادر في كل النواحي، وما إن يبدأ هذا حتى تنهمر على أرواحنا أعذب ألحان الدنيا.. ألحان تحيي القلوب وتوقظها.. ليس ذلك فقط، فهو يسحبنا بتداعياته إلى إقليمه الحريري ليهمس في قلوبنا بسحر

العهود النورانية، وليأخذ بيد خيالنا العابر للزمن في رحلة عبر دروب التاريخ، ليجد ما فقدناه هناك، ويعيده لنا، مما يثير هذا الخيال ويهيجه.. وهو يهب لنا في كل مرّة باقّة نضرةً من صوتٍ ومن شعيرٍ متناغمٍ.. نحن نتلقى الأذان في كل مرة ونستشعره في أعماقنا وكأننا نغتسل في جدولٍ موسيقي نجد فيه سحرًا آخر وطعمًا آخر ولطافةً وسعادةً أخرى، ويثير سماعه واستشعارُ معانيه عندنا في أكثر الأحيان شعورًا وكأننا نرتفع إلى السماء ضمن سلّم لولبي سحري، أو نتجول بمنطادٍ في الأعالي.. ولا سيما إن كان الأذان يُؤدى على أصوله كصوت ونفس للوجدان.. فما أرقّ دقائق الأذان وما أنورها عندما يتردد صدى هذا الأذان المحمدي في السماء ويتمواج! ولو استطاع الإنسان أن ينزل في تلك الدقائق إلى أعماق روحه ليستمع إلى وجدانه لأحس بمعان لم يُكشف عنها وهي تنساب إلى داخله، واستمع لتداعيات متموجة في أعماقه!

أما أصحاب الضمائر الحية الذين يجددون أنفسهم على الدوام، ويحافظون على نضارة حياتهم القلبية والروحية، فإنهم يحسون عند كل أذان بحلاوة وطراوة أول أذان في العهد الذي نزل فيه لأول مرة من السماء، ويتخيّلون في أصوات الأذان هذه وكأنهم يستمعون إلى نداءات الأنبياء.. ويصلون في عوالم قلوبهم إلى تكبيرات الملائكة وتهليلاتهم وتشهدياتهم.. ويُخيّل إليهم وكأنهم يسمعون أنفاس جبرائيل عليه السلام التي تهب الحياة، وأنفاس إسرافيل عليه السلام التي تبعث من في القبور.

وبعد أن يتم بالأذان التهيؤ المعنويّ والإشباع الروحي، وقبل الإبحار في بحار القرب من الله ﷻ مع أداء الفريضة تأتي صلاة النافلة ثم الإقامة؛

وهما بمثابة فترة استقبال لنسائم الرحمة الإلهية الفياضة على الأرواح، بفضلهما يزداد التركيز بشكل تصاعدي حتى تلك الدقيقة، ويتم فحصه والتثبت منه مرة أخرى، ويعاد النظر كرة أخرى في حالة التهيؤ والتوجه والسكينة النهائية، وكأن الأصوات والكلمات والسلوكيات التي أثرت في قلوبنا وأيقظت جوانبنا الإنسانية ووجهتنا نحو محرابنا الأبدي حتى تلك اللحظة هي عملية ضبط لأوتار ضمائرنا بغية العثور على الأنغام الحقيقية الخاصة بقلوبنا، ولا شك أن الصوت الحقيقي في العبادة يبدأ بالأداء المشترك والمشاعر المتوحدة للجماعة التي تقف تجاه القبلة وتصطف خلف الإمام وقد عقدوا أيديهم أمامهم تعبيراً عن التوقير والاحترام.. يركعون ويقومون ويخرون سجداً للحق تعالى، ويظهرون أقصى آيات التعظيم له، ويقفون أمامه خاشعين، وعند السجود يستوي لديهم موضع أقدامهم مع موضع جباههم، وبنسبة إحساسنا بشعور الجماعة في قلوبنا نستطيع الإحساس بعصور الأنبياء وتذوق كل صور الجمال فيها.

أجل، إن كل حركة وكل كلمة خلف الإمام هي بالنسبة للذين يستشعرون جو الصلاة في عالم السماوات هي صوت داء الوصال والشوق للجنة المفقودة لدى ابن آدم، يصاحبه الشعور بالأمل والفرح بالوصول، والصلاة بالنسبة لمعظم من استسلموا للجو المعراجي للصلاة تُعدُّ إشراقات فجر للأيام الحلوة التي تملأ خيالاتنا لعهودنا في الجنة من قبل، أو للجنات المقبلة، إننا عند وقوفنا لكل صلاة نحس -بقدر سعة عالمنا الحسي- وكأننا نرتشف بهجة وصفاء وسكينة جيل نوراني يمتد من جمال الجنة إلى العهود الذهبية لتاريخنا.. وبفضل هذا نستطيع

استعادة صفاء أذهاننا المشتتة بفعل المشاغل العديدة للدنيا.. أما أرواحنا فتتسلخ من الجو القاسي للجسد، وتنفلت مرة أخرى بأمل الوصال، فإن لم يتحقق ذلك في كل وقت للصلاة ولا عند أداء كل فريضة فإن أرباب القلوب يستطيعون على الأقل أن يقوموا بسياحات متعدّدة يومياً بين عالم الأزل والأبد، ويُمزرون الماضي والمستقبل معاً من منشور الفكر بوتائر متعاقبة، ويتأملون الشرائح الذهبية للزمن الماضي مع التلال الزمردية الخضراء للمستقبل المحفوف بالأمل في آن واحد.. وبهذا نستطيع أن نشعر ونعيش حياتنا وحياة الآخرين في اللحظة نفسها، ونجد في أعماقنا لذة آلاف الذكريات وكأننا نرتشف ماء الكوثر، وكما يحدث في الأحلام نقوم بطي المسافات، والتجوّل في عوالم فوق الزمان.. ونستشعر أذواق جميع الأمور الخارقة وغير الاعتيادية، وننتقل من فكرٍ إلى فكرٍ، ومن شعورٍ إلى آخر، ونقضي كل اللحظات في مناخٍ مفعم بالمعرفة والمحبة واللذة الروحانية.. (وينطبق هذا على من استطاع الوصول بأفق عرفانه إلى هذه النقطة)

عندما تمتزج الصلاة بالروح وبالقلب وتسري فيهما؛ فإنهما يكتسبان طبيعة نورانية، وتقوم هذه الحالة النورانية الفريدة بتقليب أعمالنا الاعتيادية لتضع تناغمها وشاعريتها وحالتها السماوية وتقييمها بدلاً من الأعمال العادية.

وإن الحركات السرية السحرية للصلاة التي تغذي أفكارنا وأخيلتنا كل يوم عدة مرات تجد على الدوام طرقاً ومنافذ تحملنا إلى ما وراء أفق هذا العالم وهي تهمس في قلوبنا بأبيات الشاعر نسيمي:

مكاني أصبح دون مكان

تحوّل روحًا كل كياني

وتجلى عندي نظر الحق بالعيانِ

ومن لذة الوصال غبتُ عن نفسي وخالني

وهكذا تقوم العبادة بكل أعماقها التي لا تسعها الأبعاد والمسافات بإفشاء ما يستتر في القلوب من الجمال الأزلي الذي كان كنزًا مخفيًا من قبل، والذي هو منبع جميع الإلهامات والهبات، لذا فما يُعاش في الصلاة -بجانِبِ الأمور الواضحة المعروفة للجميع- إنما هو في الأكثر فيضاً من الأحاسيس وطوفاناً من المشاعر المتسمة بالعظمة والمهابة التي تتجاوز الكميات والكيفيات، وفي الصلاة يخيم على أفق التعبير والبيان عندنا ما لا يمكن أن يُقال، وتهمس المشاعرُ التي لا يمكن التعبير عنها بموسيقى فريدة في أرواحنا، وتشغل كياننا أحاسيس واسعة وعريضة لا تسعها الألفاظ اليومية الاعتيادية، وتنفرج فطنة ذات طابع غيبي تتجاوز حدود العقل المادي والمنطق المجرّد عن باب فكر أخروي مرتبط بالهدي النبوي.. من هنا نستطيع أن نقول إنه لا توجد للعبد عبادةٌ أكبر من عبادة الصلاة، ولا توجد أحاسيس أصوب وأصحّ من الأحاسيس التي تظهر في تصوراتهِ وخيالاتهِ وهو قائم في الصلاة.

إن أفق الصلاة الذي تتجاوز فيه روحُ الإنسانِ بحدسها ومشاعرها عالمَ الوجود والشهود لتصل إلى عالم الغيب؛ ينطق بحسرة الأرواح التي تشعر به وبأشواقها، كما ينطق في الوقت نفسه باطمئنان القلب، وروحٍ وريحان المشاعر الإنسانية، وبالمصير والقدر الأزلي للوجود، وبتأمل

النجوم لسطح الأرض، وبأسرار السماوات، وبأضواء دار العقبي،
وبسفوح الجنة، وبالأشجار المتمائلة في تلك السفوح، وبالأنهار الهادرة
تحتها، وبأركانها.. وينطق بالقرآن الموجود فيها، وبالأدعية.. ينطق بكل
هذا ويكرره بأداء وبأسلوب جديد وكأنه يروي أرواحنا بمياه الكوثر.

وبعد القيام للصلاة يود هؤلاء العباد الصادقون الحريصون على
العبادة أن يعربوا من خلال الركوع عن مدى انفعال أرواحهم الصافية،
وعن ارتجافات ورعشات أفكارهم النيرة المستقيمة التي لا عوج فيها
ولا التواء، وبشعور ينشأ عن خليط من الإحساس بالعظمة والجبروت
واللطف والرحمة ينحنون انحناء العصا.. ينحنون ويتمتمون بالعظمة
الإلهية انطلاقاً من شعور العبودية الذي يلف كل كيانهم.. ويدقون باب
الحضرة الإلهية بالركوع الذي يُعدّ أسلوب توجه بعض أهل السماء لربهم
ﷺ، وبنسبة انفراج ذلك الباب يستطيعون الوصول إلى أعماق عالمهم
الروحي، وكما أننا في الحج أو في رحلات أخرى نشدو بالتكبيرات
والتهليلات والتسيحات عند تسلق التلال، أو عند النزول إلى السهول،
وأننا نتقل من فصل إلى آخر؛ كذلك الأمر بالنسبة للصلاة التي هي
عنوان رحلة الروح ومعراجها يُعبّر فيها عن الانتقال من فصل إلى آخر
بكلمات مباركة تحمل المعنى والشعور والفكر المبارك نفسه، ففي
كل ركوع تقريباً تلمس مطرقة باب الحضرة الإلهية العظمى بواسطة
التكبيرات والتحميدات وبالمشاعر التي تتداعى بهذه الكلمات، ثم يتم
انتظار ساعات الإجابة والمباركة بكل يقظة وانتباه ورسوخ لاستغلالها
على أفضل وجه، وتتم محاولة تصيد التجليات الإلهية وهباتها وألطفها
بصبر العنكبوت ودقة الهزّ في اصطياد فريسته.

وينفث الركوع الذي يأتي بعد خطوة واحدة من القيام في الصلاة
نفحاته علينا، ويهمس في أرواحنا ما هو أجمل من الحياة نفسها، وأثمن
من الأذواق الجسمانية، وأرقى وأسمى من أن نتخيله أو نتصوره من
حُلم لا يمكن أن يتحقق في هذه الدنيا أبدًا، ويعدُّ قلوبنا بأمرٍ تتجاوز
بكثير ما نتظره أو نتوقَّعه.. بعدها بأيام وساعات ودقائق زمردية وراء
هذا العالم، ألسنا جميعًا أبناء أفكارنا وخيالاتنا وآمالنا بوجه من الوجوه؟
فعندما نهتدي إلى الحقيقة بعد أن قاسينا الكثير في هذه الأيام الصعبة؛
فإننا نتجاوز الزمن الذي نتواجد فيه ونسدّد أنظارنا على "الزمن الآتي"
على أمل الحصول على السعادة، وتأمل -باسمين- سفوح الجنة.

إن الركوع ببعده الذي يحمل معنى الانحناء أمام الحق تعالى توكيرًا
وتعظيمًا له يتلقى قبسًا من كل الانحناءات، فأحيانًا يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي
مَسْنِي الضُّرِّ﴾ وأحيانًا أخرى يقول: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾،
فيُشعرنا برائحة قميص من عالم يوسف عليه السلام أو خريف ماء من نهر الحياة،
يُشعرنا بهذا ويهيج مشاعرنا بالخوارق المنتظرة من وراء الحقائق،
يهيجنا لدرجة أن شعورًا بالحمد والثناء ينفجر من كل كياناتنا فنعتدل
في القيام لكي نعبر له تعالى عن امتناننا في هذا الفاصل القصير، وهذه
الوقفة القصيرة تختلف عن الوقفة الأولى، فهي منطلقٌ جديد للسير إلى
الله تعالى، وفي هذا المنطلق النوراني نسترجع في أعماق قلوبنا القيام
والقراءة وتسيحات الركوع، ونحاول في هذه الوقفة القصيرة الإحساس
بمشاعرنا التي لا تحد، وخيالاتنا اللانهائية، ونجعل قدرة الحس عندنا
في استنفار لتضيء الألفاظ، وبأطياف "الكنز المخفي" الذي عرفناه

نستسلم إلى شلال جديد من الأحاسيس اللامحدودة المصطبغة بصبغة القرب من الله، ومن الصعب معرفة مقدار اللذة والخشية ومشاعر التوقير التي تلف كيان الذين يشعرون في أعماق ضمائرهم بالصلاة في ركوعهم وقيامهم، وكيف يفعلون بالأمل، ويرتجفون من الخيفة، هذا الشعور وهذا الإحساس العميق هو أولى الخطوات التي يخطوها الإنسان نحو الوصال، وأكثرها جدية.

السجود هو الخطوة الثانية، السجدة هي أرضية الشكر على الواردات والفيوضات الموجودة في الصلاة، وهي بوتقة المهابة التي تسكب القلوب المنصهرة فيها في قالب العبودية، وهي الخط الفاصل بين الدعاء والاستجابة، وهي ساحة لقاء ومرقأ اجتماع المشاعر والأفكار المتجهة إلى الذات الجليلة التي من جدها عرفها، ومن عرفها عشقها. وكلما شعرنا بالسجود على وجهه الحقيقي، وتفاعلنا معه نحس -ونحن ننتقل من القيام في الصلاة إلى الركوع ثم القيام فالسجود- وكأن هناك عصارة من الإيمان ومن الإسلام ومن الإحسان تنسكب إلى التلال الزمردية لقلوبنا وتساق إليها.

عند السجود تستوي جباهنا وأقدامنا عند نقطة واحدة، ونشكل نصف دائرة، فنشتد مثل وتر القوس، ونقلب إلى نَفْسٍ وصوتٍ أنين، فنحس أن وسعة آمالنا تسبق أعمالنا، وتكفي كل شيء، وأن رحمة الله تسبق كل شيء عندما تتحد مع إيماننا وتكون وحدة معها، فنشعر وكأننا نمر من تحت أكاليل سماوية يقع طرف منها في عالمنا والطرف الآخر في دار العقبي محاولين تغيير حظوظنا.

وفي هذه النقطة التي ينظر الإنسان فيها من موقع ونقطة ذروة حظِّه التي يسمو إليها بمشاعره في السجود، ويتطلع ويتأمل الحقيقة؛ يشرح بلسان قلبه جميع الكلمات المعبرة عن أحاسيسه، ويوجه دنياه قليلاً نحو الآخرة، ويعكس بعضاً من عالم الغيب على عالمه الروحي، فيستطيع الإحساس بمناخ عبوديته والعيش فيها وكأنه يقرأ ويطلع مناقب هذه العبودية ومآثرها.

أجل، إن الأدعية التي يثيرها الشعور بالعبودية، عندما تختلط بشلالات الرحمة الإلهية والطفها، ويتلاقى الدعاء والاستجابة؛ فإن مشاعرنا تعيش في جوٍّ جميل كجوّ الجنة، وتشد أغاني الوصال.. وجمال هذا -عند الذين يفهمونه- جمالٌ أخاذٌ جذابٌ ساحرٌ إلى درجة أن من ذاق طعم هذا الجمال مرة واحدة في حياته لا يدري كيف يشكر صاحب هذه النعم وصاحب هذه الأفضال.

إن بطل القرب من الله، الواضع جبهته على الأرض، والذي يعمِّق قربه من الله كل حين، والذي يرتفع في سباحة سماوية وبشكل لولبي إلى ذرى لا يمكن بلوغها.. يشعر وكأنه اقترب من "حظيرة القدس"، وبسُكْرِ هذا الشعور يرفع رأسه بكل توقير من السجود مبدئياً تعظيمه وعرفانه بكرمه تعالى لكي يلوّن شعوره بالوصال ببعده آخر، ثم يأخذه الوجد ويقول: "التحيات لله..." بكل الأدب الذي يقتضيه وجوده في الحضرة الإلهية.. يقول هذا ويأخذ حالاً ومعنىً وسحراً فوق الطبيعة وكأنه لم يعد كائناً من كائنات هذه الدنيا.

وبعاطفةٍ لا تعرف الارتواء ولا الشبع، تعمّقها النية ويخلدّها يقينه يتوجه بطل الصلاة بعيداً عن حدود الكمّ والكيف بهذه المشاعر الفوارة لأداء فرض الشكر للحقّ تعالى على كل نعمه من حياةٍ ومالٍ وسائر نعمه الأخرى، فيذكر الله بكلّ مشاعر كيانه ويئنّ ويجيش.. ويذكر النبي ﷺ، فيمتلئ داخله بالانشراح.. ويفكر بالمؤمنين الذين يشاطرونه السعادة نفسها فيدعو لهم بالخير.. ثمّ ينهي صلاته التي بدأها بالتكبير بالشهادة التي هي أساس الدين، وأساس رحلة المعراج هذه.

وإنّ الذين تعودوا على أداء الصلاة، وتغدّوا بها؛ لا يشبعون منها أبداً، ناهيك عن الشبع، بل يقول كلّ منهم عقب الانتهاء من كل صلاة: "هل من مزيد؟" فيهرع من صلاة نافلة إلى نافلة أخرى، ويرتفع كالشمس في صلاة الضحى، ويلمس بصلاة الأوابين مطرقة باب القرب من الله، ويرسل الأنوار بصلاة التهجد إلى ظلام البرزخ، ويحاول أن ينسج حياته بالصلاة مثل "دانتيل" جميلة، ولا يريد الابتعاد أبداً عن العالم النوراني الذي يعيش فيه، ولا عن المعاني التي تلف روحه.. بل يغدو على الدوام ويسرع وراء أنواع صور الجمال التي تعدّ بها الصلاة.



المدخل

الصلاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي عماد الدين، ولبّ الدعاء وجوهره، وهي وسيلة القرب والتقريب إلى الله ﷻ، ولذا احتلت الصلاة مكانة كبيرة في حياة المؤمن، وهي ليست بالأمر الذي يُستهان به أو الذي يؤدّى كيفما اتفق بين المشاغل الدنيوية الأخرى، فمكانتها لا تسمح لنا أن نهملها أو نتعجّل بها كي ندرك عملاً آخر، بل ينبغي عند اللزوم أن نضحى بكلّ شيء في سبيلها.

إن الصلاة هي أجمل ما يقوم به الإنسان في حياته، أو يجب أن تكون الأجمل، وينبغي أن تكون أحلى ذكريات الحياة عن الصلاة، فبها ينطلق العبد في عروجه، ويصل إلى ربه ﷻ، ويحظى بلقاء الأنبياء ﷺ، فضلاً عن ذلك فإن عرّض العبد عبوديته على الله خمس مرات يومياً -حسب عمق شعوره- يرفع من شأنه أيما رفعة.

وللصلاة شموليّة تسوق الإنسان إلى أن يفكّر بعمقٍ وشمولية تماثلها، فحينما يقف بين يدي خالقه في الصلاة يجد في نفسه أحياناً شوقاً وعشقاً عميقاً لربه ﷻ، وأحياناً يشعر وكأنه فردٌ من الجماعة التي تصطف وراء سيدنا رسول الله ﷺ، وأحياناً يرى نفسه مباشرة بين صفوف الملائكة، وأحياناً أخرى يشعر كما لو أنه يضع جبهته على حجاب العرش.. أما عن الشرط الأول للظفر بهذا الأمر فهو أن يعتبر العبد الصلاة معراجاً أو ظللاً للمعراج.

وكل صلاة بالنسبة للمؤمن هي بمنزلة وسيلة إلى المعراج، ولذا يتوجب عليه أن يحقق المعراج في كل صلاة وإن اختلفت الأبعاد.. ولا بد لأوتار القلب أن تكون حساسة كالوتر الحساس، تصدر الأنغام مثله تمامًا بتمام. أجل، يجب على كل مؤمن أن يصلي صلاة تكون نبراسًا للآخرين؛ صلاة سجودها نشوة تتوق إلى المزيد، ودعاؤها غذاء لا يثير الملل والاشمئزاز، وركوعها أداءً خاص، وقرأتها تناغم بين الكلمات، يقول ربنا ﷺ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٨-٢١٩)، فهذه الآية وإن كانت تصوّر ماهية الصلاة التي كان يصليها سيدنا رسول الله ﷺ فهي إلى جانب ذلك تعلمنا كيفية الصلاة.

علينا أن نصلي على النحو الذي كان يصلي عليه سيدنا ونبينا محمد ﷺ، لا شك أنه من المتعذر أن نأتي بالصلاة التي كان يصليها أي من الأنبياء بصورتها ومعناها أو أن نشعر بما كان يشعر به ذلك النبي حين الصلاة، ولكن هذا لا يمنعنا أن نسير على الطريق ذاته، فالرسول ﷺ حينما يعرّف الإحسان يقول: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"^(٥)، فإن أديت الصلاة بمثل هذا الشعور الشمولي فإنني أعتقد أنها ستأتي بثمرتها المرجوة.

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضًا: "إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِعٍ"^(٦)، وهذا يعني أن يصلي العبد صلاته وكأنها آخر صلاة يصليها في حياته، فكما أن الإنسان لو قيل له: بقي لك من العمر أن

(٥) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٥، ٧.

(٦) سنن ابن ماجه، الزهد، ١٥؛ مسند الإمام أحمد، ٤١٢/٥.

تصلي صلاةً واحدةً فقط؛ فإنه سيأتي بالصلاة على الوجه الأكمل وسيتم ركوعها وسجودها على اعتبار أنها آخر صلاةٍ يصلّيها؛ فكذا يجب أن يكون شأنه هكذا في كل صلواته.

وليس المقصود بأداء الصلاة على الوجه الأكمل أن تؤدّيها وفقاً لتفسير كتب الفقه لمعنى الكمال والنقصان، بل ينبغي التفكير في الأمر بشكلٍ أكثر شموليّةً، حتى يستوعب كل نواحي الصلاة المادية والمعنوية. أجل، إن أداء الصلاة على الوجه الأكمل يمحو الذنوب ويطهرها كما أشارت إلى ذلك كثيرٌ من الأحاديث النبوية؛ لأن في الصلاة استشعاراً بالتوبة، وكأن التوبة قد تسلّلت إلى كل أركان الصلاة، وبات من المستحيل التفكّر في التوبة بعيداً عن الصلاة، ولا يعني هذا أن كل صلاة توبةً، إنما تكامل الإنسان مع الصلاة، ووقوفه بين يدي ربّه بهذا التكامل يستجلب الشعور بالتوبة، المهم هو أن تؤدّي الصلاة وفقاً لمعاييرها المطلوبة.

يقول ربنا ﷺ عن الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩)، وحتى تحقّق الصلاة هذا التأثير ينبغي للعبد في البداية أن يؤدّي الصلاة على المستوى المطلوب، وأن يشعر بألم ذنوبه في قلبه أربعاً وعشرين ساعة يومياً، ليكون ذلك دعوة لمغفرة تلك الذنوب، بعبارة أوضح؛ عليه أن يراعي تعديل الأركان في الصلاة؛ بأن يطيل قراءته، وقيامه وركوعه وسجوده، محاولاً الوصول إلى الأبعاد الخاصة بكلّ ركنٍ من أركان الصلاة.

من جانب آخر فإن كل انحرافٍ يتتاب هذه الأركان يسوق الإنسان باطنًا إلى الحيوانية؛ يقول رسول الله ﷺ: "أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ -أَوْ: لَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ- إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ، أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ"^(٧)، وفي حديث آخر: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَافْتِرَاشِ السَّنْبَعِ، وَأَنْ يُوْطِنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوْطِنُ الْبَعِيرُ"^(٨)، وهذا يعني أن الصلاة تعبر عن الكمال الإنساني، ولذا ينبغي للإنسان أن يراجع صلاته مرّة بعد أخرى، وأن يستشعر بكل كيانه قيامها وركوعها وسجودها.

ومن الأهمية بمكان تأدية الصلاة بكامل أركانها وشروطها إلى جانب التحلي بالخشوع والخضوع فيها، فلا يجوز لأحد أن يستخف بها؛ لأن ثمة علاقةً وطيدةً بين المضمون الداخلي للصلاة والشكل الخارجي لها، ولذا فليس من الصحيح مطلقًا اختزال هذا التكليف في الشكل فقط، إذ لا بدّ من تأدية الصلاة معنى ومضمونًا إلى جانب الشكل.

الخلاصة هي أن الصلاة أساسٌ مهمٌّ من أسس العبادة، بل يمكن القول إنها "لبُّ العبادات" على اعتبار المعاني التي تحتويها؛ ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يعتبرون تارك الصلاة منافقًا، بل إن العلماء كثيرًا ما ضربوا الأمثلة على النفاق العملي بترك الصلاة.

(٧) صحيح البخاري، الأذان، ٥٣؛ صحيح مسلم، الصلاة، ١١٤، ١١٥.

(٨) سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٧؛ مسند الإمام أحمد، ٤٣٩/٢٤.

كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الصَّلَاةُ.. وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يَقَلَّ مِنْ أَهْمِيَّتِهَا؛ لِأَنَّ مَنْ
بَخَسَهَا قَدْرَهَا الْآنَ أَخْشَى أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ وَيَبْخَسُ فِيهِ قَدْرَ دِينِهِ، فَمَنْ لَمْ
يَصَلِّ يَخْسِرْ فِي مَوْضِعٍ هُوَ أَدْعَى لِلْكَسْبِ، إِذَا الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ..



الفصل الأول
حقيقة الإسلام



(1)

تعريف الإسلام

الإسلام مشتق من السلم والسلامة، ويعني لغةً: الاستسلام والخضوع والسلامة والبراءة من العيوب، ولقد توقف سيدنا رسول الله ﷺ كثيراً عند المعنى الإجمالي للإسلام، وأطلق عليه تعريفاتٍ مختلفةً في أوقاتٍ متباينة، ووجه الأنظار إلى مفهومه الاصطلاحي، وفيما يلي بعض هذه التعريفات:

ففي حديث جبريل عليه السلام الذي جاء في معظم كتب الحديث المعتبرة يعرف النبي ﷺ الإسلام بشكلٍ إجماليّ:

عن عمر رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ شَعْرِ الرَّأْسِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَهُ إِلَى رُكْبَتِهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: يَا مُحَمَّدُ، مَا الْإِسْلَامُ؟

قَالَ ﷺ: "شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ الْبَيْتِ".

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقْتَ.

فَعَجِبْنَا مِنْهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ، مَا الْإِيمَانُ؟

قَالَ ﷺ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَكُتُبِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،
وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ".

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقْتَ.

فَعَجِبْنَا مِنْهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ، مَا الْإِحْسَانُ؟

قَالَ ﷺ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَمَتَى السَّاعَةُ؟

قَالَ ﷺ: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ".

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَمَا أَمَارَتُهَا؟

قَالَ ﷺ: "أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ
يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبِنَاءِ".

ثُمَّ قَالَ ﷺ: فَلَقِينِي النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ ثَلَاثِ.

فَقَالَ ﷺ: "أَتَدْرِي مِنَ الرَّجُلِ؟"

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ﷺ: "ذَاكَ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ" (٩).

(٩) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٥، ٧.

وكما لاحظنا ركّز النبي ﷺ على ثلاثة أمور مهمة في هذا الحديث: أركان الإيمان الستة، وأركان الإسلام الخمسة، وشعور الإحسان أي: يقظة الشعور، واستنارة القلب.. وكلها أمور ينبغي للمؤمن المكلف أن يركّز عليها وينهض بها قدر استطاعته.

وفي رواية أخرى عن طلحة ؓ وصف فيها رسول الله ﷺ الإسلام إجمالاً: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرِ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ".

فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟

قَالَ ﷺ: "لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ".

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَصِيَامَ رَمَضَانَ".

قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟

قَالَ ﷺ: "لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ".

قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ.

قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟

قَالَ ﷺ: "لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ".

قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ" (١٠).

(١٠) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٤؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٨.

وكما رأينا عرّف سيدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث وغيره من الأحاديث الشبيهة له الإسلام إجمالاً، ونصّ على أركانه الأساسية وهي كلمة الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.. وأعتقد أننا لو حاولنا تقييم هذه الأحاديث المذكورة والآيات القرآنية المتعلقة بهذا الشأن فسنجد أن الإسلام قد عرّف بأوجهه كلّها بدءاً من الاعتقاد إلى الأخلاق.

والواقع أن العلماء قديماً قد تناولوا هذه القضايا كلّاً على حدة، وجمعوا كل المسائل المتعلقة بالإسلام تحت عنوان: العقيدة، والعبادات، والمعاملات، والعقوبات، ولهذا فإننا عندما نذكر الإسلام يردُّ إلى خاطرنا على الفور الإسلام كوحدة متكاملة تحتضن الحياة جميعها؛ بدءاً من العقيدة حتى الأخلاق، ومن الآداب حتى الإدارة والسياسة؛ ومن ثم علينا ألا نفكر في طريقٍ آخر سوى طاعة نبيّنا محمد ﷺ المرسل من قبل الله بشيراً ونذيراً.



(٢)

كلمة الشهادة والإسلام

وكما شاهدنا أيضاً في حديث جبريل عليه السلام فإن كلمة الشهادة هي أول أركان الإسلام الخمسة؛ بتعبير آخر: إن أول شرط للدخول في الإسلام هو الإتيان بكلمة الشهادة وهي: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"، أو كلمة التوحيد وهي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"؛ لأن كلتا الكلمتين تتضمنان روح الإسلام وجوهره، فأولاهما: أن الإنسان عندما يقول "أشهد أن لا إله إلا الله" ويجعل لسانه شاهداً على إذعان قلبه فإنه بذلك يشهد بأن الحق تعالى هو المعبود المطلق والمقصود بالاستحقاق؛ ثانيتهما: أن قول الإنسان "وأشهد أن محمداً عبده ورسوله" هو بمثابة شهادة منه بالإيمان بكل الأنبياء في شخص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قافية منظومة الرسل، وممثل الأركان التي لم يفسد صفاؤها، والمؤيد لها، ومصحح القيم التي فسدت نتيجة ما أصابها من تحريفات.. كل المكارم جاءت واجتمعت فيه، فخُتمت به الرسالات، واكتمل به رقي الإنسانية، ومن ثم جاء هذا الرسول الكامل بدين كامل للإنسانية، وشهد بنبوته الأنبياء جميعهم بدءاً من آدم حتى المسيح عليه السلام، وهذه المعاني كلها تعبر عنها كلمة "وأشهد أن محمداً عبده ورسوله".

وليسَت هناك كلمة أثقل عند الله وأعظم من هاتين الكلمتين
القدسيتين، وهذا هو ما يعبر عنه النبي ﷺ بقوله: "أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ
يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا
شَرِيكَ لَهُ" (١١).

وفي الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَيْهِ
ثَوْبٌ أبيضٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ.
فَقَالَ ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ
الْجَنَّةَ".

قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟

قَالَ ﷺ: "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ".

قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟

قَالَ ﷺ: "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ" ثَلَاثًا.

ثُمَّ قَالَ ﷺ فِي الرَّابِعَةِ: "عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ" (١٢).

(١١) موطأ الإمام مالك، ٣/٣٠٠، ٣/٦٢٢؛ البيهقي: السنن الصغير، ٤٢/١٨٨.

(١٢) صحيح البخاري، اللباس، ٢٤؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٥٤.



(٣)

حقيقة "لا إله إلا الله"

ومن الممكن أن نرى كل ما يتعلق بمنظومة العبودية في الإسلام في كلمة التوحيد؛ لأن المؤمن عندما يقول "لا إله إلا الله" فإنه يعترف بوحدانية الله وواحديته وأنه لا يطمئن بأحد سواه ﷻ، ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد: ٢٨/١٣)، وهذا يعني: "أخلصوا العبودية لله فحسب، ولا تتخذوا غيره سنداً ومعتمداً، فليس فوق الله قوة يمكن الاعتماد عليها والثوق بها، فإن فعلتم ذلك ظفرتم بالراحة والطمأنينة"، كل هذه المعاني يتضمنها لفظ الجلالة "الله".

ولا أخفي عليكم أن قلبي لا يستسيغ ولا يرتضي ما ذهب إليه البعض من أن لفظ الجلالة "الله" قد انتقل إلينا من لغات أخرى، أو أنه مشتق من هذه الكلمة أو تلك وفقاً لعلم الاشتقاق.. والحال أن البعض قد حاول إرجاع هذا اللفظ الجليل إلى بعض الكلمات والوصول إلى الكلمة الأصلية، غير أنني أقول وأنا العبد العاجز: كما أن الباري ﷻ أزلّي فاسمه الجليل "الله" أزلّي أيضاً، وليس من اللائق البحث عن أصل لهذا الاسم الجليل.

إن كل شيء مرتبط بالله، ولا يقوم أي شيء إلا به ﷻ، فهو نور وجه الكائنات وضياؤها، وكل العلوم والمعارف بدونه ﷻ تغدو أوهاماً

وخيالات وسرابًا وركامًا من الأفكار المشوشة العصية على الفهم لعدم اجتماع طرفيها.

جاء في بعض الروايات أن أعشى بني قيس بن ثعلبة - وهو من شعراء العرب في الجاهلية - لم يكذب يسمع ببعثة النبي ﷺ حتى غدَّ السير إليه على الفور، ونظَّم الشعرَ والقصائد في مدح النبي وما جاء به من دين يحثُّ على مكارم الأخلاق، ولما سمع بما في القرآن من معانٍ وحقائق انشرح لها صدره، ومع ذلك لم يقتنع بالأمر على وجه التمام؛ حيث كان يريد أن يؤمن صدقًا ويقينًا بالمعنى الذي تحمله كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، وخرج عائداً إلى قومه وهو يقول: "إني مُنصَرِفٌ فأترؤى من هذا الأمر عامي هذا، ثم أتني فأُسَلِّمُ"، وأعطى لنفسه فرصة سنة كاملة يفكر ويتمعن ويمعن النظر في هذا الأمر، وكأنه بوضعه هذا قد أراد أن يقول لسيدنا رسول الله ﷺ: "إنك تريدني أن أنطق كلمة تحمل بحرًا من المعاني العميقة، فعليَّ أولاً أن أستوعب هذه المعاني بعقلي، وأستشعرها بوجداني، وأحسَّ بها بكل ذرات كياني..". وهذا يعني أن هذه الكلمة ليست اعتيادية، بل هي نظام شامل لكل مناحي الحياة، ويلزم الوفاء بها والإخلاص لها حتى نهاية العمر.

حاصل القول: إن الحق ﷻ قد خلق الكون حتى يعرف الكائنات بنفسه، ووضع النظام فيه حتى يدلهم على صفاته، فغدا الانتظام يتكلم عنه، والتناغم يذكره، والعالم لا يفتر عن الحديث عنه، بل صارت كل الموجودات - دون استثناء - ألسنة تصدح باسمه، ولا تنفك عن ذكره، أما الإنسان ذلك المخلوق الذي وهب ملكة النطق فإنه يترجم هذه

المحادثات الجارية في الكون بشعوره وإدراكه وإرادته، ويعبر عن هذه الحقائق بلسانه.

وعندما يحين الوقت ستنطلق كل الموجودات لمشاركة تلك الألسنة التي تصدح بوجود الله، وتنحل عقدها كالجليد المذاب، فالجليد كما نعرف يبدأ في الذوبان في موسم الربيع، والألسنة تنطلق في الربيع، والبلابل تغرد في الربيع، والبذور تنمو وترعرع في الربيع، ونحن الآن نشعر بربيع يقع فيه كل هذا رويداً رويداً، فالיום يرتفع صدى كلمة التوحيد في كل مكان، وكأن الزمن قد أذن بعصر سعادة جديد؛ فلقد بزغ عصر السعادة الأول في أحضان الذين واجهوا الأذى والاضطهاد، وألقوا بأنفسهم في أتون الحوادث بلا خوف ولا وجل، وبدلوا قصارى جهودهم من أجل معايشة الإسلام.. وإن ارتفاع نداء "لا إله إلا الله" في وديان مكة التي كانت ترتع في ظلمات بعضها فوق بعض بسبب عبادة الأصنام، وإحداث هذا النداء هزة في كل العالم؛ ما هو إلا نتيجة لهذه المصاعب والآلام.

ولنضرب مثلاً على ذلك: بعد فترة عصيبة استمرت ثلاث عشرة سنة فتح الحق تعالى أبواب المدينة المنورة للمسلمين، ومع مرور الأيام قوي ساعد المسلمين واشتد عودهم وبدؤوا يقفون بثبات على أقدامهم فجنوا ثمرتهم الأولى في غزوة بدر، حيث أحرزوا نصراً مؤزراً، كُبرت بسببه شوكة المشركين، واتضح للجميع أن الإسلام ما زال ثابتاً واقفاً على قدميه، يواصل وجوده في تناغم وتوافق، ولكن المشركين لم يستطيعوا أن يتقبلوا أو يتحملوا ثقل الهزيمة أمام هذه الفئة المسلمة

القليلة التي تتكوّن من ثلاثمائة شخص، وكانوا يريدون أن يأخذوا بثأرهم إذا ما واتتهم الفرصة، وكان من بين هؤلاء صفوان بن أمية وعمير ابن وهب، كانا أبناء عمومة، يطفح قلبهما حقداً وغلاً لرسول الإسلام صلوات ربي وسلامه عليه، وذات يوم جلس عُمرُ بنُ وهبِ الجُمَحِيّ مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمِيَّةَ فِي الْحَجْرِ، وَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ شَيْطَانًا مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ، وَمِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَيَلْقُونَ مِنْهُ عَنَاءً وَهُوَ بِمَكَّةَ، وَكَانَ ابْنُهُ وَهْبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي أُسَارَى بَدْرٍ..

فَقَالَ صَفْوَانُ: وَاللَّهِ إِنْ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ خَيْرٌ.

قَالَ لَهُ عُمَيْرٌ: صَدَقْتَ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ لَا دَيْنٌ عَلَيَّ لَيْسَ لَهُ عِنْدِي قَضَاءٌ، وَعِيَالٌ أَحْشَى عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ بَعْدِي؛ لَرَكِبْتُ إِلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى أَقْتُلَهُ فَإِنْ لِي قِبَلَهُمْ عِلَّةٌ ابْنِي أَسِيرٌ فِي أَيْدِيهِمْ.

فَاعْتَنَمَهَا صَفْوَانُ وَقَالَ: عَلَيَّ دَيْنُكَ، أَنَا أَقْضِيهِ عَنْكَ، وَعِيَالُكَ مَعَ عِيَالِي أَوْاسِيهِمْ مَا بَقُوا، لَا يَسْعُنِي شَيْءٌ وَيَعْجِزُ عَنْهُمْ.

فَقَالَ لَهُ عُمَيْرٌ: فَاتُّمُّ شَأْنِي وَشَأْنُكَ.

قَالَ: أَفْعَلُ.

ثُمَّ أَمَرَ عُمَيْرٌ بِسَيْفِهِ فَشَحَذَ لَهُ وَسَمَّ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَبَيْنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ يَوْمِ بَدْرٍ وَيَذْكُرُونَ مَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَمَا أَرَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ؛ إِذْ نَظَرَ عُمَرُ إِلَى عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ حِينَ أَنَاخَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ، فَقَالَ هَذَا الْكَلْبُ عَدُوُّ اللَّهِ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ، وَاللَّهِ مَا جَاءَ إِلَّا لِشَرِّ وَهُوَ الَّذِي حَرَّشَ بَيْنَنَا، وَحَزَرْنَا لِقَاؤَهُ يَوْمَ بَدْرٍ.. ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا عَدُوُّ اللَّهِ عَمِيرُ بْنُ وَهَبٍ قَدْ جَاءَ مَتَوَشِّحًا سَيْفَهُ.
قَالَ ﷺ: "فَأَدْخِلْهُ عَلَيَّ".

قَالَ: فَأَقْبَلَ عُمَرُ حَتَّى أَحْضَرَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ فَلَبِثَهُ بِهَا، وَقَالَ
لِرِجَالٍ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ: ادْخُلُوا عَلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاجْلِسُوا
عِنْدَهُ وَاحْذَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْخَبِيثِ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ، ثُمَّ دَخَلَ بِهِ عَلَيَّ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. فَلَمَّا رَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَعُمَرُ أَحْضَرَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي
عُنُقِهِ -.

قَالَ ﷺ: "أَرْسَلُهُ يَا عُمَرُ، أَدْنُ يَا عُمَيْرُ".

فَدَنَا، ثُمَّ قَالَ: أَنْعَمُوا صَبَاحًا - وَكَانَتْ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَهُمْ -.
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا عُمَيْرُ
بِالسَّلَامِ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ".

فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتُ بِهَا لَحَدِيثُ عَهْدٍ.

قَالَ ﷺ: "فَمَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ؟"

قَالَ: جِئْتُ لِهَذَا الْأَسِيرِ الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ، فَأَحْسِنُوا فِيهِ.

قَالَ ﷺ: "فَمَا بَالُ السَّيْفِ فِي عُنُقِكَ؟".

قَالَ: فَبَحَّهَا اللَّهُ مِنْ سُيُوفٍ، وَهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئًا!؟

قَالَ ﷺ: "أَصْدُقْنِي، مَا الَّذِي جِئْتَ لَهُ؟".

قَالَ: مَا جِئْتُ إِلَّا لِذَلِكَ.

قَالَ ﷺ: "بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الْحَجْرِ، فَذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ الْقَلْبِ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ قُلْتَ: لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ وَعِيَالٌ عِنْدِي لَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْتَلَ مُحَمَّدًا، فَتَحَمَّلَ لَكَ صَفْوَانُ بِدَيْنِكَ وَعِيَالِكَ، عَلَيَّ أَنْ تَقْتُلَنِي لَهُ وَاللَّهِ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ".

قَالَ عُمَيْرٌ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ! قَدْ كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكْذِبُكَ بِمَا كُنْتَ تَأْتِينَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَحْضُرْهُ إِلَّا أَنَا وَصَفْوَانُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ مَا أَتَاكَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَسَاقِنِي هَذَا الْمَسَاقَ، ثُمَّ شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ..

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَقَّهُوا أَحَاكِمَ فِي دِينِهِ، وَأَقْرَأُوهُ الْقُرْآنَ وَأَطْلِقُوا لَهُ أَسِيرَهُ"، فَفَعَلُوا..

لكأنَّ القدر أراد أن يقول كلمة أخرى، فلقد صار هذا الشخص الذي كان يُدعى بالشیطان في الجاهلية من حواربي رسول الله ﷺ.

مكث عمير بن وهب عند رسول الله ﷺ فترة امتلاً فيها قلبه بالحماس وحبِّ الإسلام حتى فاض عن آخره، فأراد هذا الصحابي الجليل حديث العهد بالإسلام أن يكفّر عن فعلته ومجيئه في سبيل قتل رسول الله ﷺ، فطلب الإذن من أجل العودة إلى مكة، فأذن له النبي ﷺ بالرجوع لأنه كان على يقين بأن قريشاً لن تمسه بسوءٍ وهو البطل الجسور.. وكان صفوانُ ابنُ أمية حينَ خرجَ عميرُ بنُ وهبٍ يقولُ: أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيامٍ تُنسيكم وُقعةً بدرٍ، وكان صفوانُ يسألُ عنهُ الرُّكبانَ حتى قَدِمَ رَاكِبٌ فأخبرَهُ عن إسلامِهِ فَحَلَفَ أَنْ لَا يُكَلِّمَهُ أَبَدًا، وَلَا يَنْفَعَهُ بِنَفْعِ أَبَدًا.

ودخل عمير رضي الله عنه مكة متحدّياً الجميع كما فعل سيدنا عمر رضي الله عنه عند هجرته من مكة إلى المدينة، فأقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناسٌ كثيرٌ.. أما ابن عمه صفوان بن أمية فقد عاند، ولم ينضم إلى قافلة المباركين، وعندما دار الزمان دورته ودخل النبي مكة فاتحاً خرج يريد مدينة "جدة" ليركب منها إلى اليمن.

فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ سَيِّدُ قَوْمِهِ وَقَدْ خَرَجَ هَارِبًا مِنْكَ، لِيَقْذِفَ نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ فَأَمِنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ.
فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: "هُوَ آمِنٌ".

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَعْطِنِي آيَةً يَعْرِفُ بِهَا أَمَانِكَ.
فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عِمَامَتَهُ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا مَكَّةَ، فَخَرَجَ بِهَا عُمَيْرٌ حَتَّى أَدْرَكَهُ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَرْكَبَ فِي الْبَحْرِ.
فَقَالَ: يَا صَفْوَانُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، اللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ أَنْ تُهْلِكَهَا، فَهَذَا أَمَانٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ جِئْتُكَ بِهِ.
قَالَ: وَيْحَكَ أَغْرَبَ عَنِّي فَلَا تُكَلِّمْنِي.

قَالَ: أَيُّ صَفْوَانَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي أَفْضَلُ النَّاسِ وَأَبْرَ النَّاسِ وَأَحْلَمُ النَّاسِ وَخَيْرُ النَّاسِ ابْنُ عَمِّكَ، عِزُّهُ عِزُّكَ، وَشَرُّهُ شَرُّكَ، وَمُلْكُهُ مُلْكُكَ.
قَالَ: إِنِّي أَخَافُهُ عَلَى نَفْسِي.

قَالَ: هُوَ أَحْلَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَكْرَمُ.

فَرَجَعَ مَعَهُ حَتَّى وَقَفَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

فَقَالَ صَفْوَانُ: إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّكَ قَدْ أَمْتَتَيْتَنِي.

قَالَ ﷺ: "صَدَقَ".

قَالَ: فَاجْعَلْنِي فِيهِ بِالْخِيَارِ شَهْرَيْنِ.

فتبسم النبي ﷺ وكأنه يشاهد من وراء الحجب ما سيقدمه صفوان من بطولات عندما يكون فرداً في جيش المسلمين الذي يخرج لمحاربة الروم، فقال ﷺ: "أَنْتَ بِالْخِيَارِ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ".

ولكن ما إن مضت عدة أسابيع حتى جاء صفوان إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه مع تقاطر دموع الفرح من عيني ابن عمه عمير، وقال: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ^(١٣).

(١٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤١٨/٢.



(٤)

الإسلام عقيدة لكل الأنبياء

الإسلام نظامٌ متكاملٌ ينظّم كلَّ شؤون الفرد على مستوى الفكر والتصوّر والعمل والعالم الداخليّ من لدن آدم عليه السلام حتى يومنا هذا، ويضع لكلّ هذا معاييرَ يزنّها بميزان دقيق، ويتّسم هذا النظام بالشمولية إلى أقصى درجة؛ نظرًا لأنّ الذي أوجده هو الله الذي خلق الإنسان ودبّر أمره.. وقد جمع الإسلام في بنيته كل القضايا الدنيوية والأخروية إجمالاً، وحقّق نوعاً من التوافق والتكامل بين الدنيا والآخرة، فإنّ الإنسان رغم صغر بنيته البشرية قد استطاع بفضل الإسلام أن يكيّف علاقته مع الكائنات ويقيم صلةً مع الله تعالى الذي لا حدّ لعظمته وألوهيته، وكان الإنسان بقدر تعمّقه في الإسلام قد حاز ماهيةً لا نهاية لها، والحقُّ أنّ كل هذه الخصائص للإسلام ظاهرةٌ في معناه الاصطلاحي، وجاءت على السنة الأنبياء العظام عليهم السلام.

وكان أول من عرّف الإسلام بهذا الشكل هو سيدنا آدم عليه السلام، ثم تابعه الأنبياء من بعده ودعوا الناس في إطار هذا التعريف إلى الإسلام ورؤية ما فيه من خصائص وجماليات، فبعد سيدنا آدم جاء سيدنا نوح عليه السلام، وقال: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة يونس: ٧٢/١٠)، وبعده جاء سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وتضرعا إلى الله قائلين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ

لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴿ (سورة البقرة: ١٢٨/٢)، دَعَا اللهُ بِذَلِكَ وَهُمَا يقيمان قواعد بيت الله الحرام؛ قبله المسلمين على الأرض، الدائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومطاف الملائكة حتى سدره المنتهى.

وكذلك سيدنا يوسف عليه السلام بعد أن أصبح والياً على مصر والتقى بأبويه وأنقذ إخوته من الفقر والجوع؛ أي بعد أن ظفر بكل ما هو مادي ومعنوي دعا الله قائلاً: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠١/١٢)، علمًا بأنه لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن نجد شخصًا ثانيًا قد حصل على ما حصل عليه هذا النبي الكريم عليه السلام من الفضل، ولذلك كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن يوسف عليه السلام الذي كان أبوه وأجداده من الأنبياء: "الكَرِيمُ، ابْنُ الْكَرِيمِ، ابْنُ الْكَرِيمِ، ابْنُ الْكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام"^(١٤)، فهذا النبي الكريم بعد أن جمع الله فيه كل الفضائل المادية والمعنوية قال كلمته الأخيرة تلك، والواقع أنه قد هام حبًّا في الله، وهذا ينبغي أن يكون أمل وغاية كل قلب يتحرَّق شوقًا للوصول إلى الله جل جلاله.

إن قول الإنسان "أسلمت" يعني "أسلمتُ إرادتي لله"؛ أي إنه قد قال نفس الكلمة التي قالها آدم ونوح وأبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ويوسف، وأخيرًا سلطان السلاطين وفخر الكائنات محمد؛ عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.. فهذه الكلمة هي تعبير عن العهد الذي قطعه الأنبياء باسم جميع الإنسانية أمام الله وعليه.

(١٤) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ١٩؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ١٣.

وكما هو معلوم فإن الانقياد والتسليم يعينان خضوع المرء وإذعانه لله فكراً وتصوراً وعملاً، ولذا يقول ربنا ﷺ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٢/٦-١٦٣).

وبعبارة أشمل فإن هذا الخطاب يعني: "يا حبيب الله، إن كل شيء يدخل ضمن حاكمية الله، فأسلم أمرك إلى الله الذي بيده حاكمية الدنيا والآخرة، الذي يدير كل شيء من الذرات إلى المجرات، فلا شبيهه ولا نظير له، وهو الواحد في ألوهيته وربوبيته، وقل إنني أمرت أن أكون أول من يسلم ويدعن ويعمل بما أمر به الله".

وقد جاء في الكتاب الذي بعث به سيدنا رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم: "أَسْلِمَ تَسْلَمٌ"؛ وهذا يعني: "دع قيادة السفينة التي ستنقذك من هذه الأمواج العاتية وتوصلك إلى بر الأمان إلى الله تعالى ونبيه محمد ﷺ، وإلا ستعرض للمهالك ولن تجد الراحة والاطمئنان"، وفي تتمة كلامه يقول ﷺ: "يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ"، وكأن هذا خطاب موجّه إلى جميع الإداريين والمسؤولين؛ بدءاً من رب الأسرة إلى المسؤول عن منطقة ما، ومنه إلى رئيس الدولة؛ لأن المسؤول لو كان متديناً تبعه مرؤوسوه، وبذلك ينال أجر تدينه وأجر العاملين معه، أما إذا أعرض هذا المسؤول وصمّ أذنيه عن دعوة ربه، وتسبب في تردّي نفسه وأتباعه في الكفر والضلال فسيتحمل وزر نفسه ووزر أتباعه أيضاً.



(٥)

أهمية طاعة الأنبياء

قد يكتسب الإنسان بعضَ المعلومات بدراساته وأبحاثه حول الكون، وفي ظل هذه المعلومات يمكن أن يقرّ بوجود الخالق، ولكن إقراره هذا لا يخرج عن طور الأفكار التي كان يؤمن بها "ورقة بن نوفل" وابن عمه "زيد بن عمرو بن نفيل" اللذان كانا يدينان بالحنيفية قبل بعثة النبي ﷺ، ويمكن أن نشبّه هذا الأمر بالنتيجة التي يتوصل إليها أناسٌ يجلسون بشكلٍ جماعيٍّ في غرفةٍ ما، وفجأةً طُرق باب الغرفة، فأول ما ينصرف إليه ذهنهم هو وجود كائن ذي شعور وراء الباب، لا سيما إذا كان قرع الباب متناقضًا، والواقع أن النتيجة التي توصل إليها عقل الإنسان فيما يتعلق بالخارج دون مشاهدة لا تخرج عن هذا، وعلى ذلك فكلُّ ما يمكن أن يُقال عن معرفة الشيء الذي يقبع وراء الباب لا يخرج عن إطار التخمين والتخيل.

وقد يشكّل المثال الذي ضربه أفلاطون لبعض الأشخاص في الكهف تفسيرًا آخر لهذه الحقيقة، فقد ادعى أفلاطون أن معرفة الإنسان بالأشياء في الخارج ليست إلا معرفة بظلالها أو انعكاساتها من الخارج إلى داخل الكهف، ولا تتأتى المعرفة الحقيقية للأشياء بالخارج إلا بدخول شخص من الخارج إلى الداخل، وإخباره بحقيقة الأشياء في الخارج،

وإذا أردنا أن نعقد تشبيهاً بين مؤسسة النبوة وحال هذا الشخص نقول: لا سبيل أمام الناس للإيمان بوجود الخالق والتزود بمعلومات قاطعة عنه إلا من خلال تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم.. فمثلاً التعرف على أسماء الله وصفاته وعلى الأمور التي يريدنا الحق تعالى من عباده بخصوص العبادة وكيفية أدائها لا يتأتى إلا بإخبار الأنبياء وتعليمهم.

لقد خُلِقَ الكونُ مثل كتاب، ونُشِرَ أمام الجميع، وكل ما فيه من موجودات وأحداث خفية يعقب بعضه بعضاً في تناغمٍ عظيم، وعلى ذلك فمن المؤكد أن هناك قوةً خفيةً تقف وراء كل ما يجري، وتدبر شأنه وتديره، فإن لم يُضغَ لبلاغات الأنبياء فستظهر بعض الأفكار المضطربة حول هذه القوة؛ من قبيل أن هناك روحاً كليةً تدير كل شيءٍ، أو عقولاً عشرةً تتحكّم في كل شيءٍ، أو قوةً وراء كل مادة، مثل هذه الرؤى والتصورات لا تعني شيئاً أكثر من إرباك عقول الناس، بيد أن الله تعالى الذي دلّنا على وجوده من خلال آلاف الحوادث في الكون منزّةً عن الكمية والكيفية، فكما يقول السادة الصوفية استناداً إلى قول مأثور عن سيدنا علي عليه السلام: "ما خطر ببالك أو توهمته في خيالك أو تصورته في حال من أحوالك فالله تعالى وراء ذلك" ^(١٥)، فهو تعالى لا يدرك بذاته، إنما يُعرف بأسمائه وصفاته، ولا يحصل هذا إلا بتهديب الفكر والقلب والروح في ضوء تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم، أما عن الوسيلة الوحيدة للفلاح في هذا الأمر فهو الإصغاء إلى كلام الأنبياء ممثلي الصراط المستقيم، والواقع أن اللحاق بركب الأنبياء المعتمدين بالله وليس لهم

(١٥) انظر: علي القاري: شرح الشفا، ١/١١١.

رأسمال سوى الواردات التي تنزل عليهم من الله هو ضمانٌ لنا للسير على الصراط المستقيم.

فكل المشاكل تُحلّ بالتوجه إلى عالم الأنبياء، وكل المجهولات تُعرف في أجوائهم النورانية؛ لأنهم أرسلوا قدوةً وأسوةً إلى الإنسانية، ونظرًا لأن الله يعلم حاجة البشر إليهم فإنه لم يدع أمةً على وجه البسيطة لم يرسل إليها رسولاً، فأينما ذهبت في العالم أو استغرقت في حقب الزمان فستشعر بصوت ونفس نبي يقول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة الأعراف: ٦٥/٧)، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فيقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (سورة التخل: ٣٦/١٦)؛ كيلا يخضع البشر للبشر، أو يعبدوا الطواطم، أو يركنوا إلى المؤلَّهين من بني جلدتهم، إنما يعبدون الله ويستعينون به فقط.

والمؤمن الحقيقي هو الذي يعلن عن ولائه ووفائه بالعهد الذي قطعه على نفسه أمام الله بقوله في دعاء القنوت الذي يردده كل يوم في صلاته: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَعْفُزُكَ وَنَسْتَهْدِيكَ وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنُتَوِّبُ إِلَيْكَ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ وَنُشِي عَالِيكَ الْحَيْرَ كُلَّهُ نَشْكُرُكَ وَلَا نَكْفُرُكَ وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ".

وتيسيراً من الله على الناس فقد أرسل كلَّ رسولٍ بلسان قومه، وفي هذا يقول ربنا ﷺ مبيِّناً هذه الحقيقة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٤/١٤)، وفي آية كريمة أخرى يؤكد ﷺ على هذا المعنى مخاطباً نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِلِسَانِكَ لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ

وَتُنذِرِيهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ (سورة مؤمن: ٩٧/١٩). أجل، لما كان نبينا ﷺ سيرسَل إلى مجتمع عربي كان لا بد أن يكون عربيًا يتحدث العربية، ولو ظهر في أمة أخرى لتكلم بنفس لغتهم، فأينما ظهر نبيّ فقد تكلم بلسان من أرسل إليهم.



(٦)

سيدنا محمد ﷺ خاتم المرسلين

بدأت منظومة النبوة بسيدنا آدم عليه السلام، ووصلت إلى الكمال بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وكان الحقائق كانت في عهد سيدنا آدم عليه السلام بذورًا، ثم أطلت برأسها في عهد سيدنا نوح عليه السلام، وبعد ذلك تسنبت وتفتحت أزهارًا في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، ثم آتت أكلها وغدت رياضًا خضرةً وبساتين عالميةً في عهد سيدنا محمد ﷺ؛ لأنه ﷺ كان نبيًا عالميًا.

والقرآن الكريم يؤكد على هذه العالمية فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧/٢١)، فالجميع يستفيد من هذه الرحمة الواسعة، حتى روي أنه ﷺ قال يومًا لسيدنا جبريل أعظم الملائكة والذي نزل عليه بالرسالة: "هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ شَيْءٌ؟" قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عليه السلام عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (سورة التَّكْوِينِ: ٢٠/٨١)^(١٦)، ويقول عنه القرآن الكريم أيضًا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (سورة الشُّعْرَاءِ: ١٩٣/٢٦)، وأعتقد أن هذه الرحمة الواسعة التي أصابت جبريل عليه السلام أيضًا كافيةً للتدليل على سعة الدائرة القدسية الجاذبة لديه ﷺ، من هنا يجب أن يستقر في قلوب المؤمنين شعورٌ بأنهم أمة مرحومة بفضل دائرة الرحمة التي تشمل حتى الملائكة.

(١٦) الفاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٥٧/١.

أجل، لقد وصل الإسلام إلى الكمال ببينا محمد ﷺ، وارتقت الإنسانية في عهده، وحدثت الانقلابات المادية والمعنوية في ذهن البشرية وفكرها، ولم يعد ثمة شيء يوصف بالبداءة في البنية الاجتماعية، حيث أحاطت الحضارة والعمران بكل شيء وكل جانب، وعندما حج النبي ﷺ في أواخر حياته حجة الوداع قال هذه الكلمات الأخيرة لأمته: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: ٣/٥)، وبذلك أخبر أمته بتمام الرسالة واكتمال الدين.

والواقع أن نزول هذه الآية هو نعمة كبيرة للأمة المحمدية جميعها، ففي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَفَرُّوْنَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: ٣/٥)، قَالَ عُمَرُ ﷺ: "قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ"، وقد أشار عمر ﷺ بذلك إلى أن يوم نزولها يوم عيد عند المسلمين بالفعل.

أجل، كان نزول هذه الآية يوم عيد للمسلمين ويوم حزنٍ أيضًا؛ لأن هذه الآية الكريمة كانت تنعى النبي ﷺ، لقد جاء النبي ﷺ بدين ومنهج حياة، فبلغ الدين بأمر الله وطبقه على أكمل وجه، وبعد أن أكمل مهمته دعاه ربه إلى حضرته بأمرٍ منه أيضًا.

وعندما نقول: "لقد وصل الإسلام إلى الكمال بنينا محمد ﷺ؛ فقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: وهل كان الدين ناقصاً عند الأنبياء الآخرين؟! والحقُّ أن الضرورة كانت تستدعي قديماً إرسال رسولٍ إلى كلِّ قومٍ وأمةٍ، لا جرم أن هذه ضرورة بالنسبة للبشر، وليست بالنسبة لله، فالنبيُّ في الصين مثلاً يعجز عن أداء الرسالة نفسها في الهند، وكذلك النبي الذي ظهر في أوروبا يتعدَّر عليه حمل مهمة الرسالة على عاتقه في آسيا؛ لأن ظروف الحياة قديماً كانت عسيرة، فلم تكن هناك كالיום وسائل ميسرة للترحال، والحق أن الوقت الذي ظهر فيه النبي ﷺ كان على الشاكلة نفسها، حيث كان التواصل يتحقَّق على متون الجياد أو بعث الرُّسل، إلا أن الأمة المحمدية قد أصابها شيءٌ من معجزته ﷺ؛ فكثرت وسائل النقل والتواصل، حتى صار العالم وكأنه قرية صغيرة، ولذا كان إرساله ﷺ في عهد سيزدهر فيه البشر حضارياً وعلمياً وتقنياً وتكنولوجياً من أبرز خصائص رسالته صلوات ربي وسلامه عليه، ولهذا أرسل ﷺ إلى الناس كافة بينما كان كل رسول يُرسل إلى قومه خاصة، وقد عبر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذا الوضع بقوله: "كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ"^(١٧).

أجل، لقد غدا العالمُ اليوم قريةً صغيرةً بفضل تطوُّر وسائل التواصل والاتصال، فأیما حادثة وقعت في أي جزء من العالم إلا وتابعتها العالم أجمع في اللحظة نفسها، بل صعد الإنسان اليوم إلى الفضاء، وأخذ يتجوَّل فيه، ويعرف أخبار الكواكب والنجوم.

(١٧) صحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، ٣.

وما أجمل هذا التشبيه الذي شبه فيه النبي ﷺ نفسه بالحلقة الأخيرة في سلسلة الأنبياء، ففي الحديث يقول ﷺ: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْتَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْتَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبْتَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ" (١٨).

أجل، إن النبي ﷺ هو المكمل للمنظومة التي بدأت بآدم عليه السلام، فلولا ما سمعنا شيئاً عن سيدنا آدم عليه السلام وما عرفنا شيئاً عن سيدنا موسى أو سيدنا عيسى عليه السلام، ففضله هو تعرّف الإنسانية على الأمم السابقة والحوادث الماضية، وبما أنه نبي عالمي فينبغي للعالم كله أن يقرّ بنبوته؛ لأن بيده مفتاح كل شيء يجب التصديق به، فلا يمكن الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر إلا من خلال الأسس التي جاء بها.



(٧)

مفهوم الإيمان والعمل والعبودية

أ. العلاقة بين الإيمان والعمل

كما أن للدين بُعدًا اعتقاديًا وتصوريًا يجب الإيمان به فله كذلك جانبٌ عمليٌّ لا بدّ من تطبيقه على الواقع، فالإيمان يمثّل الجانب النظري في الإسلام، والعبادات والمعاملات تُشكّل الجانب العملي، ولكن يأتي العمل بعد الإيمان، بمعنى أن ما يجب تطبيقه عمليًا هو بمثابة متمم لما يجب الإيمان به نظريًا، ولا يُتصوّر قيام حياة نظرية من دون الحياة العملية، وحتى وإن قامت فهي قصيرة الأمد، كما يقول بديع الزمان سعيد النورسي رحمته الله: "كما أن الإسلام بلا إيمان لا يكون سبب النجاة، كذلك الإيمان بلا إسلام لا يكون سبب النجاة"^(١٩)، فلا يستنير الإنسان بأحدهما دون الآخر لا في الحياة الدنيوية ولا في الحياة الأخروية، ولهذا يجب على الإنسان أن يعيش حياته على النحو الذي يؤمن به، وأن يوثق إيمانه بعمله، فما سُمِعَ عن أحدٍ حافظ على عقيدته مدة طويلة دون عمل، فالإيمان يقوى بالمواظبة على ارتياد المساجد، وتهذيب النفس بالصوم، وتجنب الشحّ بكلّ أنواعه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١٩) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب التاسع، ص ٤٢.

حاصل القول إن كل الأركان الإسلامية هي بمنزلة دعائم توضع عن يمين الإيمان وشماله ومن أمامه وخلفه، وعلى ذلك فالعبادات والطاعات من هذا الجانب تُمثل انكسارَ وخضوعَ المؤمنين أمام الله رب العالمين؛ لأنه يجب على المؤمن أن يظهر اختلافه عن الكافر، وهذا لا يتحقق إلا بأداء العبادات والطاعات التي تعكس بدورها علاقة العبد بالله وإيمانه به حقاً.

والعبادات هي عُرى العلاقة التي لا تنفصم بين العبد وربّه، فمتى قوى العبد هذه العرى ارتقت روحه وانكشف جانبه الملائكي، وهذا هو المعنى الحقيقي للعبودية، ومن ثمّ يلزم الحفاظ على هذه الرابطة طوال الحياة، ولذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ"^(٢٠)، فأقل العبادات هي الصلوات الخمس المفروضة في اليوم واللييلة، فمن قصر فيها فقد حُرِمَ الفضل، ومن ثمّ لم يستطع أن يسلك الطريق الذي يمحو من خلاله سُخَامَ قلبه وصدأه، ويحقّق صلته بربه، يقول ربنا ﷺ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سورة الحجر: ٩٩/١٥)، وكأنه يقول له: اكشف عن ماهيتك بأداء عبادتك حتى تأتيك المنية، وأثبت أنك لست من الأحياء التي تمشي على أربع أو تزحف على بطنها.

أجل، بالعبادات تنكشف علاقة الروح والقلب بالعالم اللدني، حيث إنّ تطوّر العلاقة بين العبد وربّه منوطٌ بتشغيل هذين العضوين في هذا الاتجاه، فكما أن الحركات التي تقوم بها اليد والرجل تُسهّم في

(٢٠) صحيح البخاري، اللباس، ٤٣؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين وقصرها، ٢١٥.

اعتيادهما على بعض الأشياء فكذلك القلب والروح يعتادان بالعبادات على بعض الأمور، ويتآفان معها.. فلا ثقل النوم ولا لذة الطعام ولا الأذواق الدنيوية الأخرى تشكّل مانعًا يحول دون أدائها، وفي هذا السياق يمكن القول إن الكفر سلوكٌ يأتي بالتمرّن والاعتیاد من منظورٍ ما، والعبودية لله كذلك، فغالبًا لا يتمكن الإنسان من تحقيق العبودية لربه بشعورٍ يقظٍ، إلا أن العادات التي أَلْفَهَا القلب واعتادتها الروح تساعده بسهولة على سدّ الفراغات التي قد تتاب علاقته بربه، فمثلًا قد يشقّ على النفس الاستيقاظُ من النوم في الصباح الباكر والوضوءُ بماء بارد، فتفضّل مواصلة النوم على الفراش الوثير، غير أن الإنسان يستطيع بما اكتسبه من عادات أن يتخطّى هذه الصعوبات، وينهض لأداء صلاته، ولا يسمح لعلاقته بربه أن يتخلّلها هذا الفراغ.. وفي أحيان أخرى تتشبع الروح ومعها القلب بالعبادات بما يتنسّمانه من نسَمات إلهية، فيؤدي العبد عبادته وآلُف البسمات ترنّس على محيائه.

والإنسان يحمل في ثنايا فطرته جوانب حيوانية وملائكية في الوقت ذاته، لكن تطوّر الجانب الملائكي لا يتحقّق إلا بالحرص على أداء العبادات وإضعاف الجانب الحيواني في داخله، وبقدر تكرار العبادات والشعور بها داخليًا يتجلى ويبرز الجانب الملائكي، ويشرع الإنسان في الترقّي المعنوي بما حظي به من درجات، أما إن أدى الإنسان عباداته وهو بعيد عن ربه متعلق بالدنيا فستغدو هذه العبادات مجرد شكليات فقط، ولا تقوم بدورها كمنفذ مفتوح من الوجدان إلى العالم اللدني، وفي النهاية لا يقدر الإنسان على تطوير علاقته بربه، ويظل هذا الجانب ناقصًا فيه.

فأيّما امرئٍ توجّه إلى عالمه الداخلي فقد حصل له الانكشاف والرقى، لا فرق في ذلك بين صوفي هندي أو براهماتي أو مسيحي أو غير هؤلاء، فقد يظل الإنسان أياماً دون طعام أو شراب، ولا تخامر ذهنه الشهوات شهوراً، ويقضي عمره مع النسيمات القادمة من العالم اللدني، ولكن ثمة فرق من حيث الغاية بين ما يقوم به المسلم وما يقوم به الآخرون، فبينما يقطع المسلم شوطاً بعمله؛ يشتغل الآخرون بالعدّ أو القفز في المكان ذاته وهم يحسبون أنهم قد قطعوا أشواطاً بما وقع لهم من مشاهدات داخلية، ولكنهم لا يعلمون أن ما فعلوه ليس إلا قفزاً في قاع البئر، وما قطعوه من مسافة هو بقدر طول البئر، ومقصدهم بلوغ السكينة، وطمأنة الروح حيال الموت، والتخلص من معاناة العدم الأبدي ولو مؤقتاً، والبحث عن حلٍّ لوطأة الحساب بعد الموت.

والمحرومون من مفهوم الألوهية الصحيحة اليوم يدورون في إطارٍ ضيقٍ لمعتقداتهم الضيقة، ولا يقدرّون على قطع أي شوط نحو العالم اللدني، لا يرومون من أفعالهم إلا الظفر بمشاهدة داخلية، وإكساب أرواحهم عمقاً معيّنًا، أما المسلمون فهم بالعبادات التي يؤدونها مثل القاطرة التي استقرت على القضبان الحديدية، في كل مرحلة من مراحل حياتهم يصلون إلى نقطة معينة، وينفذون إلى الحوادث والأشياء هنالك، وينعمون بالأسماء والصفات الإلهية، ويغيبون عن وعيهم إزاء عظمة الذات الإلهية، وهذه الرحلة رحلة لا يستوعبها عقلٌ ولا إدراكٌ حيث إن سالكها يتكلم فيها بكلام الله ويبصر فيها ببصر الله، ويسمع فيها بسمع الله، ويبطش فيها ببطش الله.

وفي هذه الرحلة تبدأ عملية السير إلى الله والسير في الله ثم السير من الله أي العودة من الحق إلى الخلق مرة أخرى؛ يعني اتباع الطريق الذي سلكه سيدنا رسول الله ﷺ، والاختلاط بالناس من جديد، والأخذ بأيديهم، والوصول بهم إلى النضج والكمال، وإذاقتهم كل جماليات وحظوظ الأشواط المقطوعة، فهذا الطريق الذي يسلكه المؤمن إلى العالم اللدني بآلاف من البشر خلفه - وكأنه قاطرة - يمتد إلى الخلود؛ إذ لا نهاية للرحلة إلى الله ﷻ، وكل إنسان قطع هذا الطريق من السير والسلوك ووصل إلى المشاهدة الداخلية يتذوق ذلك وهو في نشوة العبادة والطاعة، وعندما تتجلى اللطائف الربانية يتقابل بنسمات العالم اللدني.

ب. مفهوم العبودية

إن الأرواح تسمو بالعبودية لله، وتظفر بقوتها الحقيقية؛ لأن العلاقة بالله سمة خاصة بالإنسانية، أما الحيوانات فلا تتمتع بمثل هذه العلاقة، لقد خلقها الله تعالى، وساقها إلى ما يوافق فطرتها، وفي مقابل ذلك طلب من الإنسان أن يؤسس علاقة معه ﷻ، ويطيعه ويعبده حتى لا يصيبه شيء من التشوّه المعنوي؛ لأن العبودية هي صلة الإنسان مع الله ﷻ، أي: ارتباط الإنسان بمن خلقه وبث روح الحياة فيه، وهذا فيما يتعلّق بجسمانيته وعقله وعالمه الداخلي.. فكل هذه اللطائف تموت بمجرد انقطاع العلاقة به ﷻ؛ لأن المشاعر السلبية مثل الشهوة والحقد والبغض هي أسباب كافية وحدها لقتل كلّ هذه اللطائف، فالعبد عندما يصلي يشاهد بصلاته العرش الأعظم، ويتلذذ بالعبودية الحقّة، وحتى

وإن حاولت الغرائز الحيوانية مثل الحقد والكراهة أحياناً أن تُجري حكمها عليه يمحو الجانب الملائكي فيه هذه الغرائز القدرة، ويوجه نظره إلى هويته الحقيقية.

أجل، طالما حقق المرء عبوديته استمرت علاقته بربه ﷺ، فكل مانع يحول بين العبد وربه هو قاطع لهذه العلاقة، يقول الله تعالى مخاطباً سيدنا رسول الله ﷺ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا﴾ (سورة المُزْتَمِل: ٨/٧٣)، وكأنه يقول له: "يا حبيبي، انصرف عن حب الأهل والأولاد، وانزل قليلاً، وهب نفسك لربك، وطهر قلبك مما سواه، لأنك نبي"، وكيفية وصول النبي إلى الله وعبوديته له تتجلى في هذه الأمور، وهذه الحال كما عبر عنها السادة الصوفية تعني: قطع العلاقة عما سوى الله تعالى، وكما ذكر أهل التحقيق هي: أن يعدّ العبد كل ما يحول دون الله دنيوياً زائلاً، فيعرض عنه.

ومن المفيد أن نقف قليلاً عند كلمة "تَبَتَّل" الواردة في الآية السابقة، فهذا الفعل جاء وفقاً لعلم الصرف والاشتقاق على صيغة الأمر، ويعني: "أكره نفسك على هذا الأمر وإن لم يهوه قلبك"، فثمة تكلف في الأمر، وعندما يُكره الإنسان نفسه تزداد مشاهدات عالمه الداخلي، وتستمرّ وارداتها، إلا أن هناك إكراهاً في بداية الأمر، وفي آية أخرى يقول ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَتَبَايَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ (سورة المُدَّثِّر: ١٧٤-٤-١).

وفي موضع آخر يقول ﷺ: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرْيَدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنَّ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (سورة

الكهف: ٢٨/١٨، أي: قم بما أنت له خليق، ولا تَزُنْ بنظرك إلى مال أو مقام أو إلى أصحاب المال والمقام.

لقد ربى ربنا ﷺ نبيه الحبيب صاحب الأدب الرفيع ﷺ في هذه الآيات تربية جعلته يتربع على عرش قلوب البشرية على مدار أربعة عشر قرناً من الزمان، ومن الممكن أن نستنبط المعنى التالي من هذه الآيات فنقول: ينبغي محو وإزالة كل العقبات التي تقطع صلة العبد مع ربه عند اللزوم.

إن الفيوضات التي تجري على روح الإنسان بالعبادة والطاعة تزداد بقدر قوة العلاقة بين العبد وربّه، ويظفر الوجدان بالراحة والطمأنينة، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٤/١٤)، و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سورة فاطر: ١٠/٣٥) أي إن الكلام والعمل إذا طهرا وطابا وخلوا من الشوائب وصدرا عن قلب سليم ولم يقصد بهما إلا الرضا الإلهي؛ رفعا إلى الله ﷻ، أما إن لازمتها أفكار أخرى؛ فحرما من مثل هذا اليمن والبركة.

ففي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قَتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ.

فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِي: أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَيَّ رَسُولِي؟

قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ.

قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلَّمْتَ؟

قَالَ: كُنْتُ أَفُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ.

فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ.

وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ.

وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَوْسِعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ
تَحْتَاجُ إِلَيَّ أَحَدٍ؟

قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ.

قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتَكَ؟

قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ.

فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ.

وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ.

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌّ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟

فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ.

فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ.

وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ.

وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ".

ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتَيْ فَقَالَ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ
أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (٢١).

ولهذا يجب على العبد أن يتفقد نيته على الدوام فيما يقوم به من عبادات ويحافظ على ديمومتها؛ لأن كل العبادات تكتسب بعداً وعمقاً بقدر توخيها مرضاة الله تعالى.

أجل، إن في العبودية والطاعة والانقياد إشارة إلى العلاقة مع الله، فلا مكان ولا جدوى في هذا الطريق للانفعالات الكاذبة والمشاعر الزائفة، فما يعطي قيمةً لهذا الطريق هو: الآهات الصاعدة في ظلمات الليل البهيم، والدموع التي تبلل سجادات الصلاة، والصرخات الحارة التي تنطلق إذعائاً لأمر الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢١/٢)، فكل هذه الأعمال ما هي إلا وسائل تطهر الإنسان من أرجاسه وتهيئه لدخول الجنة، وكما يعالج الذهب والفضة بتخليصهما من الرواسب والنفائيات فكذلك كلف الله ﷻ عباده بعبوديته حتى يصفى بهم ويؤهلهم لدخول جنته ورؤية جماله ﷻ، فبالعبودية يصفو الإنسان ويستنير حتى إذا ما نظرت إليه ذكرت الله كما جاء في الحديث النبوي الشريف: "خياركم الذين إذا رُؤوا، ذُكر الله ﷻ" (٢٢).

(٢١) صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٢؛ سنن الترمذي، الزهد، ٤٨ (واللفظ للترمذي).

(٢٢) سنن ابن ماجه، الزهد، ٤.

أجل، إن العبودية تصفّي الإنسان وتُثيره وتطهّر مشاعره، ولذا يقول ربنا ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١/٢).

والعبادة بكل أشكالها تنظّم الحياة وتزيّنها، وتتيح الفرصة لتقسيم الوقت إلى شرائح معينة، فمن خلال العبادات التي تتخلل الوقت وتقسمه على هيئة خطوط نورانية نستطيع أن ندرك السرّ الكامن في الوقت؛ فالصوم يقسم السنة، والسنة تنظم بفضلها في شهور، ويشكّل رجب وشعبان وشوال وذو القعدة وذو الحجة حلقة حول رمضان؛ والجمعة تضيء لونا جمالياً على أيام الأسبوع، وبواسطتها يخضع الأسبوع إلى تقسيم معين؛ واليوم ينقسم بالصلوات إلى خمس شرائح، تستضيء بها كلُّ ساعاته، وهكذا يغدو الزمن الذي يحيط بكل حياتنا ممتلئاً بنشوة العبودية لله تعالى.



الفصل الثاني
الصلاة في الإسلام



(١)

مكانة الصلاة وأهميتها في الإسلام

إن للصلاة أهمية عظيمة في الإسلام، ففي القرآن الكريم يأتي الحديث عن الصلاة بعد القضايا الإيمانية مباشرة، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يرتابون في إيمان من يترك الصلاة، والصحابة في نظرهم هذه يستندون إلى الحديث النبوي الذي يقول: "إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ"^(٢٣).

والصلاة في خشوع لها أهمية عظيمة بسبب التجليات والواردات المعنوية التي تصحبها، وهي أشمل العبادات، ومن هذا المنطلق يمكن القول: إنها أكمل عبادات الإنسان الكامل؛ حيث إنها أنسب العبادات توافقاً مع طبيعة هذا الإنسان الكامل الذي خلقه الله مهياً من أجل الوصول إليه تعالى، وقراءة الكون وتفسيره، والتنقيب والبحث فيه بواسطة العلوم المختلفة، فالصلاة يستطيع الإنسان أن يعبر عن الكمال الكامن في ماهيته، وبها فقط تتحقق سمة الإنسان التي يريدتها الله ﷻ.

أجل، يتميز الإنسان بكمالٍ مادي ومعنوي، وهذه حقيقة لا مرأى فيها، فمثلاً هذا التناسق بين وجه الإنسان وطوله وعرضه وجميع أعضائه فيه من الجمال ما يكفي لدهشة الجميع وإثارة إعجابهم، ولقد أدرك

(٢٣) صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٤؛ سنن الترمذي، الإيمان، ٩.

عباقرة الفنّ الروماني هذا الجمال في الإنسان، ولكن لأنهم حُرِّموا نور التوحيد فقد حاولوا التعبير عنه برسوماتهم ومنحوتاتهم المادية، فضيقوا المسألة.. وكثيراً ما عبرتُ عن إعجابي ودهشتي بهذا الجمال الإنساني في مناسبات عديدة حتى إنني قلت: "لو أجاز الله السجود لأحد غيره لكان للإنسان"، ويوطّد هذه النظرة من جهةٍ ما؛ أمرُ الله تعالى الملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام، ولكن الجانب التعبدي أظهر في هذه المسألة.

إن أداء مثل هذه العبادة -التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإنسان- على الوجه الأكمل له أهميةٌ بالغة بالنسبة للتجليات والواردات المعنوية التي ذكرناها آنفاً، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٢٣-٢٤)، ورغم أن مفهوم المخالفة ليس حجةً تامّةً برأسه فإننا لو نظرنا إلى مفهوم المخالفة هنا لوجدناه: "لا فلاح لمن لا يخشعون في صلاتهم" .. وإن كنا لا نميل إلى هذا التأويل ولكن من الحيلة والحذر إدخاله في دائرة الاحتمال، ومن ثم فإننا نعتقد بضرورة أداء الصلاة في لذةٍ ونشوةٍ كاملةٍ مثل تلك اللذة والنشوة التي يشعر بها الجائع عندما يأكل الطعام، والظمآنُ حينما يشرب الماء، ومن يعاني من ضيق التنفس عندما يتنفس الصُّعداء.

أجل، الصلاة ليست بالشيء الذي يؤدي اعتباراً ودون تركيز أو كيفما اتفق، بل هي عبادة ينبغي تحرّي وقتها الخاص بها، والتركيز التام قبل الشروع فيها.. والواقع أن الاستعدادات التي تسبق الصلاة فيها من القوة ما يكفي لحصول هذا التركيز، بل إن هذه الاستعدادات بما يتخللها من ترتيبات بمثابة أدوات ووسائل لتنظيم الصلاة.

فمثلاً عندما يتخلّص الإنسان من الفضلات بقضاء الحاجة يحصل على راحة معينة، فإذا أعقب ذلك بالوضوء توازنت الطاقة الحركية في جسمه، ونعم براحة أخرى، فإذا ما سمع الأذان المحمدي وهو يدوي من فوق المآذن أحسّ بعمقٍ وبعدٍ آخر، وعندما يسير إلى المسجد في خشوع وكأنه يسير إلى الله مع سماع النغمات العذبة التي يطلقها المؤذن يغوص في عالم آخر، بعدها يؤدي النافلة، وينتظر الإقامة. أجل، كلّ هذه أمورٌ مهمّةٌ لحصول التركيز في الصلاة، أو كأنها استعدادات تمهّد للعمق الداخلي، والشعور بالله، والمراقبة له في كل حين؛ حتى تُؤدى صلاةُ الفرض على وجهها الأمثل.

وأداء الصلاة بهذا القدر من الشعور العميق هو هدفٌ لا بدّ من السعي إلى إحرازه، ويمكن اعتبار الإعدادات التي تسبق الصلاة إستراتيجيات لتحقيق هذا الشعور، أي هي -على وجه التقريب- تشبه السياسات المعمول بها لتحقيق غايات معينة، أو هي وسائل تهدف لأداء الصلاة على الوجه الأكمل، فلا الأذان ولا الإقامة ولا الوضوء ولا النوافل ولا غير ذلك من الأعمال هو الغاية الحقيقية، فكل هذه الأعمال هي عبارة عن وسائل موضوعة تساعد أكمل الموجودات الذي خلقه الله في أحسن تقويم على أن يكون خليقاً بهذه العبادة.

وبما أن الصلاة تقرّب هذا المخلوق الأكمل من الله، وتعبّر عن إنسانيته الحقّة؛ فلا بد من أدائها بأعماقه الداخلية، فإن أحسّ العبد بالقلق من عدم استطاعته أداءها على الوجه الأكمل أو ساوَره الخوف من عدم القدرة على أدائها بحقٍ فقد حقّق مرتبةً مهمّةً بالنسبة له، والحق

أن هذا الأمر يتيسر للقليل من الناس، وكلمة "قليل" هي أمرٌ نسبيّ، فمن الناس من يسجد ولا يريد أن يرفع رأسه من السجود، ومنهم من إذا وقف للصلاة شعر وكأنه يتجوّل في بستانٍ من الورود، ومنهم من يعتقد أنه يطوف في سفوح الجنان، وربما يعتبر آخر نفسه متقدّمًا على الروحانيين؛ وهذا أفقٌ يبلغه كلُّ إنسان حسب قابليته، إلا أننا ما دمنا نسعى نحو الكمال بنوايانا فسندرك ما نرجو وإن لم نستطع الوصول إلى الهدف، وكما جاء في الأثر: "بَيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ" (٢٤).

وقد يقوم الإنسان بكل ما تتطلبه الصلاة من إعداداتٍ على الوجه الأكمل، ولكنه لا يستطيع أن يصل في صلاته إلى درجة التشبع لسبب ما؛ كأن يأتيه أبناؤه وهو يصلي ويمتطون ظهره، وهو ما حدث كثيرًا لسيدنا رسول الله ﷺ، أو تنهاه إليه ضوضاء وجلبة أثناء صلاته؛ فيتشتت انتباهه، ويفقد التركيز، ولا يستطيع أن يصل إلى الذروة.

وثمة أحوال تعرض لنا في صلاتنا بعضها يتجاوزنا، وبعضها قد ينشأ من بشريتنا؛ كأن تراود الإنسان في صلاته بعض الخيالات التي نسجها في عالمه الداخلي، وتشكل حجابًا مانعًا بينه وبين الصلاة، فيشعر الإنسان حينها وكأنه وراء دخان وسخام دائم.. كما حدث لسيدنا عمر ابن الخطاب ؓ عندما ذهل في صلاته لانشغال ذهنه بمشكلة وصلته من العراق (٢٥).

(٢٤) الطبراني: المعجم الكبير، ٦/١٨٥-١٨٦؛ البيهقي: السنن الصغرى، ٢٠.

(٢٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٧/٤٤١.

ولهذا الموضوع بُعد آخر، وهو البعد المتعلق بالجوّ الذي تؤدّي فيه الصلاة، فمن الواضح أن هناك فروقاً جوهريةً بين أداء الصلاة في جوّ بعيد عن المشقات والضغوطات وبين أدائها مع تراحم ووطأة الأفكار المختلفة والضغوطات المتنوّعة.. فكلُّ صلاة من هذا النوع الثاني هي بمثابة بعد آخر من أبعاد التعمق في الصلاة، ورغم فقدان الطمأنينة في الصلاة لأسباب شتى ترد من اليمين أو اليسار فإن مجرد اعتبار الصلاة متنفساً من الضغوطات والهموم يُكسبها بُعداً مختلفاً لا سبيل إلى استيعابه، وفي رأيي أن هذا هو أهم ما في الأمر.

ولهذا كان للصلوات التي تُقام خلال الحرب ثواب يفوق أضعاف أضعاف ثواب الصلوات التي تؤدّي في الأوقات العادية.. وإذا نظرنا إلى كيفية صلاة الخوف التي تؤدّي في ساحة الحرب فسنجد العجب العجاب، يقول ربنا ﷺ في سورة النساء: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْنَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (سورة النساء: ١٠٢/٤).

وهكذا تؤدّي صلاة الخوف في اللحظات الحرجة كتلك الآونة التي نتعرّض فيها للقصف أو ينزل فيها علينا وابلٌ من القنابل، وإن كانت الصلاة بهذه الكيفية تبدو غريبة بالنسبة لنا فإن لها ثواباً جزيلاً وعظيماً مقارنة بالصلوات الأخرى.

حاصل القول: إن الإنسان لو شعر بالمسؤولية التي يحملها فوق عاتقه، واستثمرَ الفُرَصَ، وأصرَّ على أداء الصلاة مهما كان الثمن فسيصل إلى مرتبة من الصعب أن يظفر بها حتى من يصلّون في التكايا والزوايا أو مَنْ هم في المسجد الحرام أمام الكعبة.

أ. أول ما يُحاسب عليه العبد

إن الصلاة هي العبادة الأولى التي يُحاسب عليها المؤمن عند مثوله في الحضرة الإلهية، لا الزنا ولا الخمر ولا أيُّ شيء آخر.. ولا يفهم من ذلك أن العبادات الأخرى لا قيمة ولا أهمية لها، بل يجب أن نفهم من ذلك مدى الأهمية التي تحوزها الصلاة ونقدّر قيمتها، فتارك الصلاة يعيش أكبر خسارة في حياته.

لا جرم أن أداء العبادات الأخرى -مثل الصيام والزكاة والحج- أيسر مقارنةً بأداء الصلاة، حيث إن للصلاة صعوبةً خاصةً بها، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعتبرون تارك الصلاة -وليس تارك الصوم أو الحج- منافقًا، بل إن العلماء عندما يتكلمون عن النفاق العملي يضرّبون المثل بتارك الصلاة، ولا يخفى أن قيام العبد بعرض عبوديته على الله كل يوم خمس مرات وفقًا لعمق شعوره؛ يسمو به إلى مرتبة لا يمكن تصورها. أجل، لا ينبغي التهاون في الصلاة أو الإعراض عنها، فمن أعرض عنها اليوم يُخشى أن يأتي يوم ويُعرض عن الدين.. وفي معنى الصلاة تكمن حقيقة المعراج، ولكن كل إنسان يستشعر هذا الأمر حسب مستواه وقابليته، ولا شك أن أعظم معراج وأكمله هو معراج سيدنا رسول الله ﷺ.

إن العبد ما إن يخطو نحو الآخرة أولى خطواته حتى يواجه بالحساب أولاً عن الصلاة، ويعبر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ"^(٢٦)، ولهذا فبقدر الأهمية التي يوليها العبد للصلاة تتحدد منزلته من الجنة أو النار، فإن أعظم قدرها حمل إلى رياض الجنة، وإن تركها وتهاون فيها سيق إلى وادي الغي في جهنم.

إذن يجب على المؤمن أن يؤدي خمس صلوات في اليوم بلا تقصير ولا تأخير، ويتحرى سبل تقوية صلته مع ربه ﷻ في كل مناسبة؛ لأن كل صلاة يؤديها العبد هنا ستمثل أمامه في ذلك اليوم الذي يكرم فيه العبد أو يهان، وتركض لإغاثته، ففي الحديث أن عائشة رضي الله عنها، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ، إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ حُوسِبَ عَذِبٌ"، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَقُلْتُ: أَوْلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (سورة الانشقاق: ٨/٨٤)، فَقَالَ ﷺ: "إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرُضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِسَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ"^(٢٧).. نسأل الله تعالى أن يعيننا بلطفه وكرمه في ذلك اليوم الذي لا يكون لنا معين سواه، وأن يثقل موازيننا ويبارك في أعمالنا الصالحة مهما كانت صغيرة، وأن لا يؤاخذنا بتقصيرنا.

ويرسم القرآن الكريم صورة الزمرة التي تتعرض للخسران بسبب تركها الصلاة بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ

(٢٦) سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٤-١٤٥؛ سنن الترمذي، المواقيت، ١٩٣.

(٢٧) صحيح البخاري، العلم، ٣٥؛ صحيح مسلم، الجنة، ٧٩.

فِي سَفَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُنْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَحُوضُ
مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ (سورة المدثر:

.٤٧-٤٠/٧٤

واللافت للانتباه هنا جمعُ القرآن الكريم بين ترك الصلاة والإعراض عن الإنفاق، والعكس هو إقامة الصلاة والإنفاق على المسكين؛ ولقد ورد ذكر هذين الأمرين معًا في عددٍ كبير من آي القرآن الكريم؛ فأحدهما ينظّم الحياة الفردية للشخص، ويؤمّن معرّاجه الشخصي، أما الآخر فهو يرمي إلى تأسيس مجتمعٍ متينٍ وسليم يمتاز بوحدة الروح وتكاملها، وصولًا به إلى الرقي في كل جنّاته.. ومن ثمّ فهما عبادتان مهمتان ومتلازمتان.

الصلاة هي أولى العبادات التي تُفرض على المؤمنين، وستكون آخر ما يُترك من العبادات بين الأمة المحمدية، قد تهمل وتترك العديد من أوامر الدين الإسلامي بمرور الوقت، كأن تجري المعاملات في الأسواق على غير ما أمر الله، أو تنتشر نيران الفتنة في كل مكان فتصيب ما لا يُحصى من الناس، ومع ذلك ستظل الصلاة هي العبادة الوحيدة التي تحافظ على وجودها في مثل هذا المناخ، ندعو الحق تبارك وتعالى ألا يرينا عهدًا تُترك فيه الصلاة بالكلية، إننا على قناعة بأننا على عتبة ربيع وانبعاث جديد، والله تعالى يقول في حديثه القدسي الجليل: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي" (٢٨)، فرجاؤنا في الله الذي عرفنا بذاته أن يزيد بواسع رحمته مثل هذه الأربعة والانبعاثات، وأن يسوق الجميع إلى حضرته،

(٢٨) صحيح البخاري، التوحيد، ١٥؛ صحيح مسلم، الذكر، ٢، ١٩.

وأن يشرفهم بالعروج إليه بالصلاة حتى ولو في آخر مراحل حياتهم، وأن يمنّ علينا جميعاً بمشاهدة جماله وكماله في العالم الآخر، إنه على ما يشاء قديرٌ وبالإجابة جدير.

ب. توأم الإيمان

إن الصلاة والإيمان قد نشأ في رحمٍ واحدةٍ، فالصلاة هي توأم الإيمان؛ والإيمان يشكّل الجانب النظري في الدين، ولا تتأتى تقوية هذا الجانب وجعله بعداً من أبعاد الطبيعة الإنسانية إلا بأداء العبادات لا سيما الصلاة، وبناءً على ذلك يمكن القول إن الصلاة هي إيمان عملي، والإيمان هو صلاة نظرية، ومن اعتبروا الدين مجرد إذعانٍ قلبيٍّ، ولم يعطوا للعبادات والطاعات أهمية ومكاناً في حياتهم فقد وقعوا في التناقض دون وعيٍ منهم. أجل، إن الصلاة هي عماد الدين، بل هي بمنزلة حوضٍ للتطهر، ونهرٍ للتوبة يجري ويمتد نحو الأبدية؛ يدخله المؤمن خمس مرات في اليوم على الأقل، الصلاة حصن حصين، وواجب مهم لا بد من استيفاء حقها حتى في أحلك اللحظات التي تستعر فيها رحى الحرب، بل هي أقصر طريق للقرب والوصول من الله تعالى، وبسبب هذه الخصائص وضعها أولياء الله تعالى من عصر السعادة حتى يومنا هذا في مركز حياتهم، ولم يكتفوا بإقامة فروضها، بل عودّوا أنفسهم على صلاة مئات الركعات من النوافل كل يوم.

ج. فهرس كل العبادات

ونظراً لأن الصلاة تستوعب في روحها كل معاني العبادات الأخرى وتنطوي على أثرٍ من آثارها فكانها فهرس لجميع العبادات، فالإنسان

يؤدي دين عبوديته لربه ﷺ بقيامه بالعبادات الأخرى في أوقات معلومة، أما الصلاة فليست هكذا، حيث إنها تحافظ على صلة الإنسان مع ربه على الدوام، وتديم عليه ارتباطه برحمته ﷻ، ومن ثمّ فليس من الممكن تصوّر وجود عبادة أخرى تضاهيها، إن الصلاة هي وسيلة للسعادة الدنيوية والأخروية طالما كانت تُؤدّى بقلبٍ مفعم بالخشوع والخشية من صاحب الرحمة والكرم جلّ في علاه، ولهذا كان النبي ﷺ وهو أعظم المكلفين من البشر يوليها أهمية عظيمة ويحرص عليها، فلم يكن يكتفي بالفروض الخمسة، بل كان يواصل لقاءه بربه ومناجاته له بالليل أيضًا، فقد كان كما قالت أمنا السيدة عائشة ؓ: "لَا يَدْعُ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَكَانَ إِذَا مَرَضَ، أَوْ كَسَلَ، صَلَّى قَاعِدًا"^(٢٩)، وهكذا لم يكن ﷺ يسمح للظلام أو الغفلة أن يخيم على أي جزء من حياته، وهو الذي كرّس عمره للعبادة والدُّكر.

والصلاة عبادةٌ تنطوي على أمور خاصة لا توجد في سواها، فهي استجابةٌ لدعوة الرب جل في علاه، وهي الشكل الذي تُصاغ فيه هذه الاستجابة بشكل خاص بها؛ ومن ثمّ فالصلاة عبادةٌ تتسم بخاصية معينة، فكل العبادات مرتبطة بأوقاتٍ معينة، فهي تُؤدّى في شرائح محددة من الزمن وتنتهي، أما الصلاة فيتجدّد وقتها دون انقطاع، فمثلاً لم نكد نشرع في صوم رمضان حتى ننظر فإذا به ينقضي وينتهي.

وفي الصيام يتوجه العبد إلى الله بانقطاعه عن الطعام والشراب، وفي الصلاة أيضًا ينقطع الإنسان عن شواغل الدنيا، ويتوجه إلى ربه كلية.

(٢٩) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٤١؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٣٤٨.

والواقع أن الصوم في حد ذاته عبادةً كريمة تؤدّى في خفاء؛ حيث لا يعلم سرّ الجائع إلا الله ﷻ، ولا يقدر ثوابه إلا هو، والظفر به مرة أخرى يقتضي الانتظار عامًا كاملاً آخر.

والزكاة عبادة تؤدّى مرّة في العام، غير أن الجميع لا يقدر على أدائها، فهي تتطلّب ظروفًا معينة، ونصابها يؤدّى في مكانه عندما يحول الحول، فهي من جهة تُعتبر عبادةً وقتية، تحلّ باليمن والبركة طوال العام على المال الذي تؤخذ منه، ربما يشعر الشخص عند اقتطاعه جزءًا من ماله من أجل الزكاة وكأنه ينتزع جزءًا من روحه، ولكن لأنه يتحرك نزولاً على أمر الله فإن الله ﷻ ينزل الطمأنينة على قلبه، ويُسعره بالنشوة والحبور.

والحج هكذا أيضًا، به يُحرّم المؤمن من الميقات، ويتعلق قلبه بربه، ويعلم عن خضوعه ونزوله على أمر ربه بقوله: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ".

بناءً على ذلك فإن كل عبادة لها خاصية مستقلة بها، من خلالها يمثّل العبد أمام الحضرة الإلهية، ويتكلم مع ربه ﷻ، ويتشبع قلبه بالفیوضات القادمة من هذا العالم اللدني، غير أن هذه العبادات كلها مؤقتة، فالمؤمن عندما ينتهي من أداء مناسك الحجّ يُجبر على الخروج من الأماكن المقدسة وإن كرهت نفسه ذلك، ويضطرّ للعودة إلى بلده كسيرًا حزينًا.

إن الصلاة تُكسب العبد اطمئنانًا يصعب مناله حتى في عرفات، بما تحمله من فيوضاتٍ لدية تنزل عليه.. تأتي الصلاة بهذا الاطمئنان

خمس مرات في اليوم، وتُشعر المؤمن بوجودها، فإذا وضع المؤمن جبهته على الأرض يقول كما قال الشاعر نجيب فاضل: "قبلي يا سجداتي من جبهتي قبليني"؛ وذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ يقول: "أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء" (٣٠).

وإننا عندما نخر بجباهنا على الأرض فإننا نصل إلى ذروة هذا القرب، ونقول ونحن مستغرقون في هذا التخيل والتصوير: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى".

وكذلك فإن الصلاة تستوعب في روحها معنى التكرار كل لحظة، وهي بذلك تتكاتف مع كلمة التوحيد، فكما أن بعضنا يكرر كلمة التوحيد صباح مساءً إزعاجاً لأمر الصادق المصدوق ﷺ ولا ينفك ذكره لها عقب كل صلاة؛ فكذلك الصلاة تلازمنا، ولا تفرحنا حتى في منامنا ليلاً، وتَدْعُونَا إِلَيْهَا كما يقول ربنا ﷻ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (سورة الشُّجُرَةِ: ١٦/٣٢).

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِذَا وُضِعَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصُّومُ عَنْ يَسَارِهِ، وَالصَّدَقَةُ وَالصَّلَاةُ وَالْمَعْرُوفُ وَالْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ... (٣١)". ومن ذلك نستنبط أن الصلاة تلازم من لا يتركها في الدنيا، ولا تدعه وحيداً في قبره بعد أن يهيل عليه الأصحاب والأحباب التراب ويضعون الشاهد على قبره ثم ينفصون ويتركونه وحيداً؛ وذلك لأن الصلاة قد نفذت بتمامها إلى أعماق المؤمن.

(٣٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٨.

(٣١) مسند الإمام أحمد، ٣٥٢/٦؛ عبد الرزاق: المصنف، ٥٦٧/٣.

والعبادات تنقسم إلى قسمين: مالية وبدنية، ورغم أن الصلاة تُعدّ من العبادات البدنية فلا نستطيع أن نقول -كما أوضح الفقهاء- أنها لا تحتوي على جانب مالي؛ ذلك لأن الناس في العهود القديمة كانوا لا يعرفون شيئاً اسمه "قيمة الوقت"، ولم تُفهم هذه القيمة إلا مع ظهور الرأسمالية والشيوعية، علماً بأن الإسلام يعطي قيمة عظمى للوقت، ولا يخفى أن الإنسان يخصص وقتاً معيناً للصلاة وللوضوء، أو يضطر إلى إغلاق حانوته من أجل أدائها، ولو جمعنا هذا كله لألفينا أنّ الصلاة يكتنفها جانب مالي.

إلى جانب ذلك فإن الصلاة في الغالب -كما يرى السادة الصوفية- يكتنفها جانبٌ من تصفية القلب وتزكية النفس، فالإنسان يتوجه إلى الله تعالى بقلبه، ويدلّ نفسه ويكسر غرورها بسجوده، ومن ثمّ فإن الصلاة تحتوي على معنى "ترقيّ الروح".

وللصلاة خاصية أخرى وهي وقوف العبد في صِفٍّ واحدٍ مع الملائكة، ولذلك يوصى المصلُّون بالسلام على الملائكة والروحانيين عند التسليم في ختام الصلاة؛ بمعنى أن هؤلاء أيضاً يشاركون الإنسان الصلاة، وتنزل السكينة على المكان الذي يتواجدون فيه، وبذلك فإن الصلاة تحمل نكهةً من عبادة الملائكة.

والملائكة يتخذون أشكالاً مختلفةً للتعبير عن تعظيمهم لربهم ﷻ، فمنهم من يظلّ قائماً أو راکعاً أو ساجداً على الدوام، أما الإنسان فيتمثّل -من جهة ما- كلّ هذه العبادات التي يقومون بها، وبينما يؤدّي كلّ

صنف من الملائكة نوعاً من هذه العبادات فإنَّ الإنسان يؤدِّي كل هذه العبادات جملة واحدة.

من جانب آخر فإننا إذا نظرنا إلى الأحياء على وجه البسيطة لاحظنا أن بعضها يمشي على رجلين، وبعضها على أربع، والبعض الآخر على بطنه، والجميع بهذا الشكل يعبر بلسان حاله عن عبوديته لربه ﷻ، أما الإنسان فإنه يتخذ في الصلاة وضعية يعبر بها عن عبودية أولئك جميعاً.

فضلاً عن ذلك فإن الصلاة تعين الإنسان على فهم الخصائص التي تتمتع بها مقارنة بالمخلوقات الأخرى، فتراه عند القيام يقول: "ربنا ولك الحمد، لم تخلقني منتصباً بلا حراك كالشجرة، بل خلقت لي مفاصل أستطيع بها أن أثنى وأقوم، وأمارس كل الحركات دون تعب"، وعند الركوع يقول: "اللهم لك الحمد، لم تجعلني مقوس الظهر كبعض المخلوقات"، وعند السجود يقول: "اللهم لك الحمد على أنك لم تجعلني من الزواحف"، وفي هذا السياق يقول ربنا ﷻ تعبيراً عن هذه الحالة: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة النور: ٤٥/٢٤).

فالصلاة بناءً على الجوانب التي ذكرناها آنفاً هي بمنزلة فهرس يذكر الإنسان بكل العبادات.

د. الاستعداد للصلاة

وبسبب قدسية الصلاة وتميزها تُكتب الأعمال التي تؤدى في سبيلها صلوات عند الله؛ لأن السعي وراء عمل مهم وحساس يُعدّ مثل القيام بالعمل نفسه انطلاقاً من الأثر الذي يقول: "نَبِيُّهُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ" (٣٢).

ونحن اعتماداً على ثقتنا المطلقة برحمة ربنا الواسعة في هذه المسألة نقول: إن كل عمل نُؤديه استعداداً للصلاة بدءاً من الاستبراء الذي يسبقها مروراً بالخطوات التي نخطوها عند الذهاب إلى المسجد؛ تُعدّ كالصلاة، وتُكسبنا ثواب الصلاة، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظِرَ الصَّلَاةَ" (٣٣).

وفي رواية أخرى عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَأَخَذَ مِنْهَا غُضْناً يَابِساً فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا غُضْناً يَابِساً، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ فَقَالَ: "يَا سَلْمَانُ: أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟"، قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ: "إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَاةَ الْخُمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ" (٣٤).

أجل، إن المؤمن اعتباراً من اللحظة التي ينطلق فيها إلى المسجد يُعدّ داخلياً في الصلاة معنوياً، وحتى وإن لم يدخل في الصلاة بالمعنى الحقيقي، ويعبر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذا الوضع بشكل أوضح

(٣٢) الطبراني: المعجم الكبير، ٦/١٨٥؛ البيهقي: السنن الصغرى، ٢٠.

(٣٣) صحيح البخاري، الأذان، ٣٠.

(٣٤) مسند الإمام أحمد، ٤٣٧/٥، سنن الدارمي، الطهارة، ٤٥.

فيقول: "أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ ضُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّ لَا أَدْرِي، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْ فَوْجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ تَدْيِي فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الدَّرَجَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ، وَفِي نَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ، وَانْتِظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهِنَّ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"^(٣٥).

وهذا يعني أن انتظار الصلاة بعد الصلاة أمرٌ يغبطه ساكنو الملائ الأعلى، فمثلاً إذا صلى العبد صلاة الظهر، ثم مكث في المسجد قائلاً: "آه! لو يحل وقت العصر، فأقوم بين يدي ربي مجدداً وأؤدي عبادتي له"؛ كان هذا الأمر مدعاةً لتخاصم الملائكة فيما بينهم، يعني أن العبد يشرع في أداء عباداته وطاعاته ريثما ينوي أداء هذه العبادات والطاعات. كما تحمل الخطوات التي تُخطى إلى المسجد خصوصية مختلفة؛ لأن المساجد هي أماكن مقدسة ترتفع منها النوايا والتضرعات إلى الله تعالى، فأیما شخص أدى صلاته في بيته بدلاً من المسجد فقد حرم أداء الصلاة كاملة، وحُرم أجرها وثوابها البالغ سبعمائة وعشرين درجة.

عن أنس رضي الله عنه أَنَّ بَنِي سَلَمَةَ أَرَادُوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا عَنْ مَنَازِلِهِمْ فَيَنْزِلُوا قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: فَكَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُعْرِضُوا الْمَدِينَةَ، فَقَالَ: "أَلَا تَحْتَسِبُونَ آثَارَكُمْ"، فَأَقَامُوا^(٣٦).

(٣٥) البزار: المسند، ٤٢/١١.

(٣٦) صحيح البخاري، فضائل المدينة، ١١، المساجد، ٢٨٠-٢٨١.

أجل، لا بد من الذهاب إلى المسجد وإقامة الصلاة فيه؛ لأن المساجد هي بمنزلة علامات متوجهة تشير إلى الكعبة؛ بيت الله في الأرض، وهي تدل الناس على الطريق الموصول إلى الله تعالى، ولهذا فإن الصلوات التي نصليها في جماعة تدخل ضمن دائرة الصلوات التي تصلى في الكعبة؛ لأن الكعبة إذا كانت مسجداً وضعه الله، فالمساجد الأخرى التي بناها الناس ترتبط وتحيط بها، وكل ما في هذه المساجد من منابر ومحاريب موجهة جميعها إلى الكعبة، ولكن بما أننا لا نستطيع أداء صلواتنا كل وقت في الكعبة فإن دوامنا على الصلوات في هذه المساجد التي هي انعكاس للكعبة يُكسبنا ثواباً ويمنحنا فضيلةً تشبه الصلاة أمام الكعبة.

هـ. ثواب الصلاة

بالصلاة ينمو الإنسان وينضج ويتكامل خمس مرات في اليوم، ويصطبغ بالصبغة المتوقعة منه؛ أي إنه يتصفى بالصلاة، فيدل على الأسماء الإلهية والصفات السبحانية، ويشع باللون الذي عكسته عليه أوامر الحق ﷺ، فمثلاً تراه يقول: إذا كان الله يريد مني أن أقف منكسراً معقود اليدين في حضرته فإنني أفعل هذا بقيامي، وإذا كان يريد مني أن أكسر أنانيتي وغروري فإنني أفعل هذا بركوعي، وإذا كان يريد مني أن أتوجه بكل تعظيم وإجلال له فإنني أفعل هذا بسجودي.. ويظل يقول هذا مشيراً إلى إذعانه لأوامر ربه ﷺ حتى يصطبغ -إن جاز التعبير- بصبغة الله ﷻ.. بمعنى أن الإنسان ينشرح قلبه بالإيمان بربه ﷻ، وتلمع جبهته، ويتجلى وجهه عن حقيقة: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾

(سورة الفتح: ٤٨/٢٩)، ويتخذ الشكل الذي وصفه نبينا ﷺ في الآخرة بقوله: "غُرًّا مُحَجَّلِينَ، مِنَ الْوُضُوءِ" (٣٧)، وعلى ذلك يعكس كل الألوان الخاصة بالعالم اللدني؛ وهذه صبغة لا تفوقها صبغة أخرى.

الصلاة هي عمل ممتع للغاية بالنسبة لمن يدركون لذتها، وعبء وثقل لمن لا يستطيعون محاسبة أنفسهم ومساءلتها، ولذلك ترى البعض إذا فاتته الصلاة يحاسب نفسه حساباً عسيراً وكأنه ارتكب ذنباً لا يُغْتَفَرُ، والبعض يعتبرها واجباً لا بد من أدائه، والبعض الآخر يعتبرها بلائاً لا بد من دفعه، وعبئاً حمّله الله للناس ولا سبيل لتذليله والتغلب عليه؛ وهذا مثال على عدم الشعور بالمحاسبة. أما الإنسان العاقل فهو الذي يعتبر الدنيا فانية، والموت قادماً لا مرأى فيه، وعلامات الشيخوخة أمارات على الموت، فيعمل على وضع النعم التي وهبها الله له في مكانها الصحيح، ويستغل أكبر قدر ممكن من لحظاته وأنفاسه وأوقاته في الاستعداد للآخرة، ولا يكتفي بتخصيص ساعة واحدة من يومه فقط للصلاة؛ متنفس روحه، التي تطهره مادياً ومعنوياً وتؤهله للآخرة وللمثول بين يدي ربه، والتي تتيح له رؤية جمال الله.. بعبارة أخرى: إن العبد لا يقتنع بتخصيص ساعة واحدة من يومه فقط للصلاة التي تكفل له رؤية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيعمل على زيادة حجم ثمرته بنثر بعض النوافل بين أوقات الصلاة الخمسة.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُتَأَفِّقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ

مَا فِيهِمَا لِأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا" (٣٨)، فالنفاق هو الخداع للطرف الآخر، أو هو تعبير عن عدم الإخلاص في أداء الأعمال، وبما أن المنافق لا يتحلى بالصدق والإخلاص في عمله فإنه لا يتحمل مشقة الذهاب لأداء صلاتي العشاء والفجر، لأن كلا الوقتين يتخللان وقت الفتور والراحة، أما المؤمن فينطلق في حركاته من الفكرة التي تقول: "الرحمة في المشقة"، ويذهب لأداء صلاتي الفجر والعشاء في جماعة ولو زحفاً -رغم اختلاف الفقهاء حول حكمها بين الوجوب أو كونها سنة مؤكدة- مبرهنًا على عبوديته لربه ﷻ.

أجل، الصلاة هي أضمن الأشياء التي يقدرها الإنسان، ولكن هناك بعض الناس يسعون بكل ما في وسعهم وجهدهم من أجل هذه الحياة الدنيوية القصيرة ولا يحصلون على مقابل عملهم هذا أحياناً، ورغم ذلك لا يخصصون ولو ساعة واحدة في اليوم لأداء الصلاة التي تثمر الجنة ورؤية جمال الله تعالى، الجميع تقريباً بدءاً من العامل مروراً بالموظف وحتى المتقاعد لا يتمكنون من الحصول على مقابل عملهم، فيشكون من قلة ذات اليد، والواقع أن هذا كله يرجع إلى عدم وفاء أصحاب العمل لوعودهم وعدم مراعاتهم للحقوق والواجبات، يعدون ولا يلتزمون، ويعهدون ولا يوفون بعهودهم، يدعون أن كل شيء سيكون على ما يرام، ثم لا يوفقون في ذلك ويأخذون في تهديد الناس. ولكن صادق الوعد إذا وعد بشيء وقى بوعده، فمثلاً إذا قال الله تعالى لنا: "ما من عبد يصلي صلاته إلا جعلته يمرّ على الصراط كالبرق

الخاطف، وشرفته برؤية جمالي، وأثقلت له كفة الميزان بدموعه التي سكبها على سجادته، وجازيته خير الجزاء؛ فلا ريب أنه سيفعل؛ فهو على كل شيء قدير، ويمكن أن نعتقد الشيء نفسه في الأمور التي نهانا ﷺ عنها، فهو القدير كذلك على إيقاع العقاب الذي حدده عند مقارفة المحرمات، إلا أنه يجعل باب العفو مفتوحاً على الدوام.

أجل، لقد وعد الله عباده بالجنة جزاء صلاتهم، ولا يخلف الله وعده، فالمؤمن إذا صلى ارتقى بمعراج صلاته إلى العالم الذي يرى فيه ربه، وكأنه كل يوم يرتقي سلماً من خمس درجات، ومثل هذا المؤمن الذي يحرص على أداء الصلاة إذا توفّي وتنزلت عليه رحمة الله تغمره السعادة إزاء المنظر الذي يشاهده، ولا يدري ماذا يفعل، ويحكي القرآن المعجز البيان عن هذه الحالة التي يكون عليها المؤمن في المحشر، فيقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ قُرْءَانٌ كِتَابِيهِ ۗ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾ (سورة الحاقة: ١٩/٦٩-٢٠)، نسأل الحق تعالى أن يلحقنا بهذه الزمرة الصالحة.

إننا كالجندي في العسكرية نُرسَل إلى الدنيا لتدرب وتتعلم ونكسب الجدارة التي تؤهلنا للفوز بالمقامات العليا في العالم الأخرى، فكل شيء في هذه الدنيا عبارة عن تعليم وتدريب، وسدٍ للشغرات ومعالجة لأوجه القصور، وتخلص من التواءات وتلافٍ للعيوب، ثم الارتقاء إلى درجة الكمال، وكسب الجدارة التي تؤهل العبد لدخول الجنة ورؤية الرب ﷻ، والصلاة هي العبادة التي تحقق هذه الغايات على أكمل وجه؛ لأنها أعظم من أن تُقارَن بالعبادات الأخرى، هي عماد الدين،

وبها تجري سفينة الدين، جعلها الله معراجًا، وأراد أن يرانا ونحن نرتقي على مدارج هذا المعراج، حتى نموت ونرحل للقاء الله ﷻ، ستكون هذه الصلاة هي أعظم وسيلة لرقبتنا المعنوي، بل وعندما ارتقينا في المقامات والدرجات ستقول الصلاة: "اللهم لا تضيّعهم هنا كما لم يضيعوني هنالك"، أما إذا لم نكن ممّن يسبغ وضوءه في الدنيا ولم يؤدّ الصلاة بأركانها، ولم يسهم في شيء من أوجه البر والإحسان؛ قالت: "ضيعك الله كما ضيّعني".

فلو غاب ميلُ الناس نحو الصلاة في أي مجتمع لا سيما بين فئات المثقفين والمستنيرين فهذا يعني أن الحياة الدينية في هذا المجتمع قد أوشكت أن تذوي وتذبل، وإذا ما نظرنا إلى الحالة المزرية التي عليها الأمة الإسلامية اليوم ألفينا هؤلاء الذين يترفعون عن وضع جباههم على الأرض ساجدين لله ﷻ قد باتوا يقبلون عتبات التافهين من أمثالهم، فهؤلاء لا يصدقون بوجود حسابٍ على أفعالهم في الدار الآخرة؛ ولذلك استبدلوا الخوف من الله والشعور بالمسؤولية أمامه بالتّزيي ببعض الخصال مثل التبيد والفساد واللصوصية.. بيد أن المجتمع الذي يتشكّل من المؤمنين الحقيقيين ليس هكذا على الإطلاق، فهؤلاء المؤمنون يتوجسون خيفة من أن يُحاسبوا على أيّ شيء ولو كان تافهًا بسيطًا، وعلى هذا الأساس يتحركون، إن المؤمن عندما يغدو ويروح إلى المسجد خمس مرات في اليوم مجدّدًا العهد بينه وبين الله كأنه يقول: "اللهم إنني لا أنسى أنني عبد لك، وقد أتيت إلى حضرتك معترفًا لك بهذا، وإذا ما خرجت من المسجد سأنظّم حياتي على هذا الأساس،

ولن يغيب وجودك عن ذهني ولو لحظة واحدة، ولن أتحرك خطوة إلا وأنا أعلم بأنك مراقبي، ولن أعتدي على حق إنسان، بل ولن أدوس حتى على نملة"، إن المؤمن مجبّرٌ على التفكير بهذا الشكل، فلو لم يفعل فقد ناقض فعله قوله، وكذب على ربه، لأنه يمثل أمام ربه أربعين مرة في اليوم، فيركع له أربعين مرة، ويسجد له ثمانين مرة، وفي كل مرة يعترف له ويعلن عن عظمته وكبريائه، وبذلك لا يكون هناك محل لأي انحراف في حياته.

أجل، بقدر تواضعنا لله تعالى باسم العبودية يرفعنا الله إلى أعلى مراتب الإنسانية، لكن إذا ما عشنا أسرى لأهوائنا ومصالحنا وانشغلنا بأموالنا الدنيوية ربما نكسب ظاهراً لكننا في الحقيقة نفقد الكثير والكثير، وفقنا الله إلى التذكر بالآخرة على كل حال! واستخدمنا في أعمالنا نتذكره تعالى بها في كل شؤوننا! ونتذكر دائماً الحساب والميزان ودفاتر الأعمال! نتذكر حتى نكيّف وضعنا على ذلك، والواقع أن المؤمن من إذا رأيته ذكرك برّبك وبالآخرة واستقام قلبك.

فما أسعد هؤلاء الذين يغدون ويروحون إلى المسجد خمس مرات في اليوم، ويخوضون بحر الصلاة الذي أجره الله حتى غدا شلاً عظيماً، ويتطهرون من أرجاسهم المادية والمعنوية، ثم يقفون معقودي الأيدي أمام ربهم العلي ﷺ، يتضرعون إليه ويتوسلون بأن يعبر عالمهم الأخرى.



(٢)

الصلاة بوصفها عبادة

أ. التعبدية في العبادات

الدعاء والعبادة والتوجه إلى الله تعالى سرٌّ من أسرار العبودية، بمعنى أن العبد قد لا يعرف المعاني التي تكتنفها هذه الأمور، ولكنه يؤديها على وجهها لأنه مأمور بها فحسب، وبذلك يثبت أنه عبد مطيع لله تعالى، فبالعبودية تتحقّق بعض المقاصد، كأن يتغذّى القلب والروح والحسّ والسرّ معنوياً، ويتّجه الجميع إلى الله تعالى، ولو فكر الإنسان قليلاً لأدرك أن هناك بعض الفوائد والحكم الأخرى أيضاً.

فمثلاً الزكاة هي جسّرٌ إسلامي وتديبٌ وقائيّ يحول دون النفاق والشقاق، ويجعل الفقراء جنباً إلى جنب مع الأغنياء، ويغرس الودّ بينهم وبين بعضهم البعض، وكذلك الحج هو بمنزلة رحلة أو نزهة يهنأ الإنسان فيها بالراحة، ويستعيد فيها وعيه وانتعاشه، كما يُعتبر في الوقت ذاته بمثابة مؤتمر إسلامي على مستوى العالم الإسلامي، أما الصوم فينشأ عنه أن تتعرف النفس على الطاعة، ويمارس الإنسان من خلاله نوعاً من الحمية، ويستعيد به عافيته.

ولكن المؤمن لا يعلّق عباداته قطعاً على هذه الفوائد والمقاصد؛ لأنه يعلم أن التعبدية هي الأساس في العبادات؛ أي ينطلق في أداء عباداته

من أمر الله له، أيًا كانت المصالح أو الحِكم التي تقف وراءها، وسواء فهم هذه المقاصد أم لا، فثمة حكم كثيرة أخرى لا يستوعبها عقله، وكما تظهر بعض الحِكم من وراء الزكاة والصوم والحج، فكذلك تظهر بعض الحكم من وراء تخصيص الصلاة لأوقات معينة واختلاف عدد ركعاتها، وركوعها وسجودها وقيامها، ولكن المؤمن الصادق لا يربط صلاته بهذه الحكم، بل يتخذ الأمر الإلهي أساسًا بالنسبة له، ويطلق على هذه الخاصية التي تُراعى في العبادات في اصطلاح علماء الفقه "التعبدية".

وثمة جانب مهم في الأمور التعبدية: فقد تعجزون عن إدراك العلاقة بين العبادة التي تؤدونها والشيء الذي يفيضه الله عليكم وفقًا لمبدأ السبب والنتيجة، فمثلاً قد يحدث بعد أن تؤدوا صلاتكم أن تتحقق مطالبكم الدنيوية والأخروية، والقلبية والروحية، والعقلية والعاطفية، حتى إن الدهشة تأخذكم وتقولون كيف يحدث هذا! وهنا ملمح دقيق لطيف وهو أن التعبدية تنمي لدى الإنسان فكرة أنه يقوم بعبادته تعبُّداً لربه سبحانه أو لأن الله أمره بها فحسب.

وإذا قلبنا النظر مرة أخرى في معجزات سيدنا رسول الله ﷺ فستأخذنا الدهشة والعجب؛ فكيف استطاع ﷺ بإشارة من أصبعه أن يشق القمر نصفين، أو أن يدعو الشجرة إليه، أو أن يجعل طعام عشرة أشخاص كافياً لسبعمئة شخص بركة يده الشريفة.. إن كل هذه الأمور حسب قانون السبب والنتيجة تُجاوز حدود العقل؛ وهذا يعني أن الله تعالى يخص بعض عباده بأطاف خاصة، وعلى الشاكلة نفسها كلما رأى الإنسان ما

يؤدّيه من عبادات وما يقوم به من أفعال وتصرفات وما يتمخض عن ذلك من نتائج باهرة وألطف ظاهرة تترسخ فكرة التعبدية وتزداد لديه. فضلاً عن ذلك فإن التعبدية تحظى بأهمية بالغة؛ وذلك لأنها تجعل الفرد لا يفكر في الحِكم الخفية وراء وظيفة العبودية، بل تسوقه إلى أداء عباداته إذعاناً لأمر الله ليس إلا، وترسخ فيه شعور التوجّه الخالص إلى الله تعالى، وتنمي فيه فكرة التحري عن رضا الله ومرضاته على الدوام، ولا يقتصر مبدأ التعبدية على العبادات فقط، بل يتجاوزها إلى كل ما يتعلق بحياة الإنسان الفردية والأسرية والاجتماعية، فيمكن للبعد أن يبتغي حتى من وراء معاملاته وأعماله اليومية التي يؤديها على الدوام طاعة أمر ربه فحسب، وإن لاح له منها كثير من الحِكم والمقاصد التي توافق العقل والمنطق والحكمة، فلو تحرى الإنسان هذا الجانب التعبدية سواء كان في عباداته أو عاداته ومعاملاته اليومية استطاع أن يعوّد نفسه على التحلي بروح العبودية الخالصة.

وفي هذا السياق يقول الأستاذ النورسي رحمته الله: "إن الاتّباع المباشر للسنة المطهرة يذكر بالرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله، فهذا التذكّر الناشئ عن ذلك الاتّباع ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل إن أبسط المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها إذا روعيت فيها السنة الشريفة تحوّلت إلى عمل شرعي وعبادة يُثاب عليها" (٣٩).



وثمة ملمح لطيف في فكرة التبعدية وهو: أن الله تعالى هو المالك والمتصرف الحقيقي، والبشر عبيد وملك له، وما دام هو صاحب الملك فمن حقه أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولكن رغم أنه حاكم مطلق ويرجع إليه تعيين أفعالنا وتصرفاتنا فقد استخلف ﷺ البشر في الأمور العادية، ومنحهم حق التدخل في الأشياء، وهذه مالكية نسبية، فيجب على الناس أن يخضعوا ويسلموا تسليماً مطلقاً لهذا الحاكم المطلق والمتصرف المطلق ﷺ، وأن يستخدموا الحق الإضافي النسبي الممنوح لهم للتدخل في الأشياء والأمور العادية، ولكن عليهم عند استخدام هذا الحق أن يعلموا أن صاحب المال الحقيقي والمتسبب الحقيقي هو الله ﷻ.

لقد خلق الله تعالى في الكون بعض القوانين قد يمكن أن نسميها بالسنة الإلهية مثل قوانين الجذب والدفح والاحتكاك والجاذبية الأرضية، فمثلاً طالما لقيت الأعشاب والأشجار القوة الإنبائية في التربة، وتعرضت لحرارة الشمس ورويت بالماء نمت وترعرعت وآتت أكلها، وكذلك الحال في النباتات تنمو وترعرع وتثمر برّيها بالماء، علماً بأن الله تعالى قادرٌ على خلق هذه النتيجة دون حاجة إلى الماء، لكنه ﷺ خلق الماء سبباً، فلما عرفنا نحن هذا السبب قمنا بتطوير وتطبيق أساليب للري بما يتوافق مع ظروف العصر والعلم والتكنولوجيا، وحتى تحصل النتيجة المرجوة من البذرة عند إلقائها نبحت عن المنهج الأمثل في الزراعة ونحاول تطبيقه.

ولكن عند إلقاء البذرة نقول في أنفسنا: "إن كل ما فعلناه هو مجرد أسباب، أما النتيجة فهي من الله تعالى، فإن نبتت البذرة فهو من أنبتها،

وإن أثمرت الضّعف فهو من أثمرها، أما الأسباب فهي حجاب لعزته وعظمته ﷻ، وينبغي أن نربط ذلك بفكرة: "إن العزة والعظمة تستدعيان وضع الأسباب الظاهرية أمام نظر العقل، إلا أن التوحيد والجلال يردان أيدي الأسباب عن التأثير الحقيقي" (٤٠)، وهكذا فإننا إذا ربطنا حتى مثل هذه المسألة بفكرة التبعية فقد حققنا عبوديتنا لربنا ﷻ، فإن كان ربنا ﷻ قد أعطى لنا الحق بالتدخل في الأشياء بشكل نسبي، وأخذنا نحن بالأسباب كما أمرنا ﷻ فإننا نكون قد بلغنا شعور العبودية الحقة.

ب. عدم التشوّف إلى أجر في العبادات

إن كل مؤمن قد استوعب سرّ العبودية يربط كل أعماله على رضا الله تعالى فقط، ويسعى إلى أن يفتح الأبواب ويجتاز الممرات التي توصله إلى الله تعالى فحسب، ويعتبر أن كل قوة اكتسبتها روحه وأي مستوى بلغه في الحياة القلبية لطفاً آخر من ألطاف الرحمن الرحيم، وسواء حصلت هذه النتيجة أم لم تحصل يجعل الله محط نظره ويثبت على عبوديته، بل ينظر إلى الفيوضات الخارقة التي تنزل عليه بتواضع وإخلاص كما ينظر أهل الله، ويخاطب ربه بقوله:

نعمة لم أكن أنا الحقيير أهلاً لها

فما سر هذا اللطف والإحسان؟!

إنني قد طلبت أعظم مطلوب وهو أنت، أريدك أنت فقط، فإن كنت لي فلا يهم أن يكون لي شيء آخر، لأنك لو كنت لي فقد حزت كل شيء، وتخلّصت من الفقر"، وبذلك يعيش بشعور كامل للعبودية.

(٤٠) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة والعشرون، ص ٣٢٥.

فالذين لا يتشوفون إلى أيِّ أجرٍ في هذا السبيل هم الذين لا يتعشرون ولا يتساقطون على الطريق، أما الآخرون فداءً ما ينخدعون؛ لأن الذين لا يتطلعون إلى أيِّ أجرٍ قلوبهم تنبض قائلة: "اللهم إنك أنعمت عليَّ مسبقًا وبلا مقابلٍ بنعمٍ لا تُعدُّ ولا تحصى، وشرفني بنعمة الحياة وجعلتني إنسانًا، ونورت قلبي بنور الإسلام، ومكنتني من السير في طريق المعرفة والمحبة، وأكرمتني بالخدمة في سبيل الدين والوطن والأمة، وقد حصلتُ على ما أحصل بالفعل، وكلفتني إزاء كلِّ هذه النعم بتكليفٍ ممتعٍ ومريحٍ ويسيرٍ وهو العبودية، فما يقع على عاتقي الآن هو كسب مرضاتك بالعمل على الاستثمار الجيد لإحساناتك، وأن أكون عبدًا حقيقيًّا لك بقدر ما أستطيع، ثم ألتجئ إلى رحمتك وكرمك".

وانطلاقًا من هذه الملاحظات كان أولياء الله كثيرًا ما يتضرعون إلى الله تعالى في دعائهم قائلين: "اللهم إنك أنعمت علينا بالوجود رغم أنك في غنى عن هذا أو ذاك، وأكرمتنا بأشياء حتى لا نحتاجها، وإنما الآن في حاجة حقيقية إلى العبودية الخالصة، وفي فقرٍ كبيرٍ إلى لطفك وكرمك، إنما لم نك شيئًا، ولم نفكر أن نكون.. لم يدر بأذهاننا أن نكون بشرًا، ولا يمكن أن نفكر كذلك، ورغم أننا لم نكن في حاجةٍ إلى ذلك فإنك تلطفت علينا بكرمك، لكننا الآن في حاجةٍ ماسةٍ إليك حتى نثبت فيما بعد، ونلزم طريق الجنة، ونسعى إلى رضاك، ولا نتعثر أو نسقط، أو نستكين لضعفنا، فيا الله، يا من أنعمت علينا بأشياء لا حاجة لنا فيها أنعم علينا بما نحن في حاجةٍ ماسةٍ إليه".

أجل، من الأهمية بمكان أن نعرف الله بالقدر الذي ينبغي لنا أن نعرفه، وأن ننظر إليه كما ينظر إلينا، وأن نتوجه إليه كما يتوجه إلينا، وأن نقف على بابه ونقول: "اللهم عَرِّفْنَا بِنَفْسِكَ، وَأشْعِرْ قُلُوبَنَا بِمَعْرِفَتِكَ، وَأشْبِعْ أَرْوَاحَنَا بِمَحَبَّتِكَ حَتَّى لَا تَزِيغَ قُلُوبَنَا أَبَدًا، اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا قُوَّةَ الْإِرَادَةِ حَتَّى نَتَغَلَّبَ عَلَى الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ الْأَمَارَةِ".

جـ. الشرك والرياء في العبادات

من أخطر الأمراض التي تنشأ عن الفراغ والضعف البشري، والتي تشل حياة الإنسان القلبية والروحية الرياء والسمعة، وتظهر هذه الأمراض بأشكال مختلفة، فأحياناً يقوم الإنسان بأعمال لا لشيء إلا أن يراه الآخرون ويسمعونه فقط، وأحياناً أخرى يجتهد الإنسان في القيام بعمله على أكمل وجه؛ لا يرمي من وراء ذلك إلا أن يفوز بتقدير الناس وثنائهم فحسب.

ومن أمثلة الحالة الأولى هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للمنافقين الذين يتكاسلون في أداء صلواتهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء: ١٤٢/٤).

لقد كان المنافقون في عصر النبوة الذي ساد فيه المسلمون يتظاهرون أمام المسلمين بإسلامهم ويراؤونهم بصلواتهم رغبة في الاستفادة من الغنائم أو الفوز بمصالح ومنافع خاصة بهم؛ ولهذا كانوا إذا أتوا إلى المسجد النبوي أتوا إليه كارهين وصلوا صلواتهم متكاسلين، ويتتهزون

أيّ فرصة للفرار من المسجد مسرعين؛ حيث لم يكن همهم الصلاة في الحقيقة، بل الظهور والرياء أمام المسلمين.. وما ذكرناه من أجل الصلاة يسري على كل العبادات أيضًا؛ فمثلًا ترى الرجل يجلس في مكان ما ويخوض في الحديث ويلهو عابثًا لساعات عديدة، فإذا ما اجتمع به الناس يمسك سُبحته ويشرع في الذكر على الفور رياءً وتظاهرًا، فحال هذا الشخص يدخل ضمن الإطار الذي ذكرناه آنفًا.

وأحيانًا لا يقصد الإنسان من وراء عمله الظهور والرياء، لكنه حين قيامه بهذا العمل يحاول أن يتراءى بأنه يقوم بعمله هذا على أفضل ما يكون؛ فمثلًا حينما يقوم للصلاة منفردًا لا يراعي أركان الصلاة وواجباتها، بل ويتهاون في أمرها، حتى إنه يسرع إلى القيام من الركوع دون أن يستبين أقال "سبحان ربي العظيم" مرة واحدة أم لا؟ وسرعان ما يُسرع إلى السجود دون أن يستوي قائمًا تمامًا، وحينذاك لا يختلف حاله في السجود عن الركوع، غير أن هذا الإنسان الذي ذكرناه أنه يتهاون في ركوعه وسجوده بهذا الشكل إذا صلى بين الناس تراه يؤدي الصلاة بأحكامها وأركانها؛ وهذا يعني أن حاله -بلفظ الحديث- يفوح منه "الشرك الخفي" (٤١).

أجل، إن مثل هذه التصرفات يداخلها الشرك؛ لأنه لم يُراعَ فيها مرضاة الله بل مرضاة الناس، علمًا بأن الظاهر إذا اتفق مع الباطن حاز قيمة كبيرة، أما التظاهر والرياء -حفظنا الله- لجلب إعجاب الناس فهو أمرٌ خطير للغاية، إذ يُسجّل في صحيفة أعماله بأن هذا عمل شرّكي حتى وإن كان صاحبه مؤمنًا.



والحال أن الإسلام اسم وعنوان لنظام يتألف من مجموعة من القوانين الإلهية التي أنزلها الله لتخليص الناس في الأساس من الشرك، وأنه هنا مرة أخرى بأن الله ﷻ معبود ومحبوب ومقصود ومطلوب لأنه هو الله، وليس العكس؛ ولذلك فإن توجيه العبودية إليه وربطها بذاته، وعدم الإشراف به عند القيام بهذه العبودية هو حقٌّ وواجبٌ علينا نحوه، وإن التفكير في أشياء أخرى عند القيام بهذا الواجب يعني تدنيس هذا الأمر. وإن ابتغاء مرضاة الله تعالى فحسب عند أداء العبادات والخدمات، والسعي لوفاء دين العبودية كاملاً على أي حال، بل والتوجس خيفة من أن تتضرر العبادة ببعض الأفكار المنافية للإخلاص؛ كل هذا يجب أن يكون غاية يصبو إليها جميع المؤمنين، أما عدم ابتغاء رضا الله، والتلطف والتودد للآخرين، والتشوّف إلى إعجاب الناس ومدحهم وثنائهم؛ فهذا بلا شكّ حالة نفسية ذميمة توحى بالشرك، ولا تليق بالمؤمن البتة.

يجب أن نتقرب إلى الله تعالى - كما ذكر القرآن الكريم - بالطيب من الأعمال، والطيب لا بد من تنزيهه عن أي ذرة من الخبيث، لأن هذه الذرة ستؤدي إلى حُبث الطيب، وربما إلى عَفْنِهِ وتلاشيهِ، وهذا أمرٌ لا يُرضي إلا النفس والشيطان، والحال أن غاية المؤمن هي إرضاء الله وليس النفس والشيطان.

الشرك الأصغر: الرياء

قد يداخل الإنسان الرياء والظهورُ أحياناً عند أداء الصلاة، وفي هذا يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ"،

قَالُوا: وَمَا الشِّرْكَ الْأَضْعَرُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "الرياء" (٤٢)، فالشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.. فالشرك الأكبر هو أن يجعل الإنسان لله ندًا، ويتوجّه إلى غيره بعبوديته، ويُشرك معه غيره في ألوهيته، أما الشرك الأصغر فهو الظهور والرياء، فمن الأهمية بمكان أن يراعي الإنسان في صلاته الكيفية التي يصلي بها والمشاعر التي يحملها، فالصلاة بداية إنما تؤدّى ابتغاءً لمرضاة الله، وشكرًا له ﷺ على النعم التي أسبغها حتى الآن؛ فقد وهب الله تعالى الإنسان نعمًا لا حصر لها في كل مراحل حياته، فمثلًا أمدنا ببيئة نقية تناسب مع بنيتنا المعنوية، ومنحنا القدرة على أداء العبادة، وشرح صدورنا، وأرشدنا وهدانا، والأكثر من ذلك أنه أمدنا بقدرات تتيح لنا أداء عبوديتنا براحة وطمأنينة؛ بمعنى أننا باستطاعتنا أداء الصلاة حيث نشاء.

فقد ينوي الإنسان الصلاة أحيانًا لكنه لا يقدر على أدائها بتمامها وكيفما يريد؛ لشلل أصابه أفعده عن الحركة وألزمه الفراش، وقد يُبتلى بالسجن فلا يستطيع أداء الصلاة في جماعة أو شهود الجمعة والعيدين رغم شوقه إلى ذلك، ولذا يجب ألا نتخلى عن أداء عبادتنا لربنا ﷻ قدر ما نستطيع، متوجهين له ﷻ بقلبٍ مفعمٍ بالشكر الذي في كل مدارج حياتنا. والواقع أن المؤمن حينما يصلي فإنه يعلن في حضرة مولاه عن مديونيته له؛ لأنه يعلم أنه مدين له من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه، فإذا ما أخذ ﷻ كل ما هو له منا فلن يبقى هناك شيء -يمكن أن نقول- هو لنا؛ وهذا يعني أننا نقف أمام ربنا بما زوّدنا به ليس إلا.

وكما فهمنا فإن الصلاة بتمامها لطف من الله ﷻ، ومن ثم فإن تناسى العبد خالقه ﷻ وحاول الظهور والرياء أمام الناس رغم وقوفه بين يدي ربه وأدائه لوظيفة الشكر له؛ فقد أتى بما يتنافى مع الذوق واللياقة، وهذا هو الرياء الحقيقي، ولذلك فإن محاولة تجنب الإنسان الرياء قد يوقعه بشيء من الرياء، فيا ترى ما الذي يُقلِّق الإنسان بهذا القدر من الرياء؟!

إن الإنسان إذا أيقن أن كل شيء له "هو" سبحانه، وأنه يقف على قدمين استأمنه عليهما "هو"، وأنه يؤدي عبوديته بقوة تعود إليه "هو"، وأن قلبه ينبض بيده "هو"؛ فلا داعي حينذاك للخوف من الرياء، ولذلك اعتبر أهل الحقيقة ترك بعض الأمور مخافة الرياء رياءً من نوع آخر، أما مراعاة الناس فهي شرك عندهم، وهنا تختلف نظرة العوام والخواص، لأن المسألة مسألة إدراك.

نذكر مرة أخرى أن الرياء هو إظهار الإنسان لشيء لا يملكه، ويضرب المحدث أبو الليث السمرقندي مثلاً لهذا الأمر في كتابه "تنبيه الغافلين" في باب الإخلاص، فيقول: مَثَلُ مَنْ يَعْمَلُ الطَّاعَاتِ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ إِلَى السُّوقِ وَمَلَأَ كَيْسَهُ حَصَى، فَيَقُولُ النَّاسُ: مَا أَمَلَأَ كَيْسَ هَذَا الرَّجُلِ! وَلَا مَنَفَعَةَ لَهُ سِوَى مَقَالَةِ النَّاسِ، وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ لَهُ شَيْئًا لَا يُعْطَى بِهِ شَيْءٌ، كَذَلِكَ الَّذِي عَمَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ لَا مَنَفَعَةَ لَهُ مِنْ عَمَلِهِ سِوَى مَقَالَةِ النَّاسِ وَلَا ثَوَابَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ^(٤٣).

(٤٣) السمرقندي: تنبيه الغافلين، ص ٢٣.

إن الإنسان حينما يرائي بعمله فإنه يبيع شيئاً لا يملكه؛ بمعنى أن النافذة التي يطلّ منها على نفسه أرفع من قامته، ولذلك إما أن يسدها أو يشبّ على أطراف أصابعه، أو كما يقول الأستاذ النورسي رحمته الله: "لكل شخص نافذة يطل منها على المجتمع، يراهم منها ويرونه، وتسمى مرتبة، فإذا كانت تلك النافذة أرفع من قامته، يتناول بالتكبر.. أما إذا كانت أخفض من قامته همته فيتواضع بالتحذّب ويتخفّض، حتى يشهد في ذلك المستوى ويشاهد.. إن مقياس العظمة في الكاملين هو التواضع، أما الناقصون القاصرون فميزان الصغر فيهم هو التكبر"^(٤٤).

فمن رأى أراه الله في العالم الآخر من كان يتوجه إليه بعبادته في الدنيا، ومن أراد السمعة بعمله سمع الله به الملاً الأعلى يوم القيامة.

أجل، يجب على المؤمن أن يعبر بأفعاله وتصرفاته عما يؤمن به، وعما يرتبط به قلبه من جماليات، وعما يفكر فيه، فمثلاً إذا وثق الفرد صلته مع الله تعالى، ووطّد علاقته بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وجعل هذا الأمر جزءاً وبعداً لا ينفك عن طبيعته؛ فستنعكس على باقي أعضائه الأخرى تلك الأسس الإيمانية التي يركن إليها قلبه، وسيُفي بما يتطلّب هذا الإيمان في كل لحظات حياته، وفي هذا الاتجاه سيأتي بعباداته كاملة، ويؤدّي صلاته بحقها، ولا ريب أنه سيفعل كل هذا تنفيذاً لأوامر الله تعالى وابتغاءً لمرضاته فقط، دون التشوّف إلى أن يراه أحدٌ أو يسمع به.

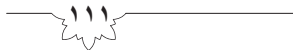


إظهار التمييز في الصلاة

إن التأوه والأنين إذا اقتضته مرتبةً معنويةً خاصةً أو نشأ عن حالة من حالات الجذب بشكل لا إرادي في الصلاة فلا حرج فيه، بمعنى أن الإنسان قد يعيش حالةً من الجذب يغيب فيها عن وعيه ويُصدرُ أُنينًا وتأوهًُا، فإذا قيل له: "كنتَ تفعل كذا وكذا" لا يتذكر شيئًا ولا يدري ماذا فعل.. أما إذا كان الوضع غير ذلك فلا يجوز للإنسان أن يُصدر صوتًا أو يُظهر تميُّزًا في صلاته.. وكذلك الحال في البكاء، ينبغي للإنسان أن يمنع نفسه من البكاء بقدر ما أمكن، فإن لم يستطع وغلبه البكاء لا إراديًا فلا حرج في ذلك.

يُحكى عن الأستاذ النورسي رحمته الله أنه حينما يبدأ في الصلاة فإنهم يشعرون بشيءٍ من الغرابة في عينيه وصوته، وهذا أمرٌ يقتضيه مستواه، ولكن ليس من الصحيح أن يقلِّده في ذلك من لم يبلغ هذا المستوى.

وهكذا قد يشوب العبادات التي تؤدَّى بين الناس الشرك والرياء، فإذا كان العبد يؤدِّي صلاته اعتبارًا ودون تركيز حالةً كونه منفردًا، ويطول فيها ويزينها ويجمِّلها إذا كان مع الناس؛ فهذا -والعياذ بالله- هو الشرك الخفي، وكذلك إذا كان العبد يطيل صلاته منفردًا وإذا صلى بين الناس قصر صلاته فهذا أيضًا فيه نوع من الرياء؛ لأن هذا التصرف قد يُحمل على الاكتراث بوجود الناس، وإعطاء قيمة لآرائهم؛ ولذا على الإنسان ألا تختلف صلاته في جماعة عن صلاته وهو منفرد، لا يقصر ولا يطيل، ولا يظهر اختلافًا، كالراعي الذي يصلي بجوار أغانمه، ولا مشاحة في التشبيه، فهل يكثرث الراعي -عندما يصلي- برؤية أغانمه لصلاته؟!!



د. شعور العبودية في العبادات

إن التخلص من الجسمانية، والانسلاخ من قمع الجسد، والارتقاء في مدارج حياة القلب والروح؛ كلُّها أمورٌ متاحة للجميع كلٌّ حسب مستواه، وإن أداء الإنسان لوظيفة العبودية المكلف بها، وبذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر الاسم المحمدي الجليل في كل مكان؛ هو بمثابة ماء النار الذي يُسكَّب على الجسمانية فيكويها، وبذلك ينفذ الإنسان إلى مدارج حياة القلب والروح من أقصر طريق، ويرتقي معنوياً حيث يصل إلى رضا الله ورضوانه.

أجل، لا بد من تأدية العبادات بدقّة بالغة، فكيفما نراعي كلَّ شيء يتعلّق بأداب الضيافة حتى نحسن إكرام ضيوفنا؛ بدءاً من إعداد الملاعق حتى تقديم الفواكه والحلويات؛ فعلينا كذلك أن نراعي الدقة عينها على الأقل عند أداء العبادات والطاعات، فهذا من شأنه أن يجعل الإنسان ينسلخ من الحيوانية ويتخلص من أسارة النفس ويرتقي في مدارج حياة القلب والروح، وهنا أريد أن أوكد على أن الإنسان إن لم يؤدِّ أو إن لم يستطع أن يؤدّي جميع عباداته وطاعاته -بدءاً من الصلاة حتى الصيام ومنه إلى النافلة- كما يؤدّي أحب الأشياء إليه فلا يمكن أن يقال عنه إنه انسلخ من الجسمانية وتخلص من الحيوانية بالمعنى الخاص، فقد يتخلص الإنسان من المسؤولية الملقاة على عاتقه بأدائه هذه الواجبات دون شعور مع مراعاته لأركانها، ولكن بدهي أنه لن يرقى بمثل هذه العبادات قلبياً أو روحياً.

وحتى يرتقي الإنسان في مدارج حياة القلب والروح أيضًا عليه أن يطعم من حلال، ويعد ناظره عن الحرام، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ"^(٤٥)، وفي ضوء هذا الإرشاد النبوي ينبغي للعبد أن يتجنب اللغو، ويتعد عن المثيرات التي توقظ شهواته.

حاصل القول: يجب على الإنسان أن يراعي الدقة البالغة في عباداته، وأن يكون واسع الروح قوي الإرادة لدرجة أنه يفضل الموت على ارتكاب ذنب يفتك بحياته المعنوية، وإلى جانب هذا لا بد أن تكون القلوب مرهفة الحس، وإلا أكرهناها على ذلك، فقد تذوب أقسى القلوب وتفيض رقةً وحساسيةً مع مرور الوقت بالعزيمة والإصرار، ربما يتطلب هذا أيامًا وأسابيع وشهورًا أو سنوات حسب حالة الشخص، ولكن كل شيء يهون في سبيل الفوز برضا الله تعالى.





(٣)

أداء الصلاة بوعي وإدراك

يقول ربنا ﷺ في سورة الشعراء: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٦/٢١٩)، فهذه الآية فضلاً عن أنها تصوّر عبادة النبي ﷺ لربه فإنها ترشدنا إلى الكيفيّة التي نوّديّ بها عبادتنا، وعلى ذلك فليس من الصواب ألّبتة أن نحيل هذا التكليف إلى المظهر الخارجي للصلاة فقط، بل يدخل ضمن هذا الإطار استيعابُ روح الصلاة ومعناها، وتقديم عبوديتنا لله ضمن أطر التركيز والخشوع والخضوع، لا شك أنه من المتعدّر أن نصل إلى مستوى الروح والمعنى الذي بلغه أيُّ نبي في صلاته أو نشعر بما كان يشعر به، ولكن لا يمنع هذا من أن نسير على نفس الطريق، فلربما يُحرز أو يجب أن يُحرز كل إنسانٍ في عباداته كما لا يتوافق مع صلته بربه ومكانته التي خصّصها له ﷻ في قلبه.

إن المؤمن يركض إلى الصلاة وهو يشعر بنشوةٍ عارمةٍ وكأنه سيؤدّي أسعدَ عملٍ في حياته، وأبرز مثال على ذلك ما نراه في الجمّع والأعياد والحج، ترى الناس يهرولون لأداء هذه العبادات وكأنهم يلبّون دعوة شخصٍ ما إلى مأدبة كبيرة، ويكثرون خطواتهم مسرعين خشيةً أن تفوتهم إحدى هذه العبادات، ويسلكون أقصر طريقٍ يوصلهم إلى أهدافهم، لا غاية لهم سوى الوصول إلى المسجد على وجه السرعة، والوقوف بين يدي الله تعالى وأداء حقّ العبودية.. ويمكن أن نشعر بهذا المعنى العميق

أيضاً عند تدافع الناس لدخول الروضة المطهرة في المسجد النبوي، فمن المحال ألا يتأثر أحد عندما يرى تدافع الناس على الروضة انطلاقاً من الشوق الذي يختلج في صدورهم؛ يتدافعون دون أن يتنبهوا إلى مَنْ عن يمينهم أو عن شمالهم، سجاجيدهم على أكتافهم، وأحذيتهم في أيديهم، قد توضعوا جميعاً، إلا أنهم لم يجدوا الفرصة لإسدال أكمامهم أو تمشيط لحاهم وترتيب شعرهم.

أجل، إن الصلاة تحمل في طياتها مثل هذا الشوق الذي يصاحب هذا الركض، ويمكن استشعار هذا المعنى عند النظر إليها، وهذا حال لا يدركه إلا المؤمنون، أما المنافقون فلا سبيل لهم إلى استشعار هذا المعنى، ولذا يؤدّون صلاتهم كيفما اتفق تخلُّصاً من عبئها، ولأنهم لا يتلذذون بالنشوة التي يكفلها لهم الإيمان؛ فإنهم يؤدّونها وكأنهم يعملون بالسُّخرة، ومثل هذه الصلاة -التي يُنظرُ إلى أدائها على أنه تخلُّص من عبء- لا تؤدّي إلا في كسل وخمول.. ولذلك لما صوّر الله حال المنافقين حين القيام إلى الصلاة قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء: ١٤٢/٤).

أجل، تتاب المنافق دائماً حالةً من الكسل والفتور، ولو جاز التعبير نقول: يُقبل على الله دون هوى أو رغبة منه، ويقول في نفسه: "آه، متى أنهي هذه الصلاة وأخرج على الفور"؛ وذلك لأنه يعيش حياةً مزدوجةً على الدوام، ولذا قد حُرّم من نشوة الصلاة، ندعو الله رب العالمين ألا يتربّع على قلوبنا مثل هذا الإحساس المخزي الذي يُعتبر نكتةً سوداءً كبيرةً في ناصية قلب المؤمن!

يقول ربنا ﷺ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (سورة الماعون: ١٠٧-٤-٥)، والسهو في الصلاة يعني الابتعاد عن الله رغم الوقوف بين يديه، وهذا ما يوضحه الأثر القائل: "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْتَمِعُونَ وَيُصَلُّونَ فِي الْمَسَاجِدِ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ" (٤٦).. فأملنا في الله تعالى أن يحفظنا من الانقلاب هكذا رأساً على عقب، وأن يعفو عنا بحرمة من نحادثهم ونجالسهم من الصالحين المقبول دعاؤهم عنده؛ لأنه ما جلس قومٌ على ظهر البسيطة يسبحون الله ويكبرونه ويهللونه ويحمدونه إلا وغفر الله لهم، وعندها تقول الملائكة: "رَبِّ فِيهِمْ فَلَانَ عَبْدٌ خَطَاءً، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ عَفْوَتْ، هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ" (٤٧).

أجل، إن المؤمن يتسم بنشاطٍ وحيويةٍ في الصلاة، ويشعر بطمأنينة بالغة عند توجهه إلى ربه بكل كيانه، وهذا بالطبع هو السلوك والوضع الذي يليق به كمؤمن، فلا تخرق الغفلةً محيطه بأي شكلٍ من الأشكال، وعندما يقف بين يدي مولاه بعشقٍ وشوقٍ قائلاً: "الله أكبر"؛ يتذكر كل الحقائق الخاصة بالعبودية، وبينما يعترف بأن الرب هو المعبود المطلق يستحضر أيضاً ضعفه وفقره، فمثلاً عندما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فكأنه يستحضر المعنى التالي: "اللهم إنا طهرنا قلوبنا ووقفنا بين يديك، لا نعبد غيرك ولا نستعين بأحد سواك، وخلصنا وراء ظهورنا كل ما نركض وراءه في الدنيا، ومحونا ما سواك من أنظارنا بالكلية، والآن نرجو رحمتك، ربما حملنا

(٤٦) ابن أبي شيبة: المصنف، ١٦٣/٦، ٥٠٥/٧.

(٤٧) صحيح البخاري، الدعوات، ٦٦؛ صحيح مسلم، الذكر، ٢٥.



حملاً ثقيلاً، لذا سنجد صعوبة بالغة في القيام به، والحال أن مسألة توجيه قلوبنا إليك على الدوام وجعلها ترتجف خشية منك أمرٌ جدٌ عسير، ولكننا نشعر بابتسامات قلوبنا بتوجُّهنا إلى آفاق عالمك اللاهوتي".

وعندما يقول: ﴿وَأَيُّكَ نَسْتَعِينُ﴾ تخامر ذهنه هذه الأفكار: "اللهم إنا نسألك الإعانة على حوادث الدهر التي تقصم ظهورنا وتلوي أعناقنا، اللهم أيدنا، وأتمم لنا هذا الأمر، ووقفنا إلى أن نجعل معنى الصلاة يتخلل كل مراحل حياتنا".

وبعد أن يلوذ بربه بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي اهدنا الصراط السوي الذي سار عليه النبيون والصديقون والشهداء والصالحون؛ يشرع في الركوع خضوعاً أمام عظمة الله ﷻ.

وعندما يتوجه إلى الله تعالى بقوله أثناء الركوع "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ" فهو إنما يجدد عهده مع ربه ﷻ، وكأنه يقول: "اللهم إني أسبِّحك اعترافاً بإحسانك على عبادك ولطفك بهم".

وعند القيام من الركوع يقول: "سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ"، أي: "الحمد لله أن وفقني للاستواء بعد الركوع وانقصاص الظهر بسبب ثقل الحساب"، وعندما يقف منتصباً مثل "أ" يقول: "اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ" وأحياناً لا يكتفي بذلك فيزيد قائلاً: "اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"، ولما سمع النبي ﷺ أحد صحابته يسبح بهذا الدعاء قال: "مَنْ الْفَائِلُ كَلِمَةً كَذَا وَكَذَا؟" قَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "عَجِبْتُ لَهَا، فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ" (٤٨).

والحاصل أن الصلاة عبادة تتخللها كل معاني الحياة، وهي اعتراف بالعبودية من البداية إلى النهاية، ولهذا يظل العبد مستشعرًا ومدركًا لحالة العشق والشوق في أعماقه بداية من الأذان حتى ختام الصلاة.

أ. حقيقة الصلاة

للصلاة وجهان؛ أحدهما ظاهري والآخر باطني، فالظاهر هو مراعاة شروطها وأركانها، فمن صلى صلاته مراعيًا لشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها فصلاؤه صحيحة، ومن يرونها يصلي على هذه الشاكلة يحكمون بصحة صلاته أيضًا، أما سلامة النية، والإخلاص، وأداء الصلاة في خشوع؛ فهي أمور متعلّقة بباطن الصلاة، وقد عدّ بعض العلماء الخشوع والخضوع من أركان الصلاة، وعدّهما البعض الآخر من واجباتها.

فالشروط الظاهرية هي بمثابة قوالب للصلاة، بدونها لا يمكن تحقيق الشروط الباطنية، وإذا ما أدى الإنسان الشروط الظاهرية فقد يؤدي الجانب الظاهري من الصلاة على الوجه الأكمل، ولكن يتعذر قول الشيء نفسه بالنسبة لباطن الصلاة، فإننا لو نظرنا مثلاً إلى صلاة رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنهما أو بعض الكبار مثل بديع الزمان سعيد النورسي* رضي الله عنه فس نجد صلاتهم مختلفة تمامًا من حيث الجانب الباطني عن صلاة الجميع وإن بدا ثمة تشابه من حيث الجانب الظاهري بين صلاتهم وصلاة الفرد العادي، فلو أنكم غسلتم وجوهكم ثلاثًا عند الوضوء فقد أدبتم هذا الركن كاملاً، ولكن لا يمكن قول الشيء نفسه بالنسبة للجانب الباطني للصلاة، فهذا الوضع متوقّف تمامًا على صلة العبد بربه ﷻ.

والصلاة الحقيقية هي التي تعكس وتكشف عن الماهية الإنسانية، وفي الحديث الشريف: "يُضِيحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكَعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى" (٤٩).

ومعنى السُّلامى: المفصل العظمي في جسم الإنسان، والإنسان يشعر بقيمة هذه المفاصل التي وهبها الله إياها في وقت نشاطه صباحاً عندما يهرول للقاء ربه ﷻ في انقياد تامٍّ وعبودية خالصة بين كثرة أعماله، فهذه الصلاة التي تُصلَى وقت الضحى تقابل شكر المفاصل كلها، والصلوات الخمس أيضاً قد تقابل هذا الشكر بالأولى.

والإنسان بصلاته يكشف عن كلِّ النعم التي أسبغها الله عليه، ولذا تتمثل الصلاة للعبد في الآخرة على صورة إنسان، فالفرد بمجرد أن يوضع في قبره تأتبه الصلاة في صورة رجل جميل المحيا لطيف الوجه يرشده ويوجهه، فمن يردُّ أن تتمثل له صلاته في الآخرة في مثل صورة هذا الرجل فعليه أن يراعي صورتها الظاهرية.

فمثلاً "التحيات لله" تعني تحية الحق ﷻ الذي أنعم علينا بكل هذه النعم؛ بلسان العبودية وبشكل يتوافق مع عظمته ﷻ وجلاله وجماله، أنا نفسي صِفْرٌ وهو لا نهائي، فحق ربنا ﷻ علينا هو تقديم التحية له؛ على اعتبار أن له كلَّ شيء، وليس لنا شيء، وهذا يستلزم منا -كوننا مدينين لا دائنين- الشكر والعبودية له على ما أمدنا من نِعَم، فإن لم

يستشعر الإنسان هذه المعاني كاملة وهو يصلي منفردًا فعليه أن يردها في نفسه -ولو عشرات المرات- حتى يؤدي صلاته وهو مستشعر بها، فهذا واجبٌ وحقٌّ لله علينا، فإن لم يكن لدينا العزم والتصميم للوصول إلى هذا المستوى فهذا يعني أننا قد انتهكنا حقًا عظيمًا وأهملنا واجبًا كبيرًا، وكما يسري الأمر هنا على التحيات فإنه ينطبق على بقية أركان الصلاة، فقد كان الأستاذ النورسي رحمته الله إذا صلى منفردًا يكرّر كل كلمة يقولها عسى أن يستشعر بما فيها، لكن إذا كان الإنسان يصلي إمامًا فإن فعله هذا أمام الناس يشوش أذهانهم.

يقول ربنا ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١/٢٣)، وبعدها يعنتهم مولانا تبارك وتعالى بأول أوصافهم فيقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٢/٢٣)، أي إنهم يؤدون صلاتهم في خشوع عميق، مستسلمين قلبًا لله، يستولي عليهم شعور الإحسان وكأنهم مراقبون من قبل الله، فعلى الجميع أن ينقّب في وجدانه ويرى هل قام بالأمر في هذا الإطار أم لا؟! وحتى يصل الإنسان إلى هذا المستوى يجب عليه أولاً أن يؤمن بأن أعماله ستعرض على الله في الآخرة.. ويشير إلى هذا قول ربنا ﷺ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة: ١٠٥/٩)؛ أي اعملوا على نحوٍ يجدر به أن تُعرض أعمالكم على الله ورسوله والمؤمنين بالله حقًا.. وكما يفهم من الآية الكريمة يجب على الإنسان أن يتقن أعماله الدنيوية والأخروية بقدر ما يستطيع، وهذا ما توكده ممارسة نبينا ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَمَلَ

عَمَلًا أَثْبَتَهُ"^(٥٠)، والمؤمن مكلفٌ باتباع نبيه ﷺ، ومن ثمّ عليه أن يقوم بعمله على نحوٍ يوحد الباب أمام التساؤلات والانتقادات، وإذا كانت الصلاة هي أعظم الأعمال ولا يدانيها عمل آخر؛ فالخطأ والتقصير بحقها سيحدث ثغرةً فينا لا محالة.

بعد هذا الاعتقاد علينا مراعاة الدقة والعناية عند أداء الصلاة، ربما نتكلف بعض الشيء ونرغم أنفسنا قليلاً في البداية، ولكن سيصبح هذا الأمر مع الوقت جزءاً من طبيعتنا، فمع أن رسول الله ﷺ كان يختار دوماً ما هو أيسر على أمته فإنه كان إذا صلى منفرداً أطال صلاته حتى إنه ليتعدّر على الآخرين أن يفعلوا مثل فعله^(٥١)، لكنه لا يطيل الصلاة عندما يصلي بالناس تخفيفاً عليهم.

أجل، قد يعاني الإنسان قليلاً في البداية إذا أراد أن يؤدي صلواته بالمعنى الحقيقي، وأحياناً تكون حركاته مفتعلة أو إجبارية، إلا أنه بعد مدّة سينجح بفضل من الله في أداء الصلاة على نحو يتناسب مع حقيقة الصلاة، ومع مفهوم "إقامة الصلاة" الذي أشار إليه القرآن الكريم.

ب. التعمق في الصلاة

يختلف الإنسان من حيث الجسمانية عن الملائكة أو الروحانيين، وهو وإن تحكمت فيه الروح أحياناً فإنه يعيش تحت إمرة الجسم والبدن في الغالب، ولذا فإن الإنسان عندما يؤدي عباداته - لا سيما الصلاة - لا يستطيع أن يستشعر ما فيها من عمق على الدوام.

(٥٠) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٤١؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٣٢٨.

(٥١) انظر: صحيح البخاري، التهجد، ٤٩؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٤.



والواقع أنه لا منتهى للحسّ والشعور والرؤية في طريق اللامتناهي، فلا حدّ للأُمور التي يُقصد بأدائها الوصولُ إلى الله، والحسّ والشعورُ به تعالى، والتعمقُ في مثل هذه المعاني؛ لأن الحق تعالى لا منتهى له، وكل ما يتعلق به تباعاً لا نهاية له، قد يحس الإنسان بأشياء مختلفة في كل صلاة يبتغي بها الوصول إليه ﷻ؛ إذ لا محلّ للتشبع والإلف والتعود والتفكير في بلوغ النهاية في مثل هذه الصلوات التي يُقصد بأدائها الوصول إلى الله ﷻ؛ فإن حدث شيءٌ من هذا القبيل فهذا أمر يرجع إلى أنفسنا، فالذبول الذي يعتري نظرنا للصلاة ليس السبب فيه الصلاة وإنما ضعفُ واعتلالُ نظرنا؛ لأننا أناس معاقون نظراً وشعوراً وحدساً، إن ربنا ﷻ يتجلّى علينا كلّ لحظة بتجلٍ مختلفٍ، ولكن لأننا لا نفكر في هذا -رغم أن التفكير هو الأصل في مسلكنا- ولا ننظر إلى المسألة على هذا النحو فإن أنصع الأشياء لمعاناً وحيويةً تذوي أماننا فجأة.. ولهذا لا نشعر بما يجب أن نشعر به فيها، وينحصر الأمر في الشكل فقط، نصلي ونركع ونسجد بشكلٍ صوريّ، ولكن الصلاة التي نصليها ليست صلاةً بالمعنى الحقيقي، فأصل المسألة هو إقامة الصلاة مع استشعار عمقِ كلّ ركنٍ فيها.

فمثلاً يجب عليه عند غسل أعضاء الوضوء أن يتأمل ويفكر كيف تتخلّص هذه الأعضاء من أرجاس الذنوب بهذا الماء الجاري، بل ينبغي أن يتعامل بدقّة متناهية حتى لا يتناثر هذا الماء عليه على اعتبار أنه قد تلوّث بالمعاصي، وعندما يغسل وجهه يفكر كيف يُمحي عنه كلّ ما يخزيه في الدار الآخرة فيبيّض وجهه، ثم يقول: "اللهم بيّض وجهي في هذا اليوم الذي تسودّ فيه وجوهٌ وتبيّض وجوه".

أجل، إن الإحساس والتعمق بهذه المعاني له أهمية بالغة بالنسبة للتركيز في الصلاة خاصة، فقد يُفْتَحُ أمامكم كل يوم بابٌ مختلفٌ إن قمتم إلى الصلاة بمثل هذا التعمق الشعوري، وتشعرون كأنكم في بعدٍ آخر غير الذي تراه أعينكم، ولعل هذا الباب يُفْتَحُ لكم عند القيام أو الركوع أو الاعتدال أو السجود، لكن عليك أن تبقى على عتبة الباب وتطرق الباب باستمرار إلى أن يُفْتَحَ، ولو سألتهم: ألا توجد قيمةً للصلاة التي نُؤدِّيها دون أن نصل إلى هذا المستوى من الوعي والشعور؟ أقول: إنكم بمثل هذه الصلاة قد أدّيتُم ما عليكم من دَينٍ لربكم، ولا ذنب عليكم إن شاء الله في الآخرة، ولكنكم لم تصلوا إلى حقيقة الصلاة، علمًا بأن الصلاة هي هدية السماء إلى أهل الأرض، ووُضعت من قبل الله للاستشعار بها وتذوُّق حلاوتها.

ربما لا تنكشف روح الصلاة ومعناها على الفور، وما من إنسان تنكشف لديه روح الصلاة إلا ويهرول إليها وإن كان مشغولاً بأحب الأعمال إليه، مستشعرًا حلاوتها، وكثيرًا ما يقول: "ليت عمري لا ينقضي وأظل واقفًا بين يدي ربي هكذا!!"، ولكن حتى تنكشف هذه الروح قد يحتاج الإنسان إلى عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة، يقف خلالها على باب الله في خضوع وعبودية تامة، حينها فقط تنكشف لديه روح الصلاة.

وفي القرآن الكريم يقول ربنا ﷻ مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (سورة المؤمن: ٨/٧٣)، وبما أن الفعل "تَبَتَّلَ" يأتي من باب "تفعل" فإنه يحمل معنى الجبر والإلزام، ولقد خوطب النبي ﷺ على هذا النحو في بادئ الأمر، إلا أنه وصل مع الوقت إلى حالةٍ عبر عنها بقوله:

"إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ شَهْوَةً، وَإِنَّ شَهْوَتِي فِي قِيَامِ هَذَا اللَّيْلِ، فَلَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ خَلْفِي، وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ طُعْمَةً، وَإِنَّ طُعْمَتِي هَذَا الْخُمْسُ"^(٥٢)، وكذلك الحال بالنسبة للإنسان العادي لو أنه أصر على هذا الأمر الإصرار اللازم، وصبر وترقّب إمطة اللثام عن معنى الصلاة، ثم لو قالوا له في النهاية: "لقد أعدت لك الموائد في الجنة"؛ فرغم هذا كله سيقول: "لأصلّ صلاتي أولاً ثم آت، فمن المحال أن أفرط في صلاتي أبداً"، بل لو جاءه ملك الموت لقبض روحه فسيقول: "أذن لي أن أؤدي صلاتي التي حان وقتها ثم افعل ما بدا لك"؛ بمعنى أن علاقته الروحية مع الصلاة فريدة ومتميّنة لدرجة أن الموت لو فاجأه فسيحاول هو أن يؤدي صلاته.

وكل ركن في الصلاة يتّسم بجاذبية عالية ولطافة بالغة، وأحسب أنكم لو أقمتهم نصباً تذكاريّاً للصلاة فستبدو أمامكم على شكل وصورة لا يضاهيها أي تمثال في الدنيا، وستظلون طوال أعماركم تلحظونها بأعينكم وتوجهون النظر إليها دائماً، يؤيد هذا الحديث الذي رواه الطبراني أن الصلاة تتمثل للإنسان في عالم البرزخ والمثال، فإن كانت تؤدّى على وجهها وبكامل أركانها تمثلت لصاحبها في أحسن صورة^(٥٣).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ وَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"، فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،

(٥٢) الطبراني: المعجم الكبير، ٨٤/١٢.

(٥٣) الطبراني: المعجم الكبير، ٢٦٣/٣.

فَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسَنُ غَيْرَهُ، فَعَلَّمَنِي، فَقَالَ: "إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْزُقْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْزُقْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا"^(٥٤)؛ لأن العبد إن لم يؤدِّ الصلاة بمعناها وبماهيته الحقيقية فقد ضيَّعها، وفي هذه الحالة لا يكون العبد واثقًا من أنها لن تقول له بروحها المعنوية عند فراغه من الصلاة: "ضيَّعك الله كما ضيَّعتني!".

ويجوز للإمام الذي يؤمّ الناس في الصلاة أن يراعي الضعفاء والمرضى والنساء والأطفال فيأتي بالحد الأدنى للصلاة، ولكن ليس المقصود بالحد الأدنى هنا أن ينقرَ نقرَ الديك كما يفعل البعض في زماننا ولا يتمّ حتى كلمة سبحان الله.. فمثلاً قد اشترط بعض الفقهاء أن يستوفي الإنسان حقَّ الركوع، وأن يتلفظ بقول "سبحان ربي العظيم" مرة واحدة على الأقل مع مراعاة حسن التلفُّظ بالتسبيح، ويرى البعض الآخر أنه لا بد من التسبيح ثلاث مرات على الأقل، ولذلك علينا أن نسبح الله ثلاث مرات على الأقل في الركوع والسجود، وأن نتمهل في التسبيح ونحسن التلفُّظ به، فالقراءة السريعة التي تأكل الحروف ليست بقرآن، لأن القرآن لم ينزل هكذا، وبالتالي لا تُجزئ الصلاة التي تُقرأ فيها الفاتحة على عجلٍ وعلى هذا المنوال، فإن قرأ الإنسان ما تيسر له من القرآن في نفس واحد أو بأنفاس متقطعة يأتي بها بشقِّ الأنفس رغبةً

(٥٤) صحيح البخاري، الأذان، ٩٥، ١٢٢؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٤٥.

في إنهاء السورة قبل انتهاء النفس فإنه بذلك لم يؤدِّ فرض القراءة..
فالألفاظ هي قوالب للمعاني، ولا بد أن يتناسب القلب مع المعنى.

إن القراءة في الصلاة تعني إعطاء الكلمات حقها ومستحقها،
واستشعار معناها، فلو لم يتحقق هذا فيمكن تكرار هذه الكلمات ثلاث
أو خمس أو سبع أو تسع مراتٍ أو إحدى عشرة مرة حتى يستشعر
الإنسان معناها.. فعن حذيفة رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ،
فَأَفْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَزْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا
فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَزْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النَّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ
آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسَلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَشْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ
بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ صلى الله عليه وسلم: "سُبْحَانَ
رَبِّي الْعَظِيمِ"، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وسلم: "سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ
حَمِدَهُ"، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: "سُبْحَانَ رَبِّي
الْأَعْلَى"، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ"^(٥٥). فعلى الإنسان أن يسعى لأداء
الصلاة على هذا النحو وهو يصلي منفردًا، لا سيما وأن الصلاة عبادة
مهمّة، وهي معراج المؤمن، وسفينته الدين تسير بها، لأن إعطاء الإنسان
هذا الأمر حقه يعني أداءه حق إرادته.

ج. الصلوات التي تفيض خشيةً وخشوعًا

تصفو الصلاة وتزداد جلاءً ووضوحًا عند الله بقدر سلامة وصفاء
داخلها، وكل صلاة تفيض خشيةً وخشوعًا يغدو كل ركن فيها بمنزلة
خطوة في المعراج إلى الله تعالى، وإننا عندما نعبّر عن الجانب الخارجي

(٥٥) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٥٥.

للمسألة نستخدم عبارة "قيام وعود"، والحال أن ما نقوم به في الصلاة عبارة عن هذا، ولكن القيام والعود يكتسبان قيمة كبيرة عند الله ويبلغان منزلة تفوق كل المنازل عندما يصطبغ الداخل بالخشية والخشوع؛ لأن الصلاة هي أقيم الأعمال عند الله ﷻ، ولو كان هناك ما هو أثنى منها لكلف الله ﷻ عباده بالإتيان به خمس مرات في اليوم.

ولقد أبان الله ﷻ عن قيمة الصلاة عندما وزعها على ملائكته المكرمين في السماء، فكلف كل فردٍ منهم بركنٍ واحدٍ فقط من أركان الصلاة، فهناك مثلاً ملائكة كرام لا يشتغلون إلا بالقيام فقط، ومع ذلك فإن هذا القيام يكفي ويزيد لأن يتبوؤوا مقامًا عاليًا عند الله ﷻ، وهناك ملائكة كرام مكلفون بالركوع فقط أمام الحضرة الإلهية، وهذه المهمة جديرة بأن ترفع قاماتهم حتى العرش الأعظم، وهناك ملائكة آخرون شغلهم الشاغل هو السجود فقط.

والحاصل أن كل جماعة من الملائكة تواظب على سباحتها نحو عرش الكمالات أو نحو الوجهة التي يرتضيها الله لها بالتزامها بأداء ركن من أركان الصلاة، وإن كان ربنا ﷻ قد جعل الصلاة وسيلة لتعبير هذه الجماعة من الملائكة عن عبوديتهم لربهم، فقد وهب الأمة المحمدية الصلاة بكل أركانها، ولذا يجب على العبد أن يتم كل ركن في الصلاة وكأنه يتشبث بدرجات السلم وهو يصعد إلى الدائرة العرشية؛ لأن هذه العبادة التي ارتقت بالملائكة إلى عرش الكمالات ستصعد به أيضًا إلى هذا المقام، ومن ثمَّ يجب على الإنسان ألا يعتبر هذه الصلاة التي توصله إلى هذا المقام نوعًا من الشكليات، وألا يؤديها وكأنه يلقي من

فوق ظهره حملاً ثقيلاً، بل عليه أن يقبل على الله عند سماع الأذان وهو معقود اليدين وكأنه يقبل على أمر عظيم للغاية، وألا يركن إلى الغفلة حال وقوفه في حضرة ربه، وأن يتمّ صلاته في تفكّر وانفعال داخلي.

إن الصلاة خشوعٌ قلبي وإجلالٌ داخلي وعملٌ أدبي، وطالما أُدّيت الصلاة بهذا المعنى تصفّى عالمنا الداخلي واستقامت أفكارنا، فإن لم تُؤدّ الصلاة بهذا الشعور وذلك المفهوم غدت للإنسان إرهاقاً وعبئاً ثقيلاً فوق ظهره، ناهيك أن تكون وسيلةً لقربه تتسبب في ابتعاده عن ربه، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا"^(٥٦)، والأصل أن الصلاة لا تُبعد الإنسان عن الله ﷻ، لكن إذا لم ينسلخ الإنسان من الغفلة ولم يتخلّص من النسيان ولم يتغلب على نفسه أو لم يستطع أن يُسلم قلبه لمالكة الحقيقي كما يجب؛ فقد تسبب بنفسه في ابتعاده عن ربه.

من أجل ذلك يجب على الإنسان حينما يصلي أن يؤدي صلاته وكأنه يتمسك بحبلٍ نوراني، وأن يراعي الدقة البالغة في أدائها، فإذا انزلت رجلاه وركن إلى الغفلة لحظة واحدة فعليه أن يوجّه نظره على الفور إلى العالم اللدني، ويستغرق في مشاهدته، وبهذا يكون قد أدّى عبوديته لربه.

يروى عن أحد أعلام الفقه والحديث "خلف بن أيوب العامري" أنه كان إذا وقف للصلاة لا يحرك ساكناً حتى وإن لدغته نحلة، وذات يوم بعد الصلاة سأله: "لدغتك نحلة فلم تتحرك، وحطت البعوضة على

وجهك فلم تلتفت، فما السبب؟ فقال: "قديمًا تقابلتُ مع بعض الفساق والفيجار، فكانوا يتباهون أمام بعضهم البعض أنهم لم يحركوا ساكنًا لما كان السلطان يقيم عليهم الحدّ ويجلدهم بالسوط بسبب فسقهم وفجورهم، وهؤلاء فساقٌ وفجار، أما أنا فعبدتُ فقيرًا إلى الله تعالى، كيف لي أن أتحرّك أو أتأثر من لدغة نحلة أو تحرّش بعوضة وأنا أقوم بمعراجٍ مثل الصلاة".

لم تهتز ساقا سيدنا علي عليه السلام حتى عند خروجه للحرب كما تهتز ان عندما يقف في الصلاة، ففي يوم الخندق خرجَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ، فَنادى: مَنْ يُبارِزُ؟

فَقامَ عَلِيٌّ عليه السلام وَهُوَ مُقَنَّعٌ فِي الحَدِيدِ، فَقَالَ: أَنَا لَهَا يَا نَبِيَّ اللهُ.
فَقَالَ عليه السلام: "إِنَّهُ عَمْرُو اجْلِسْ".

وَنادى عَمْرُو: أَلَا رَجُلٌ؟ وَهُوَ يُؤَبِّئُهُمْ وَيَقُولُ: أَيَنْ جَنَّتِكُمْ النَّبِيُّ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ دَخَلَهَا؟ أَفَلَا يَبْرُزُ إِلَيَّ رَجُلٌ؟

فَقامَ عَلِيٌّ عليه السلام فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهُ.
فَقَالَ عليه السلام: "اجْلِسْ".

ثُمَّ نادى الثالثَةَ وَذَكَرَ شِعْرًا.

فَقامَ عَلِيٌّ عليه السلام فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهُ أَنَا.

فَقَالَ عليه السلام: "إِنَّهُ عَمْرُو".

قَالَ عليه السلام: وَإِنْ كَانَ عَمْرًا.

فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَشَى إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ وَذَكَرَ شِعْرًا.

فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ ﷺ: أَنَا عَلِيٌّ.

قَالَ: ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ؟

فَقَالَ ﷺ: أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

فَقَالَ: غَيْرُكَ يَا ابْنَ أَخِي مِنْ أَعْمَامِكَ مَنْ هُوَ أَسْنُ مِنْكَ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُهْرِيَقَ دَمَكُ.

فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: لِكَيْتِي وَاللَّهِ مَا أَكْرَهُ أَنْ أُهْرِيَقَ دَمَكُ.

فَعَضِبَ فَتَزَلَّ وَسَلَّ سَيْفُهُ كَأَنَّهُ شُعْلَةٌ نَارٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ عَلِيٍّ ﷺ مُغَضَّبًا، وَاسْتَقْبَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ بِدِرْقَتِهِ فَضْرَبَهُ عَمْرُو فِي الدَّرْقَةِ، فَقَدَّهَا وَأَثْبَتَ فِيهَا السَّيْفَ وَأَصَابَ رَأْسَهُ فَشَجَّهُ، وَضْرَبَهُ عَلِيٌّ ﷺ عَلَى حَبْلِ الْعَاتِقِ فَسَقَطَ وَثَارَ الْعَجَاجُ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التَّكْبِيرَ، فَعَرَفَ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ قَدْ قَتَلَهُ (٥٧).

وهكذا كان علي ﷺ ثابتًا شامخًا رابطًا الجأش أثناء المعركة، ورغم ذلك كان إذا وقف للصلاة ارتعدت فرائصه، وشحب لونه، فلما سُئِلَ عن ذلك، قال: ألا تعلمون أنني أذهب لأداء الأمانة؟!

يقول ربنا ﷺ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (سورة الأخراب: ٧٢/٣٣)، وهذا يعني: أن الإنسان قد تحمل بذاته وشعوره وإدراكه مسؤولية استنباط المعاني

الإلهية من بين الأشياء والحوادث، وتشكيل خلية من المعارف بواسطة هذه المعاني.. وإنما عندما ندعى للصلاة خمس مرات في اليوم فإنما ندعى للوقوف أمام الله لأداء هذه الوظيفة.. وهذه هي الفكرة التي تجعل سيدنا علياً عليه السلام ترتعد فرائضه.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا توجه للصلاة يمشي ببطء لشعوره بحقيقة وثقل الواجب الذي سيؤديه، لدرجة أنه لو رآه أحد لقال: "لو سارت بمحاذاته نملة لسبقته"، والواقع أننا في حياتنا العادية حينما نُقبل على عملٍ جدّ خطير نكاد لا نرى من حولنا ولا نعرف أي شخص أماننا، وهذا هو الحال الذي يجب أن نكون عليه حينما يُرفع الأذان للصلاة، علينا أن نهض فوراً من مقامنا وكأن قيامة قد قامت في عالمنا الروحي أو كأننا نلبي الدعوة للمثول أمام ربنا ﷻ، فسنبغ وضوعنا، ونطرح الغفلة من فوق كاهلنا؛ لأننا بعد دقائق سنقف أمام حضرة ربنا ﷻ وكأننا نقدم كشف حسابٍ لحياتنا، وليس من المناسب بالطبع أن نسبح في الغفلة ونحن مائلون في هذه الحضرة الإلهية، بل يجب أن نتخيل ونحن أمام ربنا وكأن الكعبة أمامنا هدف نتوجه إليه ونرصده كعلامة على توجهنا إليه ﷻ؛ بعبارة أخرى: يجب أن نسلم قلوبنا لربنا، ونتوجه إلى الكعبة بكل قلوبنا وجوارحنا، في محاولة لتصيّد الرحمة والرضا الإلهيين.

أجل، حينما يهرول المؤمن للصلاة وقلبه محمل بهذا الشعور للأذان سيتخيل الكعبة أمامه، وسيحاول تصيّد الرحمة والرضا الإلهيين، فكم من سلاطين قلوب ظهرُوا في كل عصر ورحلوا! ونحن أيضاً بوسعنا أن نصل إلى المكانة التي وصل إليها أولئك العظماء؛ لأننا في زمان ومحيط

يكثُر فيه المؤمنون بالله ورسوله وكتابه، وفي مثل هذا المحيط يمكننا أن نحافظ على أنفسنا، ولكن مع ذلك لا يمكن القول إننا قد وصلنا حتى إلى واحد بالمائة من المستوى الذي وصل إليه أولئك العظام.

من العسير على أي رئيس دولة أن يكون مؤمناً حقاً، وأن يترفع عن القبائح ويرنو إلى جماليات العالم اللدني، وألا يتعلّق بالمقام والمنصب، وكذلك من الصعب على السلطان أن يقود جيوش الفتح وأن يقوم في الوقت ذاته بتأسيس الدولة ويعمل على تحقيق السعادة والطمأنينة للناس جميعاً، غير أنه يُروى عن السلطان خداوندكار "مراد الأول" أنه كان إذا وقف للصلاة وكبّر لا يطمئن حتى يرى الكعبة ماثلة أمامه، فإن لم يقع له هذا في التكبير الأولى أتى بالتكبير الثانية والثالثة، واستمر في التكبير حتى يستحضرها أمامه، وذات يوم قال لمعلّمه: "يا تُرى ما الذنب الذي اقترفته حتى إنني لا أشاهد الكعبة أمامي عند التكبير الأولى؟!"; اعتقاداً منه أن الجميع -بما في ذلك معلّمه- تلوح لهم الكعبة بمجرد أن يقول "الله أكبر" من أول مرة، وأنه الوحيد الذي يُحرّم من هذا الفضل.

أجل، هذا هو حال الصالحين في الصلاة، فحينما يمثلون بين يدي ربهم في الصلاة من أجل نيل رحمته ﷻ، تتمثل الكعبة بمهابتها بين حاجبيهم، والصراط بهوله وفضاعته وهو مضروب على متن جهنم بلهيبها وشررها الذي يفوق الجبال حجماً، حتى إن الأنبياء يقفون أمام هذا المنظر المهيب يقولون: اللهم سلّم سلّم، وهو يربط بين النار والجنة تحت أقدامهم.. ويتخيلون الجنة بنعيمها عن يمينهم، وجهنم بلهيبها وسعيرها عن يسارهم، والموت يمدّ برائنه ليفتك بهم على حين غرة من

خلفهم، فيؤدون عبوديتهم لربهم في توازن تام بين هذا الخوف الكبير والرجاء العظيم، وطالما حافظ المؤمن على تلك الروح في الصلاة ظلَّ بعيداً عن كل أنواع الفحشاء والمنكر، وإلا مُني بصفعة قوله ﷺ: "رُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهْرُ"^(٥٨).

والنتيجة أن الصلاة هي عمق شعوري، ونور داخلي، وفوز برضا الرب العلي، يحقق الخشوع فيها الخوف والرجاء، والأمل والفزع، والمهابة والعظمة، والحال والأداء، ثم يتبع ذلك ارتباك ورعشة تستولي على داخل الإنسان.. فأحياناً يفزع الإنسان ويظن أن روحه ستخرج، وأحياناً يتعلق بأمل كبير ويتسمم، وأحياناً أخرى يتمسك بالحياء ويرى حاله هذا سوء أدب مع الله، ويقول: "أنا لستُ في مقام التدلل"، ثم يؤدّي صلاته بهذه الروح.

أما بالنسبة لظاهر الخشوع فيعني أن يؤدي الإنسان صلاته بأدبٍ جم، كأن يتفكر الإنسان ويعي ما يقرؤه في الصلاة، ويأتي بركوعه وسجوده وجلوسه وقيامه كما ورد في كتب الفقه، ولا تغدو الصلاة صلاةً بحق إلا إذا فاض قلب المؤمن بهذه المشاعر، عندها تصل سفينة الجسد إلى ساحل السلامة.

د. ثلاثة عناصر مهمة في الصلاة

أولاً: إن أركان الصلاة من قيام وقراءة وركوع وسجود إنما تعبر فقط عن الجانب الشكلي للصلاة، بيد أن الأساس في الصلاة وأركانها

هو الروح والمحتوى، فكما أن الطعام والشراب ضروريان لجسمانيتنا فكذلك الصلاة غذاء لروحنا وحياتنا المعنوية، ولذا لا بد أن تصبح الصلاة جزءاً من فطرتنا، فالروح لا تتغذى إلا من صلاة تؤدَّى على هذه الشاكلة.

ثانياً: كما ينبغي لنا التخلّص من معالجة الأفكار حتى لا نُجهد القلب في عملية تنمية الجسد فكذلك لا بدّ لتنمية الروح من التخلص من الأفكار الدنيوية وأن يغدو الإنسان إنساناً روحٍ وقلبٍ بتمامه، فلا ريب أن هناك علاقةً وطيدةً بين أداء الجانب الظاهري للصلاة بدقة واعتناء وبين هذا المحتوى.

ثالثاً: تحاشي النظر إلى صلوات الآخرين وتقليدهم في تصرفاتهم غير المعتادة في الصلاة، فقد يحرك أحدهم يديه أو ذراعه أو رأسه في صلاته ويتشبث بأفعال مختلفة في صلاته، وهذا أمرٌ لا شأن لأحدٍ فيه، فلكلِّ صلواته التي يصلّيها، فضلاً عن ذلك ليصلِّ كلُّ امرئٍ صلاته كما يحلو له، ولا يداخلنا شك في أنه بصلواته هذه سيسدّ دينه لربه، وفي النهاية يجب ألا نفتح الباب لسوء الظن حتى لا يقع الإنسان في الذنب؛ فنحن لسنا حكّاماً على سلوكيات أحد.

ولا جرم أن الحالة الروحية للإنسان والحوادث التي تجري حوله تؤثر في صلاته، ولكن يجب على الإنسان أن يعي هذا الوضع تماماً ويتغلب عليه بإرادته، ويوجه قلبه نحو الكمال، ويسعى إلى مراقبة الله فقط حتى في أكثر اللحظات التي تنتزل فيها الفيوضات والبركات، فمثلاً

إذا كان سيصاب بجذبةٍ تبعده عن الله في تلك اللحظات وتوصله إلى عرش الرحمن فعليه أن يقول: كلا، لا أبتغي هذا يا ربي، يكفيني أن أكون واحدًا ممن يصلي هذه الصلوات.

وتختلف صلاة كلِّ شخصٍ تبعًا للدرجة والمنزلة التي يتبوؤها، فمثلاً لو حدّثتم الإمام الرباني عن صلاتكم فلربما يضحك، ولو حدّث الإمام الرباني ابنَ عربي عن صلاته فلربما يضحك هو الآخر؛ لأن بُعدَ كلا الشخصين يختلف عن الآخر، المهم هنا هو أن نفسح الطريق أمام العوام الذين يحملون أفكارًا بسيطةً عن الصلاة للوصول إلى الصلاة الحقيقية، فالقطرة لو أطلقت في البحر لذابت بين مياهه وغدت جزءًا من البحر.

وغير ذلك فإننا نلوذ برحمته تعالى أن يمن علينا سبحانه ويسر لنا في هذه اللحظة سبيل الوصول إلى هذه المراتب التي لا نعلم حتى ماهيتها.

هـ. التركيز في الصلاة

إنَّ مَنْ يُؤْمِنُ أَنْ ذَنْبَهُ تَسَاقَطَ مَعَ مَاءِ الْوُضُوءِ يَسْتَمِرُّ شَدَّهُ الْمَعْنَوِي الَّذِي يَكْتَسِبُهُ مِنْ خِلَالِ الْوُضُوءِ حَتَّى عِنْدَ سَمَاعِ الْأَذَانِ الْمَحْمَدِيِّ، بَلْ وَيَزِيدُ، فَإِنْ أَعْقَبَ الْأَذَانَ بِصَلَاةِ النَّافِلَةِ وَصَلَ إِلَى أَبْعَادٍ مَتَاعِقَةٍ، وَبِمَا أَنَّ صَلَاةَ النَّافِلَةِ تَسَدُّ النِّقْصَ وَتَجْبِرُ الْكُسْرَ فِي الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ، وَبِمَا أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى وَعَدَّ مَنْ يُوَدِّي النَّافِلَةَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْقُرْبِ مِنْهُ فَقَالَ: "مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُمَا فَتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ

الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا"^(٥٩)؛ فإن العبد يقبل على صلاة النافلة ملتصقاً بهذا القرب بلسان حاله، وبذلك يكون قد خطاً خطوةً مهمّةً نحو التركيز في الصلاة، وقطع المسافة الأخيرة في طريق التكامل مع الصلاة، وصار على أهبة الاستعداد لأداء الفرض.

فلا يجوز لمثل هذا العبد الذي يتحلى بهذه الدقة والحساسية أن يؤخّر الصلاة، بل الأصل أن يراقب الوقت منتظراً حلولها.. يشرع في الوضوء قبل الصلاة بل قبل الأذان، ويقول وقد أخذه الشدّ المعنوي: "أنا الآن على أتمّ استعدادٍ يا إلهي، وفي اللحظة التي تُقبل فيها عليّ ستجد ناظرِي موجّهين إليك"، ويتنظر الأمر من الله بالمشول بين يديه، والواقع أن العبد إن لم يستطع أن يحوز مثل هذا الشدّ المعنوي وهو في خضم هذه السلسلة من الاستعدادات التي تبدأ في الأساس قبل الوضوء وتمتد حتى الأذان والنافلة فهذا يعني أن ثمة نقصاً ما في هذا الأمر، ولكن مع كل هذا فإن المؤذن عندما يشرع في إقامة الصلاة فإنما يُنزل الضربة القاتلة على كل شيء يمنع الإنسان من عبادته أو يسوقه إلى ما سوى الله، وبذلك يصل العبد إلى تمام التركيز ويستفتح صلاته بالتكبير مستحضراً أعمق المعاني.

وثمة جانب آخر للمسألة وهو: أن كلّ أوامر الدين الإسلامي كانت تنزل على المسلمين في عصر السعادة النبوي غصّةً طريةً وكأنها موائد سماوية، فكان الصحابة رضي الله عنهم يتعرفون كلّ يوم على عبادة مختلفة، فمثلاً كانوا يتعلّمون اليوم الصلاة، وغداً يسمعون الأذان، وعندما يطنّ

الأذان في آذانهم وتسري القشعريرة والجيشان إلى داخلهم يقومون إلى صلاتهم وهم على هذا الاستعداد، وكانوا يجدون في كل مسألة يتعلمونها أصالة ورونقاً وجاذبيةً، فكانوا ينجذبون بهذه الجماليات المبهرة وكأنهم يُسحرون.. لقد كانوا يتلقون الخبر من وراء السماوات كل لحظة، ويتقابلون مع مفاجأة جديدة كل يوم، ويعيشون في خضم مفاجآت لا تنتهي، يسمعون الآية أو السورة الجديدة، فيتطهرون بها، ويتزودون بمثل هذه المشاعر العلووية.

وهكذا كانوا يقفون بهذا التهيؤ الإلهي بين يدي الله، فكانوا لا يشعرون بحاجة إلى مزيد من الجهد والسعي للظفر بالشّد المعنوي والوصول إلى التركيز اللازم والاستعداد الكامل للصلاة، ولما كانوا يتسمون دائماً جو المعية الإلهية فإنهم كانوا يجيشون بالمشاعر المعنوية والأفكار الماورائية بشكل لا إرادي وإن لم يفتنوا إلى ذلك، فإذا ما حان وقت المثل بين يدي الله ركّزوا كل حواسهم ولطائفهم على العبادة.

أما نحن ونظرًا لبعدنا عن عصر السعادة الذي كان الوحي الإلهي يتنزل فيه زخًا زخًا فإننا لا نستطيع أن نصل إلى هذا التركيز والتحفّز المعنوي بشكل غير إرادي، ولهذا يجب أن نتغلب على هذا البعد الذي بيننا وبين ذلك العصر بجهدنا وسعينا وصحوة إرادتنا وتصميمنا، علينا أن نسعى إلى استشعار تلك الأصالة في جوهر الدين من خلال تحفيز وتنشيط أفكارنا إراديًا، فإذا أردنا أن نصلي بأعمق الأفكار وأسمى المشاعر كما كان يفعل الصحابة والسلف الصالح فلا بد أن نعطي إرادتنا حقها في هذا الأمر.

أجل، لا بد أن نتطَّلع إلى أن نكون مفعَّمين بالأفكار والمشاعر النقية على الدوام، بل يجب أن تسبق هذه الأفكار النقية الوضوء وتتخلَّله؛ فمثلاً يجب أن يكون آخر كلامنا قبل الوقوف إلى الصلاة عن ربنا ﷻ ورسوله ﷺ حتى نستثير القلوب ونوجهها إلى الله، كما يجب أن نفكر فيما ذكره أولياء الله حول الصلاة، عند ذلك سنحبس أفكارنا ومشاعرنا إرادياً على الصلاة.

وانطلاقاً من هذا فمن الصعوبة بمكان الابتعاد عما سوى الله والتنهُّؤ الكامل والتركيز في الصلاة، ولكن يجب ألا ننسى أنه بقدر المشقة في الأمر وصعوبة تحصيله يكون قدر الثواب، ولهذا شاع المثل القائل: "بِقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالِي". أجل، بقدر اشتغالنا بالأمر الصعبة وصعودنا المرتفعات الوعرة يكون ثوابنا، وعلى ذلك فبقدر المشقة التي نتجشَّمها إرادياً حين الوضوء بغية أن نتشبع بالأحاسيس الجميلة ونستشعر العبادة بشكل كامل يكون الثواب كبيراً بهذا القدر.

و. صلاة مودَّع

يجب على الإنسان أن يصلي صلاةً يحتذي بها الجميع؛ بحيث يغدو سجوده نشوةً عارمةً، ودعاؤه غذاءً لا يبعث على الملل، وركوعه أداءً مختلفاً، وقراءته سيمفونيةً من الكلمات الجياشة الهادئة.

يقول الصادق المصدوق ﷺ: "إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودَّعٍ"^(٦٠)؛ يعني لو قيل لك: بقي لك من العمر ما تستطيع أن تصلي

(٦٠) سنن ابن ماجه، الزهد، ١٥؛ مسند الإمام أحمد، ٤١٢/٥.

به صلاة واحدة، فانظر كيف ستكون هذه الصلاة في جمالها وبهائها! وهكذا يجب أن تكون كل صلاة تصليها. أجل، صلاة المودّع هي الصلاة التي يصليها العبد وكأنها آخر صلاة يصليها في حياته.

الصلاة هي أفضل الأعمال التي يؤدّيها الإنسان في حياته، ويجب أن تكون الأفضل، لا بد أن تتعلق بالصلاة أجمل ذكريات الحياة؛ فبالصلاة يعرج الإنسان إلى ربه، ويصل إليه، ويلتقي بالأنبياء.

ز. مراتب الصلاة

والصلاة على مراتب ثلاث:

١- صلاة تؤدّى تكليفاً: وهي الصلاة التي يهيمن عليها الإلّف والعود، ولا تؤدّى إلا إذعائاً لأمر الله فحسب، ولا ريب أن هذه أيضاً تُعدّ مرتبة بالنظر إلى عدم أدائها ألبتة، ولكن أصحاب هذه الصلاة وإن كانوا يتخلّصون من ذنب ترك الصلاة فإنهم يُحرمون كلية من الفيوضات الإلهية التي تنزل بسببها.

٢- صلاة تقي من المنكرات: وهي الصلاة التي تصرف عن الإنسان الفحشاء والمنكر. أجل، لقد أعطى ربنا ﷺ هذه الخاصية للصلاة، ولكن الاستفادة العظمى منها لا تتحقق إلا باستشعار روح الصلاة، فكلّ صلاة تُؤدّى بوعيٍ وشعورٍ تحفظ صاحبها كالغلاف الواقي، وتسدّ الطريق أمام المنكرات فلا تصل إليه، ولقد عبر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذه الخاصية في الصلاة بتطهر العبد في النهر الذي يجري أمام داره، والذي يغتسل فيه

خمس مرات في اليوم^(٦١)، والحق أن هذه الخاصية في الصلاة تحفظنا من المنكرات التي تُغَيِّرُ علينا كالسيول الهادرة، وإلا كيف لأرواحنا أن تصمد إزاء كل هذا القدر من المنكرات!؟

٣- صلاة بعدها المعراجي: وهي الصلاة ذات الطابع المعراجي التي تُكسب كل دقيقة فيها أجر الصلاة لسنوات، ولا شك أنه من الصعب الظفر بمثل هذه الصلاة، حيث إنها خاصة بالأرواح المصطفاة، ولكن مع ذلك من الممكن الظفر بها، وما دام الأمر ممكناً، فعلى الجميع أن يسعى ويجتهد، أو على الأقل يسعى إلى الظفر بمثل هذه الصلاة في فترات معينة من حياته.

وأرى من المفيد التذكير بما يلي: الصلاة قبل كل شيء التزام وتكليف، ويجب أداؤها حتماً حتى وإن لم تكن على الكيفية والمستوى المطلوبين، حيث إن ترك الصلاة بحجة عدم القدرة على أدائها على المستوى المطلوب ليس علامةً على وعي الإنسان، بل على أنه صار أضحوكة للشيطان، فليحذر المؤمنون من الانسياق وراء هذه الألعوبة.

من جانب آخر، للصلاة أوقات وأركانٌ معينة، فلا حق ولا صلاحية لأحدٍ بالتصرّف فيها بمحض فكره ومزاجه، ومن يرون مثل هذا الحق في أنفسهم هم أشخاص صرّعهم الشيطان بعد أن سَوَّلَ لهم فعل هذا، فما يقولونه ليس عن علمٍ ومعرفةٍ، بل دليل وإشارة على الانهزامية.

(٦١) انظر: صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، ٤٦؛ صحيح مسلم، المساجد، ٢٨٣-٢٨٤.

ح. عشاق الصلاة

الأوراد والأذكار والأدعية والنوافل عبادات لا بدّ من العزم والإصرار على أدائها على الدوام، حتى نتزوّد مع الوقت بفطرة ثانية، فمثلاً إذا اعتاد العبد على أداء أربع ركعات نافلة بدلاً من اثنتين ولم يترك هذه العادة فيما بعد، ثم دارت الأيام وأقلع عن عادته تلك عندها سيقول في نفسه: "وا حسرتاه، لقد أخطأت اليوم خطأ كبيراً". إن مثل هذا المفهوم لا ينشأ إلا عن تطوّر عددٍ من القابليات الموجودة في الأصل داخل الإنسان، وهيمنتها على روحه.

ولقد أثار الاهتمام الذي كان يديه مرشداً العابدين ﷺ للصلاة شوقاً عميقاً للّب العبادات في قلوب أتباعه، فهو القائل: "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"^(٦٢)، وهو الذي أظهر بكل أحواله مدى شوقه ورغبته إلى الصلاة على نحو يفوق رغبة الآخرين إلى بعض الأمور الدنيوية والجسمانية، وهو الذي كان يطيل القيام حتى تتورم قدماه، وهو الذي لم يكن يتوجه إلى الركوع حتى يقرأ ما شاء الله من القرآن، وهو الذي كان يُسمع لصدره أزيزاً كأزيز المرجل، فإذا سجد تلوّى من الخشية والخشوع.. وإن هذا الاهتمام والدقة التي كان يبديها الرسول الأكرم ﷺ للصلاة هي التي جعلت من صحابته الكرام عشاقاً للصلاة.

أو كما يقول "الفضيل بن عياض": كان سادتنا الصحابة ﷺ يصبحون نهاراً وقد شحبت ألوانهم واصفرت وجوههم؛ لأنهم كانوا يقضون معظم الليل في الصلاة، فأحياناً يقفون ساعات، وأحياناً يطيلون السجود،

وعندما يبثون نجواهم لربهم ﷺ تتقاطر دموعهم ويهتزون كالأشجار إذا اهتزت في يومٍ عاصف، لقد كانت لذة العبادة تنسيهم تعبهم البدني، حتى إنهم يتمنون ألا تنتهي دقائق الوصال هذه، فإذا ما بزغ الصباح دهنوا وجوههم وكحلوا أعينهم، وخرجوا إلى الناس وكأنهم قضوا الليل كله نيامًا.

ولما طعن سيدنا عمر بن الخطاب ؓ وقيل له: "الصلاة يا أمير المؤمنين!"، رجع إلى وعيه وحاول بصعوبة أن يستوي على قدميه، ولكنه كان يسقط مغشيًا عليه بسبب ما فقده من دم، فهذا العاشق للصلاة كان يجد الوصال في الصلاة أيضًا.

ولا يختلف وضع سيدنا علي عن الفاروق عمر ؓ، كان هو أيضًا عندما يتوجه إلى الصلاة يصفّر وجهه، فلما سُئل عن سبب ذلك قال: "ألا تعلمون أنني ذاهب لأداء الأمانة؟"، ولقد فعل بسيدنا علي مثل ما فعلَ بسلفه الفاروق ؓ، فطعن وهو في طريقه إلى الصلاة، وأسلم روحه لبارئها على هذا الطريق.

وما أعجب موقف هذا الصحابي الجليل الذي وعى جيدًا معنى المثول بين يدي الله، وشعر بلذة القرآن، فعرفنا على شوق هؤلاء الصحابة للصلاة: جاء في الحديث أن النبي ﷺ نَزَلَ مَنْزِلًا (في غزوة ذات الرِّقَاع)، فَقَالَ: "مَنْ رَجُلٌ يَكُلُونَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟" فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ (عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ)، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ (عَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ)، فَقَالَا: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَكُونُوا بِفِمْ الشَّعْبِ"، قَالَ: وَكَانُوا نَزَلُوا إِلَى شَعْبٍ مِنَ الْوَادِي، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ

إِلَى فَمِ الشَّعْبِ، قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيكَهُ؟ أَوَّلُهُ أَوْ آخِرُهُ؟ قَالَ: أَكْفِنِي أَوَّلَهُ، فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي، وَآتَى الرَّجُلَ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيبَةُ الْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَتَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَتَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَتَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبِهِ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَقَدْ أُوتَيْتَ، فَوَثَبَ، فَلَمَّا رَأَاهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ فَهَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ الدِّمَاءِ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، أَلَا أَهْبَيْتَنِي؟! قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةِ (الْكَهْفِ) أَقْرُؤُهَا، فَلَمَّ أَحَبُّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أَنْفَذَهَا، فَلَمَّا تَابَعَ الرَّمِيَّ رَكَعَتْ فَأَرَيْتُكَ، وَإِيْمُ اللَّهِ، لَوْلَا أَنْ أَصَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، لَقَطَعْتَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا، أَوْ أَنْفَذَهَا" (٦٣).

أجل، إن المؤمن عندما يقوم للصلاة ينسى ما حوله كلياً، ويغيب عن وعيه، ولا يعرف نفسه، والواقع أنه ليس من الصحيح أن يفكر الإنسان في شيء سوى الله عندما يقف بين يديه لأداء مهمته، ولو فكر في ذلك وهو في الحضرة الإلهية فهذا يعني أنه لم يعطِ هذه الحضرة حقها، فإما أن يولي الإنسان ظهره للأغيار ويتوجه إلى الله بحضور قلب، أو يصبح قلبه في وادٍ وجسده في وادٍ آخر، ولا يجني ثمرة ما يفعله.

وهذا يعني أن الصلاة عبارة عن: الخلوة مع الله، أو طرح الدنيا وما فيها من القلب، أو نسيان النفس والغياب عن الوعي.

ط. مئات الركعات كل يوم

أجل، كان سادتنا الصحابة ﷺ لا يشبعون من العبادات لا سيما الصلاة، وكذلك كان أبطال الصلاة من الصالحين الذين جلسوا ودرسوا بين أيديهم؛ فمثلاً كان عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه يقرأ في الركعة الواحدة مائة آية من سورة البقرة رغم كبر سنّه ونحول جسمه وضعف قوته، حيث كان التركيز في الصلاة يُنسيه تعب جسده.

وكان مسلم بن إبراهيم يقول عن شعبة بن الحجاج رضي الله عنه من كبار تابعي التابعين: "ما دخلت على شعبة في وقت صلاة قط إلا رأيته قائماً يصلي" ^(٦٤)، وكان أبو قطن يقول عنه أيضاً: "ما رأيت شعبة ركع قط، إلا ظننت أنه نسي، ولا قعد بين السجدين، إلا ظننت أنه نسي" ^(٦٥).

وهكذا كانت صلاة مائة ركعة نافلة في تلك الآونة التي عاش فيها هؤلاء العشاق للصلاة أمراً عادياً، لقد كانوا يكثرّون من الصلاة حتى إن معظمهم كان يرحل إلى الآخرة وهو على سجادة الصلاة.. فمثلاً توفي "أبو عبيدة البصري" من جيل التابعين وهو قائم في الصلاة، وما أكثر الأولياء والصالحين الذين ظلوا ثلاثين أو أربعين عاماً يصلون الفجر بوضوء العشاء من أمثال: وهب بن منبه، وطاوس بن كيسان، وسعيد بن المسيب، والإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وظلّ جنيد البغدادي ثلاثين عاماً لا يفوت تكبيرة الإحرام في صلاة الجماعة، فإذا أحس يوماً أن الدنيا قد رانت على قلبه أو لم يستطع أن يتشبع من الصلاة أو لم يرض عنها

(٦٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٢٦١/٩.

(٦٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٠٧/٧.

كان يكرّرها مرة أخرى، فقد اعتاد على صلاة أربعمئة ركعة نافلة كل يوم، وظلّ ثلاثين عامًا يشتغل بالعبادة دون أن ينام بعد صلاة العشاء، وكان "أبو عثمان النهدي" -وهو ممن أسلم في عهد النبي ولم يره- يصلي مائة ركعة بين المغرب والعشاء، وكان سلاطين عالم القلب من أمثال "بشر بن المفضّل" و"بشر بن منصور" من الذين كانوا يصلون أربعمئة أو خمسمئة ركعة في اليوم، والأدهى من ذلك أنه قد روي أن الخليفة العباسي "هارون الرشيد" رغم انشغاله بأعباء الحكم وشؤونه الدنيوية ظل طوال عمره بما في ذلك فترة خلافته يصلي مائة ركعة في اليوم حتى مات، وهذا يدلّ على مدى الشوق الذي كان يستولي على هذه الأرواح في تلك العصور.

والواقع أننا لو نظرنا إلى كتب الطبقات لألفينا أمثلة عديدة في هذا الخصوص، وعددًا ليس بقليل بين السلف الصالح الذين كانوا يصلّون مئات الركعات في اليوم والليلة.

وفي هذا الصدد أقول: لا إكراه في الدين، والإسلام دين يسر، ومع أن نبينا محمدًا ﷺ كان يظّل واقفًا في الصلاة حتى تتورّم قدماه فإنه قد كلف أمته بالقدر الذي تطبيقه، وأوصاها بألا تحمّل نفسها فوق طاقتها حتى في العبادة، ومن ثمّ فإن مسألة الإحساس بالصلاة وكثرة أدائها هي مسألة مستوى وقلب، ففي الدين تشويق لكل المؤمنين للارتقاء دائمًا إلى آفاق أعلى في العبادة من حيث الكمّ والكيف، ولكن لا جبر ولا إكراه في هذا الأمر.

ولقد أشار صاحب رسائل النور رحمته الله إلى هذا اليسر في جوهر الدين وإلى هذه القاعدة الموضوعية بقوله: "إن الصلوات الخمس لا تستغرق

مع وضوئها أكثر من ساعة^(٦٦)؛ بمعنى أنه وإن كانت الصلاة تكليفاً يلتزم به الجميع فلا بد أن يؤخذ في الاعتبار الأشخاص الذين لهم ظروف خاصة، فيمكن لهؤلاء أن يصلوا الصلوات الخمس مع وضوئها خلال ساعة واحدة.

فضلاً عن ذلك يحذّر الأستاذ النورسي رحمته الله الذين لا يدركون معنى الصلاة ولا يشعرون بها في قلوبهم بقوله: "حذار أن تقول: 'أين صلاتي من حقيقة تلك الصلاة؟'، إذ كما تحمل نواة التمر في طياتها صفات النخلة الباسقة مع وجود الفرق فقط في التفاصيل والإجمال؛ كذلك صلاة العوام -ممن هم أمثالي وأمثالك- فيها حظٌّ من ذلك النور وسرٌّ من أسرار تلك الحقيقة، كما هي في صلاة ولي من أولياء الله الصالحين ولو لم يتعلق بذلك شعوره.. أما تنورها فهي بدرجات متفاوتة، كتفاوت المراتب الكثيرة التي بين نواة التمر وبين النخلة، ورغم أن الصلاة فيها مراتب أكثر فإن جميع تلك المراتب يتخللها أساس من تلك الحقيقة النورانية"^(٦٧).

ويهدف بديع الزمان بذلك إلى عدم تحطيم آمال العوام من أمثالنا كلية، وعدم سئوهم إلى اليأس، وإبراز الجانب الموضوعي في الأمر. أجل، إن الحق تعالى يجازي كل إنسان على صلاته، ولكن ما نؤكد عليه هنا هو حقيقة الصلاة وروحها وجوهرها.

ولهذا يجب على المؤمن أن يراعي -على الأقل- معنى الإقامة في الصلوات الرواتب من تعديل الأركان والمداومة والمحافظة والجد،

(٦٦) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الرابعة، ص ١٦.

(٦٧) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الحادية والعشرون، ص ٣٠٠.

وأن يأتي بكافة واجباتها وأركانها كما ينبغي، وأن يحرص على أداء الصلاة في نشوة ونشاط بعيداً عن الكسل والخمول، وأن يهرع إلى عين الماء العذبة خمس مرات في اليوم على الأقل، يغتسل فيها ويتطهر، ثم يقبل على ربه وهو في أنقى حالاته الروحية متطهراً من ذنوبه وآثامه، وكأن عليه أن يرتقي في المعراج مرة بعد أخرى في كل وقت.



(٤)

نواة الصلاة

التكبير والتسبيح والتحميد والفاتحة والتشهد ألفاظٌ مخصوصة تمثل نواة الصلاة وبدورها، ولذا تكمن معاني هذه الألفاظ في جميع حركات الصلاة وأذكارها، وكما يقول الأستاذ النورسي رحمته الله: "إن معنى الصلاة هو التسبيحُ والتعظيم والشكر لله تعالى، أي تقديسه ﷻ تجاه جلاله قولاً وفعلاً بقول: "سبحان الله"، وتعظيمه تجاه كماله لفظاً وعملاً بقول: "الله أكبر"، وشكره تجاه جماله قلباً ولساناً وجسماً بقول: "الحمد لله" ^(٦٨).

وكما يُقال على التكبيرة التي تُبدأُ بها الصلاة "تكبيرة الافتتاح"؛ فكذاك يُطلق عليها "تكبيرة الإحرام" لأن الإنسان بها يُحرّم من مزاولة بعض الأمور أثناء الصلاة.. والحق أن هذا التكبير هو تعهد العبد بالدخول إلى دائرة الحرم محرّماً على نفسه كل ما سوى الله تعالى، والإعراض عن كل الرغبات الدنيوية، والإقبال على سلطان الكون وحده لا شريك له.. وإن طبع دقائق الصلاة وثوانيتها بروح التسبيح والتحميد والتكبير منذ تلك اللحظة هو تعهد بأن يمتزج الإنسان بالصلاة كلية حتى يصير كلاً واحداً، فلو رسمت الملائكة صورةً تنعكس على عالم المثال لعابِدٍ يُصلّي ملتزماً بما يقتضيه هذا العهد فمن المحتمل أن تظهر الصلاة في الصورة، حيث يصير الإنسان وكأنه صلاة مجسّمة.

(٦٨) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة، ص ٣٨.

أجل، لو أراد الإنسان إقامة الصلاة بحقٍ فعليه أن ينخلع مع تكبيرة الإحرام عن كلِّ ما سوى الله تعالى، وأن يفتح قلبه له ﷻ، وأن يطبع كلَّ كلمةٍ تنساب من بين شفثيه بخاتم الوعي والشعور، فمثلاً إذا قال "الحمد لله" فعليه أن يعلم جيداً ما تعنيه هذه الكلمة، وأن يسبر أغوارها، ثم يصدق بالحقيقة قائلاً: "الله كل حمد وثناء وشكر وامتنان، فالإعلان عن هذه الحقيقة واجبٌ عليّ، وحقٌّ لخالق الكون ﷻ"، وبذلك يجب أن ترتقي هذه الكلمة إلى الله بهذه المعاني العميقة التي تحملها.

وعلى الإنسان أن يتشبع بهذه المشاعر العميقة أيضاً عندما يعلن عن رحيمية الله ورحمانيته، وأن يطبع حقيقة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بالمعاني التي تحتويها، وأن يرسلها بما طُبعت به إلى الحق ﷻ، لا بد أن تكون الصلاة معراجاً للعبد أيضاً، يحاول فيها بأفق إدراكه استشعار الحقائق التي أحسنها وشعرها الرسول الأكرم ﷺ في معراجه.

وعلى العبد أن يرتقي خطوة خطوة مرتشفاً كل معاني الصلاة، وكأنه سيلتقي في السماء الأولى بسيدنا آدم، وفي السماء الثانية بسيدنا يحيى وسيدنا عيسى، وفي السماء الثالثة بسيدنا يوسف، وفي السماوات التالية بسيدنا إدريس وسيدنا موسى وسيدنا إبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، فيتخذ الدرس والعبرة من حياتهم، ويصطبغ بحضرتهم، وعندما يخطو خطوة أخرى يشعر وكأنه في الحضرة الإلهية، فإذا انتهى من الصلاة وسلّم يرفع يديه مرة أخرى خشية أن يكون قد قصر في مراعاته لأداب الحضرة الإلهية، ويتوجّه إلى الله بالتسبيح والتحميد والتكبير، ويكرّر تلك الكلمات المباركة التي تؤكّد على معنى الصلاة ثلاثاً وثلاثين مرة.

وعندما ينتهي من الصلاة يشرع في التسبيح، وكأنه يريد أن يقول: لقد ذكرتُ هذه الكلمات بتفصيلاتها أثناء الصلاة، والآن أكرّرها إجمالاً بعدها، لأنني مهما ذكرتُها ما تشبعتُ بها.. لأذكر الله بهذه العبارات بعد الصلاة مرة أخرى.

فإذا كان من الواجب إقامة الصلاة بمثل هذه الأفكار والمشاعر العميقة فلا يصح التخلص منها أو أداؤها كيفما اتفق، بل يجب الإعداد التام لها قبل الدخول فيها، وإقامتها بما يتناسب مع معناها.

بعد التفكير في الصلاة

وهذه العبارات كما ذكرنا هي لبُّ الصلاة ونواتها، وفي الوقت ذاته هي أسس العبودية، وعناصر مهمّة لعالم التفكير لدى المؤمن؛ بعبارة أخرى: هي عبارات مهمّة للغاية وكأن المؤمن يُشحن بالتفكير في الصلاة ثم يفرّغ شحنته بالتسبيحات بعد الصلاة.. علاوة على ذلك فإن كل عبارة منها تعبر عن إعجاب المؤمن بالحقائق الكامنة في الكون، والآن لنفصّل ما ذكرناه:

جاء في الأثر أن "الصَّلَاةَ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ"^(٦٩)، ولقد صعد النبي ﷺ بروحه وجسده إلى السماوات العلى، ووصل إلى أعلى الذرى، فرأى من آيات ربه ما رأى بفضل الله تعالى ولطفه، ثم عاد مرّةً أخرى، ويمكن للمؤمن أن يدرك هذا الأفق بخياله وروحه وذهنه، ويعيش المعراج النسبي في ظلّ المعراج الحقيقي إذا ركّز جيّدًا في صلاته.

(٦٩) فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، ١/٢١٤؛ السيوطي: شرح سنن ابن ماجه، ص ٣١٣.

وعندما يقوم الإنسان بهذا المعراج الفكري والروحي الذي تحدثنا عنه يشاهد الآيات الأنفسية والتكوينية، ويجد علاقةً بين هذه الآيات وآي القرآن الكريم، وفي اللحظة التي يضع فيها جبهته على الأرض يشعر وكأنه تجاوز الغلاف الجوي مرتقيًا إلى الماوراء. أجل، إذا أنصت الإنسان إلى روحه أدرك هذا الجوّ على الدوام.

بعد ذلك تظهر أمام الإنسان -بفضل آيات القرآن- لوحاتٌ متعددة الألوان، وكما تنشأ لوحات من النفس رغم أنف النفس فكذلك تتولد لوحات من الكون، وما أكثر ما يقابله الإنسان من أشياء نابضة بالحياة في كل لوحة من هذه اللوحات! والواقع أن ثمة تناغمًا لا مثيل له في الكون والأشياء وجسد الإنسان والعلاقات بين الكون والإنسان.

وهكذا فإن الإنسان أمام هذا المنظر لا يسعه إلا أن يقول: "ليس وراء هذا التناغم والانتظام إلا الله وحده لا غير"، ثم يصدق في مقام التقديس بقوله "سبحان الله" مستشعرًا بها حتى النخاع، وما إن يأخذ في التكبير حتى يثني على الله بما هو أهله قائلاً: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ"^(٧٠)، وكلما طنت هذه التسيّحات في الكون وكأنها أصوات وأنفاس للقلب ظنَّ الإنسان نفسه غارقًا في دائرة الوجد والاستغراق.

وأحيانًا يعقب هذه المعاني العميقة استشعارٌ بهذه الحوادث المبهرة في الكون، وفي هذا الصدد يقول أحد العلماء: "يهيمن على هذا الكون

(٧٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٥٢؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٢٢.

الفسيح تناغمٌ رائعٌ لدرجةٍ لا تدعو إلى الاحتمال بإمكانية تصادم سفينةٍ تجري في بحرٍ مع سفينةٍ أخرى تسبح في بحرٍ آخر، أو تصادم مجرّةٍ مع مجرّةٍ أخرى أو مجموعةٍ شمسيّةٍ مع أخرى."

أجل، عندما يرى الإنسان هذا النظام والانتظام في الكون لا يتمالك نفسه ويقول: "ما أروع القدرة التي أنشأته!"، إنه يأخذ نفسًا عميقًا من التفكّر مرّةً أخرى ويقول: الله أكبر، ويخضع ويخنع، ويفكر وفقًا لحاله وتبعًا للآيات التي يتلوها في النعم التي أنزلها الحقُّ تعالى من السماء والتي أخرجها من الأرض، ويجيش بمشاعر الحمد والثناء، ويعتبر ما أُعطي له تنويهاً وتأبيداً لما سيعطى، عندها تنتابه حالةٌ روحيةٌ وكأنه يسلك بأفكاره ومشاعره طريقاً إلى الله، ويؤسس علاقاتٍ بين حدسه ومشاعره بالكلمات التي يتلوها، وينادي على الأحاسيس التي يشعر بها بالكلمات الطيبة التي تتخلل كلّ ركنٍ في الصلاة، ويواصل رحلته متعمقاً أكثر فأكثر.

أجل، إن الكلمات المقدّسة التي يكثر ذكرها في الصلاة مثل "سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر؛ هي -إذا جاز التعبير- صوتٌ ونفسٌ عبودية، وإشاراتٌ لفصولٍ مختلفةٍ من حقيقة المعراج."

وعندما نقوم بعبوديتنا لله فإننا نعبر عن مشاهداتنا وأحاسيسنا ومشاعرنا بالتسبيح والتحميد والتكبير، فنقول: الحمد لله على النعم المادّية والمعنوية والجسمانية والروحانية التي وهبها لنا، ونقول "سبحان الله" تزيهاً له عن الشريك، ونقول "الله أكبر" تسليماً بعجزنا وصغرنا، وإعلاناً لعظمته ﷻ، وتعبيراً لعبوديتنا الكليّة أمام ربوبيته العامة.

إن سورة الفاتحة هي خلاصة القرآن وزبدته، ففيها كلّ الحقائق الماثلة في القرآن الكريم إجمالاً، وعليه فإننا في موضع نرى عظمة الحق تعالى وتأخذنا الدهشة فنقول: الله أكبر، وفي موضع آخر نشعر وكأننا نسبح في نعيم الجنة، أو أننا نمتطي مطايا توصلنا إلى هذا النعيم، وعندما نرى أننا قد عرجنا معنوياً بفضل الله نقول: الحمد لله، وهذا يسري على كل العبادات مثل الصيام والزكاة والحج، وأحياناً نذكر كل هذا فنقول: "الله هو الذي مهّد للعلاقة بين الدنيا والعقبى"، وكل هذه المعاني نجدّها إجمالاً في سورة الفاتحة.

أما التحيات فتذكرّ بالمعراج بشكلٍ أوضح، والمعراج يعني أن النبي ﷺ قد اجتاز عبوديته لله، وبتعبيرٍ آخر: اجتاز عبوديته المنوطة به وارتقى إلى أوج الكمال. أجل، إن الحق تعالى قد وارب باباً للنبي ﷺ من أجل العبودية، وطلب منه المرور بشكلٍ يتناسب مع آداب المرور، فدلّف النبي ﷺ من هذا الباب بعمقٍ وكمالٍ أشار إليه الله تعالى في كتابه بقوله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (سورة النجم: ٩/٥٣)، على نحوٍ لم يتيسر لأحدٍ من قبله.

والمعراج هو نتيجة ترّبت على عبوديته ﷺ أكثر من نبوته، وهو عبارة عن تجلّي نور الأحديّة في سرّ التوحيد؛ في فترة توقّفت فيها الأسباب، وأعرض فيها الجميع عن رسول الله ﷺ الذي لم يتخلّ عن عبوديته لربه حتى في أصعب الظروف.

في هذه الفترة المشؤومة التي اتفقت فيها قريش على مقاطعة بني هاشم، فلا ينكحون إليهم ولا ينكحونهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يتعاونون

منهم، وضربت عليهم الحصار في شعب أبي طالب؛ يعني في هذه الفترة التي انمحت فيها الأسباب الظاهرة تكريم الله تعالى على نبيه ﷺ بمعاملة خاصة حتى يلطّف قلبه ويجبر خاطره المنكسر.

وفي هذه الفترة أيضاً تعرض النبي ﷺ إلى فاجعتين كبيرتين؛ الأولى كانت وفاة عمّه أبي طالب، والأخرى كانت وفاة زوجته الوحيدة آنذاك خديجة رضي الله عنها، فأراد ربنا ﷻ أن يسري عن نبيه ويداوي جراحه، فتوجّه بالمعراج، وكأنه يقول له: إذا انفضّ كلّ الناس بل وكلّ شيء عنك، وأحاطت بك كلّ مصائب الدنيا، فلا تحزن فأنا معك أمداً بعوني وأغيثك بغوثي.

إن صلوات النبي ﷺ وتضرّعاته وصيامه ومعاناته، وتحديثه الناس عن معنى الصلاة والدعاء والصوم، وتصويره كل هذه العبادات على أنها معراج وسلّم إلى الله، كل ذلك كان وسيلة لارتقائه ﷻ في المعراج إلى الله بالفعل.. ولم ينل مثل هذا الشرف أيّ نبي غيره ﷺ، ربما ارتقى كل نبي من الأنبياء رضي الله عنهم بروحه إلى الحضرة الإلهية، وأكرم بالقرب منه ﷻ، ولكن لم يتيسر لأحد سوى النبي ﷺ أن يشاهد السماوات والجنان بكيفيتها التي لا نعلمها.

وهكذا نحاول نحن أيضاً أن نستشعر هذا المعراج من خلال الصلاة وشرف اقتدائنا واتباعنا لهذا النبي الكريم عالي الشأن صلوات ربي وسلامه عليه.



(٥)

أبعاد الذكر والتوبة في الصلاة

الذكر هو أسرع العبادات التي تقرب المؤمن من الله، وأعتى الرياح التي تبدد غيوم الغفلة، والذكر يعني الاستحضار والاستذكار، وإحساس الإنسان بالحياة ومعاشته لها، أو هو تلقي الإنسان رسائل خاصة من الله من خلال كل شيء تقريباً وهو يسير في ممرات الوجود، وعلى ذلك فهناك اتصال وثيق بين الصلاة والذكر، بل إن الذكر في العبادات الأخرى يأتي في الدرجة التالية بالنسبة للذكر في الصلاة، ولو كانت هناك عبادة أخرى تُعني عن الصلاة وتذكر بالله بهذا القدر وتبدد الغفلة من حيث أفق رؤية الإنسان وتفكيره وفهمه وتقويمه لأوصى الله تعالى بالقيام بها خمس مرّاتٍ كل يوم بدلاً من الصلاة.

والصلاة لها قدرة كبيرة على التذكير، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (سورة طه: ١٤/٢٠). أجل، كما جاء في الآية هناك علاقة وطيدة بين الذكر والصلاة، وبسبب هذه الأهمية العظمى للصلاة أكد ربنا ﷺ في القرآن الكريم على إقامة الصلاة خمس مرّاتٍ في اليوم.

فمثلاً الصوم عبادة خفية، لا يطلع أحدٌ عليها إلا الله، وبسبب خفائها ميّزها الحق تعالى بأفضليّة خاصّة، فقال ﷺ في الحديث القدسي معظماً

أمره: "الصُّومُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ"^(٧١)، ولو كانت الديمومة مبتغاةً في الصوم مثل الصلاة لفرض ربنا ﷺ بأن نصوم صوم نبي الله داود عليه السلام، ولذا يمكن القول بأن ما تتمتع به الصلاة من قوّة على التذكير لا يوجد قطعاً في أيّ عبادةٍ أخرى، ربما يكون في العبادات الكلية مثل الحج وصلاة الجمعة مثل هذه القوة على التأثير، ولكن هذه العبادات لا يمكن أن تتبوأ مكانة الصلاة لأنها لا تؤدّي مثلها خمس مرات كل يوم.

الصلاة مثل المغطس أو الحوض الذي يطهّر الإنسان من الأدران ويخلّصه من الذنوب، فمن اغتسل فيه معني كل يوم خمس مرّات تطهّر من ذنوبه وخلا من الدنس، ويشير ربنا ﷺ إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (سورة هود: ١١٤/١١)، يُستنبط من ذلك أن كل صلاةٍ تمثّل حسنةً في مجملها، وكل هذه الحسنات تُذهب السيئات، وفي قوله تعالى ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ تأكيدٌ ولفّتٌ للأنظار مرّةً أخرى على قدرة الصلاة على التذكير.

وبعد أن بيّنا العلاقة بين الصلاة والذكر نأتي الآن إلى تحديد العلاقة بين الصلاة والتوبة، والتوبة هي توجّه العبد إلى الله وبثّه شكواه، وهي بمثابة إعادة تهيئةٍ للمشاعر اللطيفة والنقية التي شوّهتها الذنوب.

فكل من ارتكب ذنباً صار وكأنه خطأ خطوةً نحو الكفر، كما يقول الأستاذ النورسي رحمته الله: "إن في كلّ إثمٍ وخطيئةٍ طريقاً مؤدياً إلى الكفر"^(٧٢)؛ وهذا يعني أن كلّ من اقترف إثمًا ابتعد عن الله خطوةً واقترب من الشيطان أخرى.

(٧١) صحيح البخاري، التوحيد، ٣٥؛ صحيح مسلم، الصيام، ١٦٠.

(٧٢) بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللعة الثانية، ص ١١.

وهكذا يرجع هذا العبد الآثم إلى الله مرة أخرى بتوبته، ويحوّل سيئاته إلى حسنات في الوقت ذاته، وعلى حدّ تعبير الأستاذ النورسي: "إن الدعاء والتوكل يمدّان مِيلان الخير بقوةٍ عظيمةٍ، كما أن الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشرّ ويحدّان من تجاوزه"^(٧٣).

وهكذا الحال في الصلاة؛ لأن الصلاة تشكّل لدى الإنسان شعورًا بالحاجة إلى التوبة بالمعنى الحقيقي، فحتى وإن لم يتب العبد توبةً قوليةً خمس مرّاتٍ في اليوم فإنّ صلاته تحلّ محلّ التوبة الفعلية، فضلًا عن ذلك فإنّ في الأوراد والأذكار أدعيةً وآياتٍ تحمل معنى التوبة والاستغفار؛ فمثلًا يستهلّ المؤمن صلاته بقوله "الله أكبر"، ومع هذا التكبير تنتزّل مطرقة الفكر والشعور على الأشياء الفارغة حتى ينصرف الإنسان عن الأمور الأخرى، ويتوجّه إلى الله تعالى. أجل، في الصلاة انصرفَ عما سوى الله، وإجابةً لدعوة الحق تعالى، وتوجّهً إليه ﷻ، إلا أن هذا التوجّه لا يُتاح للجميع إلا بحسب قدره ومستواه.

وبعد ذلك يقول العبد: "سبحانك اللهم وبحمدك"، و"سبحانك" تعني: "لا شريك لك يا ربي في هذا الكون، فأنت الواحد في ذاتك وصفاتك وشؤونك، لا تُعزى أفعالي أو الحوادث الجارية في الكون إلى أحدٍ غيرك، وها أنا أولي ظهري لفكرة الشرك، وأتقدّم إليك بالتسبيح والتقدّيس".

وفي قوله "سبحانك": تنزيهُ الحق ﷻ من كل نقص، وتعيينٌ عن العبوديّة التامة للتجلّي الواحدي، وعندما يقول الإنسان "وبحمدك" بعد هذا التنزيه فكأنه يقول: "إنني يا رب لا أستطيع الإحاطة بهذا المعنى،

(٧٣) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، ص ٥٣٦.

فاللهم أشعِرْني به، وإلا فلن أتمكن من الإحساس والشعور، وإنني حينما أسبحك فإنني أقدم لك وحدك حمدي وامتناني وشكري".

أما "وتبارك اسمك" فيعني: اللهم إن اسمك هو مصدر البركة، فهب اللهم أمثالي ممن كُتبت أرجلهم ووضع الطوق في أعناقهم من خزائن بركتك، فأنت الذي لا ترضى بنعمائك حتى على من ينكر وجودك ويشرك بك، وإنني رغم كل ذنوبي وآثامي أتوجه إليك وألوذ باسمك المبارك مصدر البركة، وأئن في حضرتك بقول الشيخ محمد لطفي أفندي*:

جد بكرمك يا سيدي الكريم ولا تحجبه عن المحرومين

فهل يليق بمن هو واسع الجود والكرم أن يمنع كرمه عن المفتقرين؟!

أما قوله "وتعالى جدك" أي "تعالى عظمتك.. وإذا كان السلطان يجمل به سلوك السلاطين فإن العبد يليق به سلوك العبيد.. قد أكون كثير الزلل، إلا أنني أتيتُ بابك منكسرًا خاضعًا، لأنه ليس لي بابٌ ألوذ به سواه، وإذا كان الذنب لا يجدر بي، فإنك أنت أهل للعفو والمغفرة".

وفي نهاية الدعاء تأتي عبارة "ولا إله غيرك"، ومعناها: "كيف لي أن ألتفت إلى غيرك، فأنت فقط المعبود بحق والمقصود بالاستحقاق".

أجل، إن الصلاة تنطوي على توجهٍ يدور في فلك التوبة؛ بدايةً من التكبير حتى التسليم، ومثل هذا التوجه يسوق الإنسان خطوة تلو أخرى إلى رُبي الإحسان.



(٦)

الصلاة ورقة القلب

رقة القلب أمانة على الإيمان، أما الدموع التي تعبر عن هذه الرقة فهي عملية تفرغ يقوم بها أبطال المحبة الذين اكتوت قلوبهم واحترقت صدورهم، وفي هذا يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ فَتُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ" (٧٤). أجل، إن الدموع هي الإكسير الوحيد الذي يُطفئ نار جهنم في الآخرة، ونار الحسرة والأسى في الدنيا.

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تولى اهتماماً كبيراً وتقديراً خاصاً لرقة القلب، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (سورة الإسراء: ١٧/١٠٧)، وفي آية أخرى يقول: ﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ (سورة التوبة: ٨٢/٩)، ودعاء النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ" (٧٥) يشير إلى أهمية رقة القلب.

والقلب الرقيق هو قلب خاشع، مهيباً للحساب والمراقبة في كل وقت، يحاسب نفسه على الدوام، وكما أنه لا يعزو النجاحات التي حققها إلى نفسه فكذلك يستصغر دائماً ما يعملها، إنه بطل "هل من مزيد؟! الذي لا يشبع من الخير والحسنات.

(٧٤) البيهقي: شعب الإيمان، ١/٤٩١.

(٧٥) صحيح مسلم، الذكر، ٧٣؛ سنن أبي داود، الوتر، ٣٢.

وكذلك لا يشبع صاحبُ القلب الرقيق ولا يقنع بالعبادات، فبعد أن يؤدِّي الفروض تلحَّ على ذهنه دائماً مسألة القيام بالمزيد من العبادات، فتراه يقول عن صلاته: "ما أدتُ الصلاة بحضور قلب، أو لم أودها كما ينبغي، فالأودُ نافلة مكانها على الأقل، أو أقضي هذه الصلوات التي شُغلت عنها"، وعلى ذلك يحدد قدرًا معينًا من الصلوات، ويختزلها في وقتٍ قصيرٍ لأنه لا يعلم متى يحين أجله، وكل يومٍ يقضي صلاةً عددٍ من الأيام، ويجبر كسر صلواته.

وإننا نصِّف النوافل التي نصلِّيها بأنها "جبر النقصان"؛ أي إننا نستهدف بها جبرَ تقصيرنا في الفروض، وهذا أمرٌ يتعلَّق بوجودان الشخص، فمثلاً لو أن شخصاً أدى مدَّة معينة الصلاة المفروضة دون توجِّه كامل بقلبه لله وَجَلَّ، فذات يوم سيدرك حقيقة النية، وسيعرف أنها تعني قصد القلب، وتوجهه، وسيصل إلى أن التوجه هو محو ما سوى الله عن القلب، ونسيان كلِّ شيء في تلك اللحظة، والإقبال على الله ليس إلا، فمن فهم النية على هذه الشاكلة ولم يقف للصلاة وفقاً لهذا، اعتبر نفسه لم يصل، ولكن ينبغي للجميع أن يتصرَّف في هذا الأمر وفقاً لمستواه.

ومع مراعاة أن الجهر بالنية هو الأولى عند بعض الفقهاء؛ فإن المصلِّي يجهر بها قائلاً: "نويت أن أصلي لله..."، وما أروع أن يتحقَّق توجه القلب إلى الله تعالى بهذا الشكل! ولكن أن يقف الشخص عند اللفظ، ويتلفَّظ بكلمات دون أن يدرك ما يقول أو دون أن يتوجَّه قلبه إلى ما يلزم التوجُّه إليه فهذا يعني أنه لم يحقق المطلوب.

فمن عرف النية على هذا النحو وصار يعيش وفقاً لهذا الاعتقاد يقول: "حتى الآن وأنا أعمل على إتمام صلاتي، ولكن لا أدري أأعطيها حقها أم لا؟! ولذلك فإنني سأعيد قضاءها من جديد، أو سأصلي النافلة جبراً لما قد شابها من النقصان"، وإذا أمدَّ الله تعالى في عمره قام بجبر الكسر والنقصان في صلاته بأن يقضي كلَّ يوم صلاةَ يومٍ.

وعند الحنفية أيضاً لا بد من أداء سنن الصلوات الخمس، وهي اثنتا عشرة ركعة سنة مؤكدة عن النبي ﷺ.

ومع أن السادة الحنفية لم يعتمدوا الركعات الأربعة قبل صلاة العصر من السنن المؤكدة؛ فإنها من فضائل الأعمال، وكذلك أيضاً أربع ركعات قبل العشاء، فقد ذكرها "عليّ القاري" في كتابه "فتح باب العناية" اعتماداً على حديث لسعيد بن منصور في السنن، جاء فيه أن النبي ﷺ صلى قبل العشاء أربعاً.

أما التهجد فله أهمية كبيرة للغاية، فمن أنار ليله كالنهار بسراج التهجد سطعت وتلاأت حياته البرزخية بعد موته، فالتهجدُ شعلهٌ وسلاحٌ ودرعٌ ضدَّ ظلمات البرزخ، ووسيلة أمان تقي الإنسان من عذاب القبر.. إن كلَّ صلاةٍ تتكفل بإنارة جزء من حياة العبد في العالم الآخر، أما التهجد فهو قوت البرزخ وزاؤه ونوره.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحضُّ على التهجد، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ ﴿۱۰﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿۱۱﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿۱۲﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿۱۳﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً ﴿۱۴﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ

هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَإِذْ كَرِهَ اسْمَ رَبِّكَ
وَتَبَسَّلَ إِلَيْهِ تَبَسُّلاً * (سورة المؤمن: ١٧٣-٨)، و﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ
عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (سورة الإشراء: ١٧/٧٩)، و﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (سورة السجدة:
١٦/٣٢)، و﴿وَإِذْ كَرِهَ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (سورة الإنسان: ٢٥/٧٦).

وورد في الصحيحين أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ (في المنام) أَتَيْانِي فَأَنْطَلِقَا بِي، فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ آخَرَ، فَقَالَ: لَمْ تُرْعَ، فَأَنْطَلِقَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبُئْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُ بَعْضَهُمْ، فَأَخَذُوا بِي ذَاتَ الْيَمِينِ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِحَفْصَةَ، فَزَعَمَتْ حَفْصَةُ، أَنَّهَا قَصَّتْهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ، لَوْ كَانَ يُكْثِرُ الصَّلَاةَ مِنَ اللَّيْلِ" ^(٧٦).. وهكذا أبان الله تعالى لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في رؤياه عن صورة برزخية لجهنم، ووجهه إلى الاستعداد لذلك الموقف.

علاوة على ذلك هناك أيضاً بعض النوافل الأخرى مثل صلاتي الضحى والأوابين، فهذه الصلوات تجبر قصورنا الحاصل في صلاة الفريضة، ويملاً الله تعالى بهذه النوافل ثغراتنا في الفروض.

يؤيد هذا قول رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: انظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي

مَنْ تَطَوَّعَ فَيَكْمَلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ" (٧٧).

والحاصل أن رقة القلب ومراعاة الصلاة وبفروضها ونوافلها هما المصدر الذي يمنحنا العشق والشوق والقوة من أجل أن نؤدي وظيفة العبودية في هذه الدنيا، وهما أيضاً الصديق الصدوق والشفيع لنا في طريقنا المحفوف بالمخاطر الذي يبدأ بالموت وينتهي إلى الجنة. أما الصلاة فهي الوسيلة التي تقربنا من الله ﷻ، وهي الركن القوي والحبل الذي نعتصم به حتى نثبت في مكاننا، وهي منبع حيويٌّ طاهرٌ بالنسبة لنا، وهي سورٌ يحميننا من الفحشاء والمنكر.. ونختتم هذا الموضوع بهذه الآية الكريمة التي تعبر عن هذا المعنى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩).



(٧)

صلاة سيدنا رسول الله ﷺ

ذكر ربنا ﷺ في كتابه العزيز عن الهيئة التي كان عليها النبي ﷺ داخل الصلاة، وعن كيفية أدائه لها، فقال ﷺ: ﴿وَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٦/٢١٩).. وفي هذه الآية يخبرنا الحق تعالى عن الكيفية التي كان عليها رسول الله ﷺ أثناء قيامه في الصلاة، وعن المجاهدة التي كان يتجشمها حال سجوده، وعن وعيه بعظم المكان الذي هو فيه عند قيامه بالأركان، وكيف أنه كُلف بأداء عبودية شديدة الوطأة عليه، وكيف أنه كان يتلوّى في انكسار من أجل أداء هذا التكليف.

وإن تلوّى رسول الله ﷺ كلّ هذا التلوي في صلاته هو تعبيرٌ عن التعظيم الواجب عليه نحو مولاه ﷺ، وإن إخبار الله تعالى لنا عن حاله هو في الوقت ذاته تكريمٌ وتقديرٌ منه ﷺ لنبيه ﷺ، والواقع أن الصلاة تكون صلاةً بحقٍّ طالما استشعر فيها الإنسان مثوله في حضرة ربه، أما إذا كان عالم السرّ والخفاء في وادٍ بعيدٍ عن الحضرة الإلهية فإن الصلاة عندئذٍ تخرج عن كونها صلاة، ولا تؤتي ثمارها؛ لأن الحق ﷺ لا ينظر إلى الأبدان بل إلى القلوب وما يجيش بها من عشق وانفعالات، ويقرر حكمه وفقاً لذلك.. فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي وفي صدره أزيزٌ كأزيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ^(٧٨).

(٧٨) سنن أبي داود، الصلاة، ١٦١؛ سنن النسائي، السهو، ١٨.

لقد كان يرغب في الصلاة كثيرًا، فلم يكن يشعر بمتعة تضاهاي تلك التي تمنحها له صلاته، من أجل ذلك قال ﷺ يوماً: "جَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"^(٧٩).

يقوي هذا الحديث ما رواه الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ شَهْوَةً، وَإِنَّ شَهْوَتِي فِي قِيَامِ هَذَا اللَّيْلِ"^(٨٠).

لقد كانت عبودية النبي ﷺ وصلته مع ربه وإعلانه واعترافه بتوحيد الألوهية عميقًا لدرجة لا يتصورها أحد، وأبرز مثال على ذلك الأحاديث التي ذكرناها آنفًا.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهَمَّا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"^(٨١)، ثم قال بعدها: "عَزَّ جَارُكَ وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ وَلَا يُهْزَمُ جُنْدُكَ وَلَا يُخْلَفُ وَغَدُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ"^(٨٢).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بَاتِيَةً حَتَّى أَصْبَحَ يُرِدُّدُهَا وَالْآيَةُ: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَفَرْتُمْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة المائدة: ١١٨/٥)^(٨٣).

(٧٩) مسند الإمام أحمد، ١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٤.

(٨٠) الطبراني: المعجم الكبير، ٨٤/١٢.

(٨١) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢١-٢٢٢؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٨.

(٨٢) سنن الترمذي، الدعوات، ٩٠؛ سنن أبي داود، الأدب، ٩٧.

(٨٣) صحيح مسلم، الإيمان، ٣٤٦؛ النسائي: السنن الكبرى، ٣٧٣/٦.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ! قُلْنَا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم! (٨٤).

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول: أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي لَيْلَتِي حَتَّى دَخَلَ مَعِيَ فِي فِرَاشِي، حَتَّى لَصِقَ جِلْدُهُ بِجِلْدِي، ثُمَّ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَنْتَعَبُدَ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي"، قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبَكَ وَأَحِبُّ مَا سَرَكَ.. فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحْيَتِهِ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِأَلَّا يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي قَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟"، قَالَ: "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيَلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٠/٣) (٨٥).

وعن أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رضي الله عنها، كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي رَمَضَانَ؟ فَقَالَتْ: "مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا" (٨٦)، فبهذه الكلمات وصفت أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها جمال وحسن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٨٤) صحيح البخاري، التهجد، ٩؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٤.

(٨٥) صحيح ابن حبان، ٣٨٧/٢.

(٨٦) صحيح البخاري، التراويح، ١؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٢٥.

ولم يُسمع عن النبي ﷺ أنه شرع في عبادةٍ ثم أهملها، وحتى وإن كان قد ترك بعض النوافل تيسيراً على أمته فإنه كان يصلي أضعافها ليلاً إتماماً لهذا القصور؛ وبذلك أدى صلوات ربي وسلامه عليه وظيفَةَ العبدِ النبيِّ بحق.

فلقد عاش النبي ﷺ بشعورٍ وروحٍ جياشة، فكان يخفق بجناحيه دائماً نحو ربّه محاولاً السموّ والارتقاء، ولقد كان بيت السعادة النبوي يفتح على المسجد النبوي؛ لأنه لم يكن يريد أن يتعد بقدمه عن المسجد مطلقاً، كان إذا اعتكف دخل المسجد، وأحياناً يمدّ رأسه إلى بيته، وكأنه بذلك ينقسم إلى نصفين؛ نصفٌ منه داخل بيته، والنصف الآخر في مسجده، فإذا ما همّ بالذهاب إلى مكانٍ ما مرّ من المسجد أيضاً، يصلي صلاته وينصرف، وعندما يعود يفعل الشيء نفسه، لقد كانت الصلاة بالنسبة له سبيلاً، والمسجد ممراً ومرتقىً للوصول إلى عالمٍ بين الإمكان والوجوب.



(٨)

الأمراض التي تتسلط على العبد في الصلاة

أ. وسوسة الشيطان

عندما عصى الشيطان أمر الله تعالى بالسجود لآدم أقسم بعزة ربه قائلاً: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة ص: ٨٢/٣٨)، ولقد برّ الشيطان بقسمه، وأوفى بوعده، وأخذ يقعد للمؤمنين من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم، ساعياً إلى إغوائهم.. ولقد أخذ الشيطان على نفسه هذا العهد حتى يمنع المؤمن من القيام بأيّ خير، ولقد عبر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذا الخبث والمكر بقوله: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" (٨٧).

والصلاة هي أكثر العبادات التي يتسلط فيها الشيطان على المؤمن؛ لأن الصلاة تنطوي على سائر العبادات الأخرى، ولذلك لا تصل أيّ عبادة إلى مستوى الصلاة، وبسبب هذه الميزة يلقي الشيطان الوسوسة في قلب المؤمن، ويطلق سهام الشك والريبة على ذهنه، ويشتغله بالأمور الدنيوية، وبذلك يفسد عليه صلاته.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّائِبِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا

(٨٧) صحيح البخاري، الاعتكاف، ١١-١٢؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٣-٢٤.

تُؤَبِّبُ بِالصَّلَاةِ أَذْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّوْبَةَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظُلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى"^(٨٨)، وبذلك يخبرنا رسول الله ﷺ أن الذين يجعلون من صلاتهم معراجاً هم أكثر من يتسلط عليهم الشيطان، بينما لا يتعرّض للقلوب الخربة الخالية من المعنويات.

أجل، إن الشيطان لا يتسلط على الفارغين من المعنويات؛ لأن هؤلاء يقن الشيطان أنهم قد التحقوا بجيشه، فترك زمامهم، ولذلك لا تجد للصلاة ولا للصوم ولا للحج بل ولا للإيمان بالله عند بعضهم مكاناً في حياتهم.. وبهذه الحال صاروا شياطين لأنفسهم، مشغولين بإغواء بعضهم البعض، ومن ثم يسعى الشيطان دوماً خلف القلوب المفعمة بالمعنويات، ويلف ويدور حتى يتلف معنوياتهم، فما أعظم الإنسان الذي نذر نفسه للعبادة! حتى وإن تسلطت عليه مردة الشياطين يظل محافظاً على عفته وشرفه ضابطاً لأخلاقه أكثر فأكثر، همه الوحيد هو أن يكون في طريق المسجد ليل نهار، وأن يقف بين يدي الله بفؤادٍ وقلبٍ يقظ.

من أجل ذلك قال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٠/١٥)؛ بمعنى أن الشيطان قد اعترف بعجزه وأنه لا سلطان له على الذين تغلبوا على أنفسهم لا سيما الأنبياء ﷺ، فجعلوا الدنيا وما فيها تحت أقدامهم، ونهضوا مرة أخرى بعد عثرتهم، وواصلوا طريقهم، وحققوا الطمأنينة في قلوبهم خمس مرات في اليوم، وبدلاً من الانشغال بغيرهم فقد اختاروا مجاهدة أنفسهم.

أجل، إن الشيطان يتسلط على القلوب العامرة، ويقعد بالمرصاد للذين يضعون جباههم على الأرض في الصلاة معترفين بذنوبهم وتقصيرهم، معلنين عن إقبالهم على ربهم، ويحاول أن يوسوس لهم ويفسد عليهم صلاتهم، إلا أن هناك حديثاً شريفاً يرفق إلينا بشرى في هذا السياق: "إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَةَ فَسَجَدَ، اغْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ"^(٨٩).

إننا عندما نمحو أنفسنا وننكر ذاتيتنا ونسجد يجتهد الشيطان في أن يوجّه أنظارنا ويستميل قلوبنا إلى مقاماتنا ومواقفنا ووظائفنا وحوانيتنا وأموالنا وأملاكنا وغير ذلك من الأمور التي لا تزن عند الله جناح بعوضة ولا ميزان لها مقابل ما وعدنا به ربنا ﷻ، ولكن ينبغي أن نتخيل أننا في عروج، ونغذ السير رغبة في الصعود على أول السلم، لتلقى رحمت الله تعالى، وبعد ذلك نحاول التخلص من هذه الوسواس من خلال التعمق في السجود أكثر وأكثر، ونقول: "يا ملعون، إن ربنا وعدنا بالجنة ورؤية جماله، فماذا تعدنا أنت؟!".

ب. اختلاس الشيطان من الصلاة

يطلق هذا المصطلح على التفات المصلي يمته ويسرة أثناء الصلاة، والحق أن الشيطان لا يستطيع أن يختلس الصلاة كاملة، ولكن يختلس جزءاً منها، ونظراً لأنه لا يستطيع أن يختلس الأركان، استغل ورقته الرابحة في سرقة الأنظار، وسعى إلى أن يجعل المصلي يلتفت يمينا أو يساراً.

(٨٩) صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٣؛ سنن ابن ماجه، الإقامة، ٧٠.

فلا بدّ من عدم السماح للشيطان باختلاس شيءٍ من الصلاة، لأنها أمانة، ويجب على الأمانة أن يؤدّوا صلاتهم بما يتوافق مع ماهيتها في العالم المثالي.. وحتى لا نشعر بالانزعاج هناك يجب ألا نكون مصدر إزعاج للصلاة هنا بأن نحول دون امتداد يد السارق إليها، ينبغي أن نتوجه إلى الله بكل قلوبنا ومشاعرنا ولطائفنا، وألا نسمح لأحدٍ بأن يسرق من صلاتنا شيئاً.. بدهي أنه من الصعب على المبتدئين في الصلاة أن يستشعروا هذا الأمر ويعملوا بما يقتضيه، ولكن قد يوارب الله يوماً هذا الباب، فعلى هؤلاء أن يصبروا، والأهم من ذلك أن يخصصوا للصلاة أنسب أوقاتهم، ويجهدوا أنفسهم، وسيأتي يوم إن شاء الله ويؤدّون صلاتهم على أكمل وجه.

جـ. الكسل عن الصلاة

بما أن الإيمان هو رأس كل أمر وأساسه فلا بد بدايةً من تناول مسألة الكسل عن الصلاة في هذا الإطار؛ بمعنى أن الأسس التي تُحتسب ضمن شروط الإيمان تشكّل نظرة الفرد إلى الدنيا، وعلى ذلك فإن الإيمان هو الأساس والضمان الوحيد لسكينة القلب؛ فالقلوب التي لا حظّ لها من الإيمان لا يمكنها أن تسدّ هذه الثغرة بشيءٍ آخر، يؤكّد هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿أَلَا بَدْرُ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد: ٢٨/١٣).

إن الإيمان بالأنبياء ينقذ الإنسان من النظرة السوداوية للماضي والقلق بشأن المستقبل، وإننا لنؤمن بأننا بفضل الإيمان بالأنبياء ﷺ لا سيما سلطان الأنبياء سيدنا محمد ﷺ سنعبر كالبرق الخاطف من أكثر الأماكن خطراً في الدنيا والآخرة، وبفضل شفاعته العظمى سنحظى بنعم تتجاوز آفاق خيالنا.

والإيمان بالكتب السماوية وما تصوره من أهوال ومشاهد للجنة والنار؛ يعمل على بقاء المؤمنين في شدِّ معنويٍّ دائمٍ، حيث إن من يطلع على أهوال يوم الحساب من خلال هذه الكتب يسعى دائماً إلى استثمار كلِّ لحظةٍ من حياته بشكلٍ أفضل.

والإيمان بالملائكة يُشعرنا بأننا معهم وإن كنا وحدنا وبأننا تحت نظرهم ومراقبتهم، وبذلك نتحرّى الدقة في تصرّفاتنا، ونعيش حياتنا متوخيّين الحيطة والحذر.

والإيمان بالقدر يعني الإيمان بأن كلَّ ما يصيبنا من خيرٍ وشرٍّ منه ﷻ، ولا احتمالية قطعاً إلى خلاف ذلك.

والإيمان بالآخرة هو أهم عنصر بين أسس الإيمان، فمن خلاله نكون في مراقبةٍ دائبةٍ لتصرّفاتنا، ومن ورائه نجني فوائد دنيويةً عديدةً تفوق العدّ والحصر، علاوة على ذلك فإن لقاء الرسول الأعظم ﷺ والأنبياء العظام والسلف الصالح والأولياء الكرام والأصفياء الفخام لا يتحقّق إلا في الآخرة؛ ولهذا فإن إيمان المؤمنين بالآخرة وهم الذين يتحرّقون شوقاً لرؤية هؤلاء وما يكسبه هذا الإيمان لهم مختلف تماماً.

فالإيمان بكلّ هذه الأسس يضع الفرد بدايةً في المستوى الإيماني الذي لا بدّ أن يكون عليه، ويضمن له الطمأنينة الحقيقية، وبعد ذلك تُدفع إرادياً العناصر التي تخلّ بهذه الطمأنينة وتؤدي العبادات التي تعمل على دوام هذه الطمأنينة، من أجل ذلك يجب علينا أن نفتش في الأسس الإيمانية التي عرضناها إجمالاً حول أسباب الكسل عن الصلاة، ولا شك أن الكاملين إيماناً لا يتعرّضون ألبتة لمثل هذه المعوقات.

الصلاة عبادةٌ تذكّرنا بكلِّ واحدةٍ من هذه الأسس الإيمانية التي عرضناها بإيجاز، ففي الصلاة قدرةٌ تذكيرٌ كامنةٌ وتمعنٌ عميقةٌ مستمرةٌ، وهي تذكّرنا بعجزنا وفقرنا أمام ربنا ﷻ، وتهدينا إلى السبيل لحل المشكلات المستعصية أو التي يتبدى ذلك منها؛ وهو الإيمان بالقدير المطلق ﷻ، ويمكن تفصيل هذه المسألة الأخيرة بالوقوف على آيات سورة الفاتحة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الحمد لله الذي خلق وبرأ وذراً كل شيء؛ بداية من الذرات حتى المجرات، فَلِمَ ييأس الإنسان بعد أن آمن بهذا الرب الذي أعانه على الملمات، ونجّاه من الغرق؟!

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي تسع رحمته الكافرين والمؤمنين في الدنيا والآخرة، الذي سبقت رحمته غضبه، فإذا كان هذا هو الحال فليَم الوقوع في اليأس والقنوط؟!

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي المالك الأوحد ليوم الحساب، الذي يعرض على عباده كلَّ ما عملوه في الدنيا وإن كان صغيراً يسيراً، ويحاسبهم عليه، ولكن لا يقطع عنهم مدده وعونه، لأن رحمته سبقت غضبه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي إننا نعتز ونعلن أمام ربوبيتك وألوهيتك بعبوديتنا لك، وما أشرفها من عبودية! فأنت الله سلطان السلاطين، أما نحن فأعزاء شرفاء بعبوديتنا لك وعدم الخضوع لأحد من المخلوقات، فاللهم إننا على استعداد للتمرد على أي شيء لا يرضيك، فنحن لا نرجو أحداً سواك.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿﴾ لما كان الإنسان يجهل أهمية المعونة بالنسبة إليه فمن رحمته ﷻ به أن علمه ما ينبغي له أن يسأله أولاً، فأمره بأن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وهكذا فإن عَرَضٌ مثل هذه العبودية التي تؤدَّى بوعيٍ وشعورٍ، وتنساب عقيدة التوحيد الصحيحة من كل جنباتها، وطلب العون منه ﷻ؛ هذا في الواقع يأتي بمثابة شكرٍ واجبٍ على العبد تجاه ربه الذي أحاطه بنعمه وألطافه، واعترافٍ منه على أنه لم يؤدِّ عبوديته له على الوجه الأكمل، وإدراكٍ منه بعجزه وفقره، وقد استوعب ذلك العبدُ العلاقة بين الخالق والمخلوق؛ فلجأ إلى ربه الغني الكريم القدير ذي الجلال، فكيف ييأس إنسان يحمل هذا المفهوم والتصور؟!

أجل، لا يتصوّر من إنسانٍ يصلي وهو يحمل هذا الفكر والشعور أن يترك الصلاة بحجة مشاغله الدنيوية، ومن ثمّ يجب تحديث هؤلاء الناس عن حقيقة الصلاة بجانب الإيمان، ومساعدتهم باستشعار كل هذا.

بالصلاة يُكمل الإنسان نضعه كما تكمل زهورُ عبّاد الشمس نضعها بالنظر إلى الشمس تمامًا، فإن العبد عندما يتوجه إلى ربه خمس مرات في اليوم تتجدّد أحاسيسه البالية ومشاعره الباهتة، ويستعيد نشاطه، ويجدد عهده مع ربه ﷻ.

وعلى ذلك فإن الصلاة هي أعظم ألطاف الله لنا، وغياها يحاكي غياب الشمس، فكما أنه لا وجود لزهور عبّاد الشمس -على مستوى

الأسباب- مع غياب الشمس، فكذلك لا معنى لوجود الإنسان بمعنى ما في عدم وجود العبادة، ومن ثم فنحن من نحتاج بالمعنى الحقيقي إلى العبادة.

من جانب آخر فإن من يصلي ويشحن معنوياً عند وقوفه بين يدي ربه يتجنب بقدر الإمكان كل محذور يعترض حياته التجارية، لا سيما وأن صلاتي الظهر والعصر اللتين يصليهما العبد في وسط النهار تثيران فيه مشاعر المراقبة والمحاسبة وتحركان آليته، وتصونانه من الوقوع في الخطأ، أما صلوات المغرب والعشاء والتهجد والفجر فكلها ينابيع لتجلي الأسرار التي عبر عنها الشاعر إبراهيم حقي بقوله:

تَرَى كُلَّ حِجَابٍ يَنْكَشِفُ

بِغَنَّةٍ إِذَا نَقَطَّعْتَ بِكَ السَّبِيلَ

وَلِكُلِّ آلَمَانَا لَدَى الْمَوْلَى دَوَاءٌ

فضلاً عن ذلك فإن الصلاة عاملٌ جبري ينظم حياة الإنسان اليومية ويرتبها؛ لأن الإنسان عندما يقف بين يدي ربه خمس مرات في اليوم تنتظم حياته طوعاً أو كرهاً؛ فبعد صلاة الفجر يشرع في عمله، وعندما يتعب من العمل المتواصل على مدى ست أو سبع ساعات يستعيد نشاطه مرة أخرى بأداء صلاة الظهر، ويستأنف عمله مجدداً حتى صلاة العصر، ومع صلاة العصر يأخذ قسطاً من الراحة البدنية والذهنية، فإن لم يستطع أن يدرك أو يستشعر هذه الأسس في الصلاة وقع في دوامة من القلق وعدم الطمأنينة، وما خرج من أزمة إلا ليقع في أخرى.

حاصل القول إن الذين لا يجدون وقتًا لأداء الصلوات بسبب كثرة مشاغلهم هم الذين تعامت أعينهم عن الحقائق الإلهية، ووفقًا لذلك فإن ضعف الإيمان لدى الإنسان، وعدم إيمانه كما يجب بالأركان الإيمانية، وعدم استيعابه لحقيقة الصلاة التي وقفنا على بعض أسرارها؛ يسوق الإنسان -مع الأسف- إلى الانزلاق وراء هذه الأفكار.. وسبيل الخلاص من ذلك -كما أوضحنا سلفًا- هو الوصول بالإيمان إلى درجة اليقين، وتمثل الإيمان في كل مناحي الحياة.

د. ضعف الهمة حول العبادات

من أخطر مشاكلنا نحن المسلمين ذلك الذبول الذي أصاب وجه عبادتنا، فلأسف صارت مساجدنا والمصلون فيها مثل الأوراق التي أصابها الخريف؛ فبعضهم يتشاءب، وبعضهم يرقد متمددًا، وبعضهم يتكلم عن الدنيا حتى في المحراب، وبعضهم ينتظر انتهاء الصلاة بفارغ الصبر والخروج من المسجد على جناح السرعة.. أنا لا أريد أن أسيء الظن، ولكن المنظر الخارجي بشكل عام ينم عن أناس لم يتصلوا بالله بشكل كامل، ولم يتعرفوا على نبيهم بشكل جيد، لا يذهبون إلى المسجد ويصطفون بين المصلين إلا تقليدًا لأبائهم وأجدادهم، ويصلون شكلاً وصورةً لا قلبًا وروحًا؛ من أجل ذلك فإن وضع المسجد وجماعته لا يعينان شيئًا للآخرين، ولا تقوم العبادة بوظيفتها كلسان حال الدعوة إلى الإسلام، فإنا نمثل إيماننا بشكل كامل، فكما يقول بديع الزمان سعيد النورسي: "إن قَدَمْنَا الأخلاق الإسلامية والحقائق الإيمانية بالأفعال لا بالأقوال؛ دخل أتباع الديانات الأخرى قطعًا إلى دين الله أفواجًا، وربما

دانت بالإسلام أيضًا بعض قارات ودول العالم^(٩٠)، ولكن مع الأسف لم نستطع أن نمثّل الإسلام بكل جماله وسحره.

والواقع أن الإسلام صوتُ التميّز، فمن نظر إلى المؤمن الحقيقي في ركوعه أخذته الدهشة، ومن رأى حاله في سجوده كاد يغشى عليه، ومن سمع أنيه أمام مولاه المتعال غاب عن وعيه، وهمّ بالسجود معه، فإن لم يُمثّل الإسلام بهذا الشكل فلن يكون له وقعٌ في نفس الطرف الآخر، ولن يدرك أحدٌ روح الصلاة وجاذبيتها القدسية في قيامٍ وقعودٍ قائمين على الشكل فقط.

ونحن في الواقع نشعر بالثقل عند أداء العبادات، وكأنّ العبادات عبءٌ علينا كما الأوامر العسكرية، فنشعر بالضيق والملل، وننظر إلى الإسلام بسذاجةٍ، ونقلّصه ونقلل حجمه في قلوبنا، لقد أصبحنا أسرى للألفة فبهتت القيم، وشحبت في أعيننا، وباتت لا تثير فينا الانفعال، ولم نعد نؤدّي العبادات ونتذوّق حلاوتها، أما إذا انفعَل بالصلاة بضعة أشخاص منا حتى غابوا عن وعيهم فقد يكون لهذا الأمر وقعٌ كبير في نفوسنا.

صلاة ليس للإنسان منها إلا التعب

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ"^(٩١).

(٩٠) بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٦٢.

(٩١) سنن ابن ماجه، الصيام، ٢١؛ مسند الإمام أحمد، ٣٧٣/٢.

والواقع أن المعنى الذي تعبر عنه الصلاة لا سيما دلالتها الداخلية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعمق الإنسان الداخلي، ولذا نجد في كل موضع تُذكر فيه الصلاة في القرآن الكريم إشارة إلى عمقها الداخلي، فمثلاً عندما يتكلم الحق تعالى عن المفلحين يوجّه الأنظار إلى العلاقة بين الصلاة والخشوع فيقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿﴾ (سورة المؤمنون: ١/٢٣-٢). أجل، لا يتحقق المعنى الحقيقي للخشوع إلا في الصلاة، ولذا يجب على الإنسان أثناء الصلاة ألا يرى ولا يسمع ولا يفكر في شيءٍ آخر سوى الصلاة.

الإنسان بالصلاة يقف في خضوعٍ وانقيادٍ وعبوديةٍ تامة أمام عظمة الله تعالى وجلاله، ويتوجّه إليه بالدعاء القولي والفعلي حتى يلبي له مولاه كلّ مطالبه التي يحتاجها ويعجز عن تحقيقها، الصلاة غذاء القلب ومعراج الروح، تهديّ الروح عند نزول الخطوب، وتجعل القلب يطير من السعادة، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ ما طلب من مؤذنه بلال أن ينادي على الصلاة قائلاً: "يا بلالُ أقم الصلاةَ أرْحنا بها" (٩٢)، إن الصلاة ليست بشيءٍ يؤديه الإنسان في كسلٍ وفتور، ولكنها وظيفة تحتاج دائماً إلى قلب يقظ، ومشاعر نشطة.

وإن الإنسان الذي يفكر بأعماله الدنيوية أثناء الصلاة لا يريح من صلاته سوى التعب والمشقة فقط، نسأل الله برحمته الواسعة ألا يجعل نصيبنا من صلاتنا التعب والمشقة، وأن يجعل قلوبنا ومشاعرنا في يقظة وخشوع على الدوام.

ومع ضرورة استحضار الوعي عند قراءة القرآن الكريم وتلاوة الأوراد والأذكار إلا أنه حتى وإن انتفى هذا الوعي فإن هذه الأشياء تخاطب بعض مشاعرنا؛ وبالتالي تتحقق استفادتنا منها، فترجو أن يكون هذا القدر من الجهد مثل قطرات المطر على اعتبار أنها وسيلة لاستنبات البذور الكامنة في أحضان التراب، فما يقع على عاتق الإنسان هو التعمق في الصلاة بشكل أكبر، وحتى يتحقق ذلك فلا بد أن يجبر الإنسان نفسه، وأن يجتهد في أن يُنزل كل كلمة وكل عبارة إلى أعماق قلبه، فالشعور الواعي يضاعف الثواب أضعافاً مضاعفة.

بيد أنه من الخطأ ترك الصلاة بحجة عدم التمكن من القراءة بخشوع وعدم التلذذ بالعبادات؛ لأن مثل هذه الأفكار هي من قبيل وسوسة النفس وخطاياها، فالمهم هو أداء وظائفنا الفردية والاجتماعية على أفضل ما يكون رغم قسوة الظروف.. فأحياناً ما يكون السكوت أبلغ من الخطب الطويلة، بل ويعبر عن معانٍ أعمق، ولعل الحرص على عشقنا وشوقنا لأداء العبادات تحت وطأة الظروف القاسية خيرٌ من أداء العبادات على وجهها في الظروف العادية، فمثلاً؛ هل الخير هو أن نصلي في المسجد في جَيْشان وانفعال أم أن نصلي على انفرادٍ ونضع جباهنا على الأرض معبرين عن انمحاء ذاتيتنا؟ لا ندري! ولذلك ربما ينخدع الراضون عن أنفسهم؛ لأننا لا نستطيع أن نجزم تماماً بما يرتضيه الحق تعالى.

ذكرى حول الدقة في الصلاة

من الذين لن أنساهم أبداً السيد المرحوم "جلال أفندي" والد الأستاذ المحترم "محمد قرقنجي"، كان جلال أفندي عالماً فاضلاً مجاوراً في

المدينة، توفي ودفن هنالك، لما ذهبْتُ قديمًا لزيارته رأيته رجلاً طاعنًا في السن، ورغم شيخوخته وعلته لم يقصر في صلاته، حتى إنه كان يصلي النوافل قائمًا، ولكن لما صعب عليه القيام أخذ يصلي بجوار سريره، فإذا قام استند على السرير، وذات مرة وبعد أن أتم صلاته على هذه الشاكلة سألتني قائلاً: "إنني أقوم للصلاة مستندًا على السرير، فهل تصحّ صلاتي بهذا الشكل؟" .. فهذا مشهدٌ لا يمكن أن أنساه أبدًا، فما أجمله من شعور! وما أحلى هذا السعي إلى أداء العبادة كما ينبغي رغم كل شيء، وعدم الاكتفاء بالحاصل، والبحث عن الأولى.

أجل، الصلاة رأسمال ينقذنا في الآخرة، من أجل ذلك ينبغي مراعاة الدقة في تعاملنا مع الصلاة، فاللهم أشعر أرواحنا بقيمتها، وتقبلها منا بقصورها وكسورها!



(٩)

المقارنة بين إعلاء كلمة الله والصلاة

لكل عبادة مكانةٌ وُعدٌ خاص بها، وكل التكاليف الإيمانية من الأصول إلى الفروع تجري في تناسبٍ دقيق، ولا وجود للتناقض والاختلاف فيما بينها، فكما أنه لا تأثير للجهد بدون الصوم والصلاة فكذلك لا يمكن أن يتناسب أداء الصلاة بلا جهاد مع حقيقة الصلاة. أجل، كل التكاليف تتكاتف وتتضامن مع بعضها كما تتراص الحجارة في القبة.

ومسألة العقيدة هكذا أيضًا، فكما لا يُتصوّر إسلام بلا إيمان فكذلك لا يكتمل الإيمان بدون الإسلام، فالإنسان يؤمن إيمانًا تامًا بما ينبغي الإيمان به حتى يرسخ الإيمان في صدره، أما إذا أدى الإنسان كل أوامر الإسلام دون إيمان راسخ فلن يلبث هو أو نسله أن يتقاعس ويتهاون في أداء هذه الأوامر، فيجب على الإنسان أن يؤمن إيمانًا راسخًا وأن يتقن العمل أيضًا، لأن الإيمان إن لم يصاحبه العمل يضعف رويدًا رويدًا وينحل؛ وجيل اليوم خير مثالٍ على ذلك.

بناءً عليه لا تفرقة بين الصلاة والجهاد، فالصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يجاهدون في سبيل الله ويصلون؛ لأن الصلاة تعني تجديد العهد مع الله تعالى خمس مرات في اليوم، أما سائر الواجبات بما في

ذلك الجهاد فتعني السير نحو الكمال، وجدير بالإنسان أن يجدد عهده مع ربه خمسمائة مرة في اليوم وليس خمس مرات فقط؛ فبالصدق والإخلاص والعشق والشوق في هذا المضمار يتولد الإذعان للقيام بوظيفة الجهاد.

وقد ورد ذكر صلاة الخوف بالتفصيل في القرآن الكريم^(٩٣)، وفي هذا إشارة إلى ضرورة إقامة الصلاة وأدائها في جماعة حتى في الوقت الذي يرمينا فيه العدو بوابل سهامه ويشتد فيه لهيب المعركة.. وهيتها: أن يصلي طائفة من الجيش مع الإمام، وتبقى طائفة أخرى تجاه العدو، فيصلي الإمام بالطائفة التي معه، ثم يثبت قائمًا ويتموا لأنفسهم، ثم ينصرفوا ويقفوا تجاه العدو، وتأتي الطائفة الأخرى التي لم تصل، فيصلي الإمام بهم الركعة -أو الركعتين- التي بقيت من صلاته، ثم يثبت جالسًا ويتموا هم لأنفسهم، ثم يسلم بهم.

أجل، لا محلّ لترك الصلاة ونسيان الله حتى أثناء لقاء العدو، الصلاة والجهاد أمران لا ينفصلان عن بعضهما، فالصحابه الكرام ﷺ كانوا يصلون حتى أثناء لقاء العدو في المعركة، ولذلك كانوا يلقون العون والتأييد من الله لهم على الدوام، ولذلك يجب على من لم يشعر بمثل هذا العون والتأييد أن يفثس في علاقته مع ربه عن سبب ذلك.

(٩٣) ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (سورة النساء: ١٠٢/٤).

لقد كثر في يومنا هذا الذين يقولون ما لا يفعلون، وعلى سبيل المثال: هناك من يحثُّ الناس على العبادات الليلية وصلاة التهجد لكنه ينام عنها ولا يكثر بها.. إننا اليوم أكثر احتياجًا إلى صحَّة الأرواح وسلامة القلوب ونقاء السريرة، والقرآن الكريم يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ (سورة المائدة: ١٠٥/٥)، والله تعالى يحبُّ الذين يوقِّرونه ويعبدونه ابتغاء لمرضاته، أما المتساهلون فيقول الواحد منهم: "إنني عبد الله، وأقوم بالواجبات التي حمَّلها الله لي"، ثم يهَمُّ بألف معصية والعياذ بالله.

أما المؤمن الحقيقي فيعتبر قيامه بالواجبات التي حمَّلها الله له وسيلةً مهمةً للتأثير في الآخرين، يقول الله تعالى لعيسى عليه السلام منبهاً ومحذراً: "يَا عِيسَى عِظْ نَفْسَكَ، فَإِنْ اتَّعَظْتَ فَعِظِ النَّاسَ وَإِلَّا فَاسْتَجِ مَعِيَ" (٩٤)، فوظيفة الإنسان الحقيقية هي قيامه بمسؤولياته أولاً، ثم تبليغها للآخرين كلما سنحت له الفرصة، فمثل هذا الإنسان وإن كان يضرب مثلاً للآخرين فإنه في الوقت ذاته يعبر عن نفسه. أجل، إذا كان الإنسان مثلاً لا يقوم بصلاة التهجد فلا ينبغي له أن يعظ الناس حول فضائل صلاة التهجد، وكذلك يجب على من يأمر غيره بصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع أن يبدأ بنفسه أولاً، لأن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصَّف: ٢/٦١)، وكأنه يقول: "ألا تخجلون؟!".

عوداً على ذي بدء فإننا لا نستطيع أن نفصل الصلاة عن الجهاد، فإذا كان الجهاد فرضاً مهمًّا فالصلاة هي أعظم جهادٍ للنفس، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما رجع من إحدى الغزوات قال: "قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ

مِنَ الْجِهَادِ الْأَضْعَرِّ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"، قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟ قَالَ: "مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ"^(٩٥)، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ أَنَهَزَمَ أَمَامَ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ.

من جانب آخر فلو كنتم تؤمنون حقًا بأنكم قد نذرتم أنفسكم لإعلاء كلمة الله فعليكم أن تفكروا جيدًا فيما تعنيه هذه الوظيفة وما يعنيه تكريس النفس لها وأن تحددوا موقفكم تجاهها، إن إعلاء كلمة الله يعني الدعوة للإيمان بالله ﷻ والنبي ﷺ والأركان الإيمانية الأخرى وقبول الإسلام، وبذل الجهد والسعي لأن يُسمع اسم الله في كلِّ مكان، ويرفرف في كلِّ موضع، وترتفع راية الاسم الجليل المحمدي في أكثر الأركان ظلمةً، وإعلاء حقيقة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" العلية والسامية في ذاتها، وجعلها مرثية كألوان الطيف في كل أنحاء العالم، وإبلاغها للجميع.

وعلى ذلك فإذا كنتم حريصين على دعوة الناس إلى معرفة الله وإلقاء السمع لرسالته وقراءة التجليات الإلهية على صفحة الكون؛ أليس من الأولى أن تصغوا أنتم أولاً إلى هذه الرسالة الإلهية، وتقرؤوا هذه التجليات، وتكونوا عبادًا لله حقًا وصدقًا؟! وإذا كنتم تدعون الناس إلى العبودية لله، وأنتم لا تؤدون عبادة مثل الصلاة على الوجه الأكمل رغم أنها أساس العبودية وجوهرها ألا يستدعي ذلك أن يصفكم الآخرون بالكذب؟! وإذا كنتم تقفون للصلاة وكلِّ هممكم في كلِّ مرة أن تتخلصوا من عبئها والانتهاة منها على وجه السرعة، وتنظرون إليها على أنها مجرد حركاتٍ ليس إلا؛ أليس هذا يعني أنكم تكذبون على أنفسكم؟! أليست دعوتكم الآخرين إلى عملٍ تستخفون به لدرجة أنكم تريدون

التخلص من عبئه على الفور هو شيء لا معنى له؟! أليست الحقيقة التي تدعون لها الجميع جديرةً بأن يكون لها بالأولى قدرٌ كبيرٌ في نظركم؟! وإذا كنتم لا تراعون الجدية الكاملة في مسألة ما فكيف تُقنعون غيركم بقيمتها؟!

التأثير في الآخرين مرهون بالعلاقة مع الله

فضلاً عن ذلك فإن التوفيق في المساعي المبذولة في سبيل إعلاء كلمة الله إنما يتوقف على قبول الله وتقديره لهذه المساعي، ولذلك لا يضع الله التأثيرَ في يد ضعاف الصلة معه، ومهما بذل هؤلاء من جهدٍ في التبليغ فلا سبيل لهم إلى اختراق أرواح مخاطبيهم، أو إرشادهم إلى الطريق المستقيم، بل لا قبل لهم بإخراج الإنسان عن كونه إنساناً عادياً والعروج به في مدارج حياة القلب والروح، فإن الله تعالى يقدر أصوات وأنفاس السائرين في طريقه، ويتفضل عليهم بوضع التأثير في أقوالهم وأفعالهم.

ومن ثمَّ يجب على خدام القرآن الكريم أن يفتشوا عن قيمتهم عند ربهم في صلتهم به، وأن يعلموا أن الشكليات لا وزن لها عند الله، كما جاء في الحديث الشريف: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ"^(٩٦)، فإن خلت أعمالكم من البعد القلبي ولم يتحوّل ما في قلوبكم إلى واقع عملي فقد ذهبت جهودكم ومساعدكم أدراج الرياح.

(٩٦) صحيح مسلم، البر، ٣٤؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٩.

ولذلك يجب على الأرواح التي نذرت نفسها للخدمة الإيمانية أن تبذل كل وسعها حتى لا تتعرض لتأنيب الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الضُّف: ٢/٦١)، أو تُفاجأ بسؤال: "لماذا تردّيتم إلى وضع الكذابين بعدم تمثيلكم الحقائق التي بلغتوها إلى الناس حقّ التمثيل؟! ولماذا تشوّهون وجه الإسلام الناصع؟!.. بل ينبغي لتلك الأرواح مراعاة الأمور الثلاثة التالية حتى يمكنهم أداء الصلوات المفروضة على أكمل وجه، ويصيروا أبطالاً حقيقيين للصلاة.

١- بين لنا رسول الله ﷺ -وهو يرشدنا إلى الغاية السامية- أن في الجنة مائة مرتبة أعلاها الفردوس، ووجّهنا إلى إعلاء همّتنا بقوله: "إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ" (٩٧)، وفوق ذلك علّمنا أدب السؤال، والأدعية التي يمكننا أن نسأل الله بها، وفي ظل هذه الأدعية نقول: "اللهم املأ نفوسنا برغبة النظر إلى جمال وجهك، واشحن قلوبنا بشوق الوصال بك، وميّع أبصارنا بنعمة النظر إليك"، فبمثل هذه الأدعية نعلن عن رغبتنا في مشاهدة جمال الله، والظفر برضاه، والوصول إلى رضوانه. أجل، إن هذه الأدعية التي تعلمناها من النبي ﷺ توصينا بضرورة إعلاء همّتنا على الدوام.

ولذا يجب أن نعلي الهمة فيما يتعلّق بإدراك حقيقة الصلاة، وأن نسأل الله عشق السلف الصالح واشتياقه للعبادة وخشيته في العبودية، وأن نستجدي العناية الإلهية حتى نوّدي الصلاة بوحي وإدراك تامّ، وربما يجب على كلّ واحدٍ منا أن يقول: "اللهم إنني أسألك إدراكاً إدراكاً كإدراك

(٩٧) صحيح البخاري، الجهاد، ٤؛ سنن الترمذي، الجنة، ٤.

النبي ﷺ للصلاة، اللهم أشعز روعي بمعنى الصلاة، اللهم اجعلني على خطى نبيك في أداء الصلاة، اللهم أشعرنني بهذا بكل ذرة في كياني، اللهم لا تشغلني بشيء سواك، ولا تخرجني من عبادة الصلاة، اللهم تطّف عليّ بهذا اللطف!".

أجل، إن طلب الظفر بأفق العبادة النبوي ليس طلباً للنبوة، إنما هو تعبير عن الحاجة إلى مزيدٍ من التعمّق في العبادة والاقتران بمفخرة الإنسانية محمد ﷺ في حياته التعبدية وفي كلّ أمر، ومثل هذا الدعاء لا يضيع هباءً منثوراً، فإن أصررتم وثابرتم على هذا الدعاء فلن يحرّمكم ربكم من فضله، وستصلون بإذن الله إلى معيته، ولو أنكم أبنتم عن مثل هذا الطلب البسيط فلا بد أن الله تعالى سيّليه لكم بما يتوافق مع علوّه وعظّمته ورحمته، ولذلك فإن الشوق إلى الأمور العالية والتطع إلى الأهداف السامية إنما هو تعبيرٌ عن علوّ الهمة، فعلى الإنسان أن يتطلع إلى مزيدٍ من العلوّ في مسألة إقامة الصلاة.

٢- إن طلب إدراك حقيقة الصلاة هو دعاءٌ قوليّ وقلبيّ، أما الجانب الفعلي لهذا الدعاء فيشكّله مطالعة وقراءة المؤلفات التي تتناول هذا الموضوع بداية، فإذا كان المؤمن يرغب في أداء الصلاة بوعيٍ وشعور ولم يشرع في بقّر بطون الكتب المختصّة بهذا الأمر ولم يسع إلى التعرف على آراء العلماء في هذا الموضوع، وأهمّل الجانب النظري للمسألة فلا يمكن أن يُقال حينذاك إنه كان مخلصاً في طلبه، وعلى ذلك يجب على السالك في طريق الصلاة أن يقوم -كخطوة ثانية- بقراءة الكتب والمقالات التي تبثّ شوق العبادة في قلبه، وتطوف به

في محيط الصلاة النوراني، وتعزّفه على مفاهيم وآراء العلماء حول موضوع الصلاة، وتملاً قلبه خشيةً ووجلاً.

لقد كان الأستاذ النورسي رحمه الله يقرأ أحياناً بعض الرسائل أكثر من مائة مرة لما يرى لها من أهمية بالغة.. أليس حريّاً بالمؤمن أن يراجع على الأقل بعض المؤلفات المتعلقة بحقيقة الذات الإلهية والأركان الإيمانية والبعد المعنوي للعبادات؟! أجل، ينبغي لطلاب القرآن أن يتعرّفوا على آراء الصالحين من أمثال الإمام الغزالي ومولانا جلال الدين الرومي وبديع الزمان سعيد النورسي* حول موضوع الصلاة، وأن يقرؤوا المقالات المنشورة حديثاً عن هذا الموضوع وأن يتذاكروا ويتدارسوا هذه المسألة مع بعضهم.

٣- إن السيرَ إلى الهدف خطوةً بعد أخرى، مع الإصرار على الدعاء القولي والفعلي، والتصميم على تحقيق المطلوب، واتخاذ موقفٍ ثابتٍ، والصبر الفعّال؛ كلُّ هذا يُعتبر شرطاً مهمّاً للغاية في سبيل الوصول إلى النتيجة، ربما لا يقع حبُّ الصلاة في قلب الطالب مباشرة، وقد يُمضي الإنسان أياماً وشهوراً وأعواماً حتى يستشعر حقيقة الصلاة، ولذلك فمن الأهمية بمكان الإصرار على الطلب وعلى مسألة الأخذ بالأسباب التي توصل إلى النتيجة.

فعلى الراغب في تحقيق البطولة بالصلاة ألا يهمل أيّ وسيلة تصل به إلى هذا الأفق، فأياً كان الصوت أو النَّفس الذي يثيره ويجيش قلبه فليجأ إليه، ليس مرة واحدة فقط، بل ربما مائة مرة.. ربما يجب عليه أن

يقرأ نفس الكتاب المتخصِّص عشرات المرات، أو يستمع إلى شريط تسجيل عدة مرات، أو يُصغي إلى كلام الكبار مرات عديدة، أو يفكر في أهدافه وأحواله، وحادِر ثم حذارٍ أن تراوده فكرة اليأس والرجوع عن الطريق بذريعة عدم المقدرة، كما عليه أن يحذرَ من العجلة بنفس القدر، وليتذكّر جيّدًا أنه ربما ينساب كما ينساب الماء سنوات، ويخرّ كما يخرّ، وكثيرًا ما سيصطدم بالصخور، ولكنه سيتطهّر في كلّ مرّة، إلى أن يصل أخيرًا إلى المحيط، وبقدر عمق نيّته وعِظَم همته وسعيه سيتبوّأ مكانه في الآخرة خلف السلف الصالح عشاق الصلاة وأبطالها.



(١٠)

وظيفة المسجد

للمسجد مكانة خاصة عند المسلمين؛ ولهذا يحظى إنشاؤه وإعماراه بأهمية بالغة، ولقد بشر النبي ﷺ من بنى لله مسجدًا في الدنيا بأن الله سيبنى له بيتًا في الجنة^(٩٨).. ولذا ما إن شرف ﷺ المدينة المنورة حتى هم بإقامة مسجدٍ يجتمع فيه مجلس الشورى العسكري والمدني، وتُقدّم فيه الاستشارات الخاصة بأعمال الدولة، ويؤدّي فيه المسلمون جميعًا عباداتهم لربهم ﷻ.. ولقد كان ﷺ يشارك أصحابه في بناء المسجد وكأنه عامل من العمال، فكان يحمل الحجارة على ظهره إذا لزم الأمر، ويمسك المعول والمجرفة بيده، وكان أحيانًا أخرى يحفر الأرض، ويكسر الحجارة، ويقوم بعمله كإنسان عادي بعيدًا عن كل أنواع البيروقراطية.. وقد صار هذا السلوك منه ﷺ سنةً في أمته فيما بعد، فما إن يفتح قادة الإسلام مكانًا حتى يقيموا مسجدًا في البداية، يجتمع فيه الناس، يتضرّعون إلى الله بالدعاء، ويرفعون أيديهم عارضين عبوديتهم على ربهم ﷻ.

غير أن المساجد في أيامنا هذه قد فقدت معظم وظائفها، وغدت بنايات تؤدّي فيها العبادات شكليًا فقط، علمًا بأن رسول الله ﷺ كان يعالج كل المشاكل العسكرية والقضائية والإدارية في المسجد، وداوم

(٩٨) انظر: صحيح البخاري، الصلاة، ٦٥؛ صحيح مسلم، المساجد، ٢٤.

المسلمون على هذه السنة زمنًا طويلاً، ففي الفترات التي كانت فيها جميع الأمور تُنجز في المسجد كان الناس يضعون جباههم على الأرض أولاً وكانهم يقدّمون كشف حساب لربهم، ثم ينهضون فيما بعد لمزاولة أعمالهم، ربما يقتربون ذنوباً دون قصد، ولكنهم لا يلبثون أن يرجعوا إلى ربهم في الصلوات الأخرى ويتطهروا من آثامهم.

ويلفت النبي ﷺ الانتباه إلى خاصية التطهير التي تمتاز بها الصلاة فيقول: "الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفِرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرُ"^(٩٩).

ويقول ﷺ في حديث آخر: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا؛ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟"، قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءًا، قَالَ ﷺ: "فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا"^(١٠٠).

إننا على يقين بأن المساجد حينما تؤدي وظائفها القديمة فإن الناس سيقومون بأعمالهم بدديناميكية داخلية وصفاء وجداني مستشعرين أنهم سيحاسبون عن هذا العمل أمام الله، ووفقاً لذلك يمضون قدماً، وينبذون كل ما يتصل بعصر الجاهلية، ويقتربون أكثر من الإسلام، ربما بُذلت بعض المحاولات في هذا الصدد حتى الآن، إلا أنها لم تؤت أكلها بعد، فرجأؤنا أن تُتخذ بعض القرارات في هذا الشأن، وأن تخرج المساجد عن كونها أماكن لأداء بعض العبادات فحسب، وأن تصير أماكن تُستوفى فيها الأعمال الخاصة بالمجتمع، فالمؤمنون حقاً كما جاء بالقرآن

(٩٩) صحيح مسلم، الطهارة، ١٠، ١٥، ١٦؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٤٦.

(١٠٠) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، ٦؛ صحيح مسلم، المساجد، ٢٨٣-٢٨٤.

الكريم هم الذين جعلوا المساجد تقوم بمهمتها الحقيقية المنوطة بها وعمروها مادياً ومعنوياً، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ١٨/٩).

كان السلطان "أحمد الأول" من السلاطين العثمانيين الذين نفذ الوعي الإسلامي إلى كل كيانهم، لدرجة أنه لما جيء بأثر قدم النبي ﷺ من مصر لإسطنبول وقف أمام هذا الأثر قائلاً: "يشرفني أن أضع أثر القدم الشريف تاجاً على رأسي وأتجول به"، ويحكى أنه كان يحمل الرمل والحصى في حجره ويعمل كالعمال أثناء بناء مسجد السلطان أحمد، وكان يدعو الله قائلاً: "اللهم تقبل هذا الخير اليسير من عبدك الفقير أحمد، واجعله زاداً له في الآخرة"، وبعد سنوات من وفاته يراه حفيده في المنام، فيقول له: ماذا فعل الله بك يا جدي؟ فيقول: "لقد تقبل مني عملي، وغفر لي، وأدخلني الجنة".

فالإنسان يموت على ما يحيا عليه، ويبعث على ما مات عليه.



الفصل الثالث
التهيؤ للصلاة



(١)

الوضوء

إن الله تعالى لا يرضى أن نبذل حياتنا كلها لحساب أنفسنا ورغباتنا، ولذلك أمرنا بالامتثال بين يديه في أوقات معينة من اليوم لعرض عبوديتنا عليه ﷺ في خضوع وتسليم تام، ويأتي على رأس هذه الأوامر الصلوات الخمس، فهي أهم الأعمال بالنسبة للمؤمن، ولكن قبل الحديث عن الصلاة يحسن بنا الوقوف على مسألة الطهارة التي تُعدّ من جملة الاستعدادات للصلاة.

والطهارة هي بمثابة مفتاح للصلاة، فمن لم يتطهر لم يدخل في الصلاة، يقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (سورة التوبة: ١٠٨/٩)، ولقد نزلت هذه الآية في أهل قباء الذين كانوا يولون الطهارة اهتمامًا عظيمًا على اعتبار أنه من باب التهيؤ للصلاة.

أجل، إن المؤمن الذي يحرص على أن تنعكس طهارته ونظافته الداخلية على الخارج بوضوئه هو في الحقيقة إنسانٌ يحبه الله تعالى، إنه يشمّر عن ساعديه وساقيه ويتوضأ لأن الله أمره بهذا، وبعد ذلك تتبدى على وجهه علامات الجِدِّ والوقار تعبيرًا عن استيعابه للمعاني التي يشعر

بها عند مثوله أمام ربه، مثله كمثل سيدنا علي عليه السلام الذي كان يأخذه القلق والشعريرة وهو مقبل على الصلاة.

أجل، بالطهارة تتطهر الأعضاء مثل اليد والرجل والشعر واللحية من الأدران، وينسلخ القلب والروح من الخصال الذميمة كالأخلاق السيئة، ويحلّقان نحو الأعالي، فيغدو "السرّ" مرآة مصقولة مهياً لاستقبال الواردات القادمة من الله، وبهذه الطهارة يحوز الإنسان نصف الإيمان، ويشير النبي صلى الله عليه وآله إلى هذه الحقيقة بقوله: "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ" (١٠١)، أما الشطر الباقي فهو رسوخ الإيمان في القلب، فهذه مسألة ترجع كلها إلى الله تعالى، وأعتقد أن الإنسان عندما يشرع في الطهارة بنية العبادة تُمحي الأدران التي بداخله، ويقذف الحقُّ تعالى نورَ الإيمان في هذا القلب المهياً للصلاة.

تنبيه في طريق الصلاة

الوضوء وسيلة استعدادٍ روحية ومعنوية للعبادات، به تتحقّق الاستفادة العظمى من هذه العبادات، ثم إنه الاستعداد والتنبيه الأول للصلاة، ولكنه لم يُفرض من أجل جميع العبادات والأعمال، بل اختصّ ببعضها لا سيما الصلاة، وهو فرض من أجل إقامة الصلاة، وسجود التلاوة، ومس المصحف، أما بالنسبة للطواف حول الكعبة فهو واجب، وبالنسبة لرفع الأذان، وإقامة الصلاة، ومدارسة وتدريس علوم الدين فهو مندوب؛ بمعنى أنه عملٌ يحصل به الثواب وإن لم يأمر به الدين بشكلٍ قاطع، ومعلوم أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحرص على الوضوء دائماً، ولا

(١٠١) صحيح مسلم، الطهارة، ٤١؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٨٦.

يُشرع في عملٍ دون وضوء، ولهذا كان من السنة أن يحرص المؤمن على أن يكون متوضئًا على الدوام.

وتنطوي كلمة الوضوء على معنى الجمال والطهارة، فبالوضوء يُخْلِص العبدُ قلبه مما سوى الله، ويتجَمَّل معنويًا، ويتطهَّر بدنيًا، ويصير مهياً قلبًا وروحًا للدخول إلى الحضرة الإلهية وهو في أبهى أنواع الزينة والجمال.

وكما هو معلوم فإن من شروط الصلاة الطهارة من الحدث، والطهارة من الحدث هي الطهارة الحُكْمِيَّة التي تجيز أداء العبادات المشروعة على نحوٍ صحيح، ويتم تحقيقها عن طريق الغسل الشرعي لرفع الحدث الأكبر أو الأصغر.. وإن كان الوضوء والغسل يعملان ظاهرًا على إزالة الأدران المادية والحفاظ على الصحة البدنية فإنهما في الأساس من الأمور التعبديَّة؛ بمعنى أنهما من الطهارات الدينية التي يُؤْتَى بها بنية القيام بالعبادة، وتُبنى على حِكْمٍ لا نعلمها لكننا نأتي بها لأن الله أمرنا بها فحسب.

وقد شرع الله تعالى الوضوء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (سورة المائدة: ٦/٥)، ثم يقول ﷺ بعد هذه الآية التي تشير إلى فرضية الوضوء قبل الصلاة التي تُعدُّ أعظم علامات العبودية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ

وَأُيِّدِكُمْ مِنْهُ مَا بَرَأَ اللَّهُ لِجِبَلٍ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرٍّ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٥﴾ (سورة المائدة: ٦٥).

العمق في التفكير

الوضوء هو الاستعداد والتنبيه الأوّل للصلاة، لكن إثمار الوضوء متوقّف على تعمق الإنسان في أفكاره، فالإنسان بقدر إخلاصه في أفكاره ومشاعره يسبر أغوار الأعمال التي يقوم بها، ويضفي على كلّ حادثة تقع له ماهية مختلفة؛ فمثلاً يتحمّل الإنسان البلاء الذي ينزل به بطريقة أو بأخرى، ولكن إن اعتبر هذا البلاء مصيبةً عاديةً عليه أن يتحمّلها مضطراً فهو بذلك يكون قد حصر الآلام التي يتجرّعها والمعاناة التي يكابدها على ضيق فهمه الخاطيء، ولو أن الإنسان توقّف عند ظاهر المصيبة ولم يفكر في بعض الأمور المتعلقة بخلفياتها فإنه بذلك يحصر هذه الحادثة على الزمن الذي يعيشه، وبالتالي يكون قد ضيّق الحياة على نفسه، وتجرع آلاف الآلام سُدًى.

بيد أنه من الممكن للإنسان اعتباراً من اللحظة الأولى التي يقابل بها المصيبة أن يعتبرها وسيلةً للتطهر وفرصةً لنيل الثواب، ولو أن الإنسان علم أن الذي أنزل البلاء هو الله، وأن كلّ حادثة في الكون لا تقع عبثاً وسُدًى فهذا يعني أنه حاز شعور الصبر المغلّف بالرضا، ولذلك نراه يتوجّه إلى الحق تعالى ليتّصل بالحضرة الإلهية، ويقول انطلاقاً من أن الله تعالى يرى كلّ شيءٍ وأن ثمّة آلاف من الحكم وراء كل أمر:

إلهي قد قبلنا كلّ ما أتانا

خلعةً كان أو أكفاناً

إِنْ وَرَدَتْ طَرِيَّةٌ أَوْ شَوْكَةٌ قَوِيَّةٌ تَلْقَانَا

لَكَ الْحَمْدُ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ عِرْفَانًا وَإِيمَانًا

إنه ينظر إلى هذا البلاء النازل كالصاعقة عليه على أنه معاناة لا بد منها في سبيل التطهر من الذنوب والأخطاء، ويتوجه إلى ربه متضرعاً محتسباً راضياً غير ساخط، ثم يتحلّى بالصبر ليس لأنه مضطراً إلى ذلك، بل لأنه يؤمن بأن كل ما جاءه هو من عند الله، وبذلك يكون قد استفاد من المصيبة جيداً، وسبر أغوارها بعمق أفكاره، بل إنه ولو لم يكشف عن هذه المشاعر ولم يعبر عنها قط إلا أن تعامله برضاً مع الأمر وتعبيره عن صبره بلسان حاله قد مهد الطريق لهبوب نسيمات الطمأنينة على داخله، فتخرج هذه الحادثة ذات الوجه الذميمة عن كونها مصيبة، وتتحوّل إلى الضفّة الأخرى، وتغدو وسيلة للمغفرة والغفران.

وهكذا فحتى يشعر الإنسان بمزيدٍ من العمق في الصلاة يجب أن تستولي عليه هذه الأفكار الصادقة عند وضوئه.. عليه أن يقول: "اللهم إنك أرشدتني إلى حوض الوضوء حتى أخرج إلى حضرتك مُطَهَّرًا من شهوات الدنيا، فتوضأت طاعةً لإشارتك وأمرك" .. كما يجب عليه أن يعتبر الوضوء وظيفةً أمر بها الله، وحلّةً للعبادة حدّدها الحق تعالى وعينها؛ لأنه ﷺ وحده هو الذي يعلم ويرى ما يعنيه الوضوء، وما نوع التطهر الذي يكون الوضوء وسيلةً إليه، وما الحلّة التي نلبسها ونتجمل بها في عالم المثال بفضله، وهذا يعلمه ويراه أيضًا -بإذن الله- الحفظة من الملائكة وساكنو الملا الأعلى؛ ولهذا يجدر بالمؤمن أن يقبل وينقذ الأمر على الطريقة التي ارتأها الله للتطهر وأمر بها.. فالشرط الأول لجني ثمرات

الوضوء هو تعظيمه؛ لأنه قبل كل شيء فعل أمر الله به، والاعتقاد بتطهيره المادي والمعنوي، وتناوله في إطار الأسس التي حددها الدين.

ويؤكد النبي ﷺ على أن الوضوء بمثابة مطهر للأدناس والأدران المعنوية بقوله: "إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوْ الْمُؤْمِنُ - فَعَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلِّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا عَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلِّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا عَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الدُّنُوبِ" (١٠٢).

وهذا يعني أن الإنسان الذي يتطهر من النجاسات المادية التي تصيبه من هنا وهناك يتطهر بفضل الوضوء من الأدناس المعنوية، ويتدثر بأليق حلة للحضرة الإلهية، ويكون على أكمل استعداد للمثول أمام حضرة السلطان ﷺ.

فالمؤمن الذي يأتي إلى المسجد يتوضأ مستحضراً لقاء ربه، وربما يولي نظافته الباطنية أهمية أكثر من نظافته الظاهرية؛ لأنه يتوجس خيفة من أن يكون منافقاً لعدم توافق الباطن والظاهر بأن يكون خارجه طاهراً وداخله مظلماً ظلاماً مطبقاً، فإلى جانب أنه يغسل يديه ورجليه ويزيل التراب والغبار عنهما فإنه يعتبر المثول بين يدي ربه حاملاً بعض الأراجيف والأكاذيب المعنوية نوعاً من الوقاحة وعدم اللياقة مع الله ﷻ؛ لأن الحق تعالى ينظر إلى القلب أكثر من القلب، ويطرد من حضرته

(١٠٢) صحيح مسلم، الطهارة، ٣٢؛ سنن الترمذي، الطهارة، ٢.

من جاء إليه ببلى وتداع في الداخل رغم طهارة الخارج، ولذا فإن طهارة الظاهر تحمل ماهية طهارة الباطن بالنسبة للمؤمن في الوقت ذاته.

يقول النبي ﷺ في حديث آخر: "إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يُدْخِلْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ، أَوْ أَيْنَ كَانَتْ تَطُوفُ يَدُهُ"^(١٠٣)، وقد ثبت بشهادة الخبراء في أيامنا أن الجراثيم تنتشر في الجسم وخاصة بالمواضع الرطبة منه، ومن المحتمل أن تعبت الأيدي في هذه المواضع خلال الليل أو تتلوّث بتلك الجراثيم، فالإنسان لا يدري أين باتت يده، هل تحت إبطه أو في أي موضع آخر من جسده؟ وعلى ذلك لا فرق إذا بين أن يُؤْتَى هذا الأمر انطلاقاً من توصيات الأطباء أو امثالاً تاماً لأمر الرسول ﷺ أو على اعتبار أنه وسيلة للتطهر؛ لأن هذه مسألة طهارة.. فالأخطاء لا يمكن تطهيرها إلا بعفو الله تعالى وغفرانه، أما اليد النجسة فلا تتطهر إلا بغسلها جيداً، ولذلك فإن الإنسان الذي يتوضأ خمس مرات في اليوم لا يقترف خطأً مع الله فيكدر نقاء سريره، ولا يعرض نفسه للجراثيم بأي شكلٍ من الأشكال، والوضوء يكفر كل هذا، ويرفع من درجة المؤمن.

أجل، الوضوء هو أنسب حُلة ينبغي ارتداؤها للمثول بين يدي الله ﷻ، وإن حسن ارتداء هذه الحُلة ومراعاة آدابها يعني التهيؤ للدخول إلى قاعة القبول المسماة الصلاة، فمن يدري لو شهدنا اللوحات التي يعكسها الوضوء على عالم المثل لرأينا كيف تختلف هذه الحُلل تبعاً لسعة الأفكار أو ضحالتها.. ربما ندرك حينها كيف يتحول الوضوء الذي

يأتي به الإنسان مستشعراً نشوة العبادة إلى حُلة جميلة، وكيف تستحيل حُلة الشخص الذي يرى الوضوء عبارةً عن غسلٍ لليدين والرجلين إلى وضعية ممزّقة مهلهلة وإن كان يقصد العبادة.

الابتعاد عن المشاغل

وكما يلزم على الإنسان إذا أراد أن يقف للصلاة أن يرتدي أولاً حُلة الوضوء فكذلك ينبغي له أن يتخلّص من كلّ المشاغل التي تُبعد قلبه عن روح العبادة؛ من أجل ذلك تُكره صلاة من يدافع الأخبثين، لأن عليه أن يطرح ما يجب طرحه أولاً، ثم يدخل إلى دائرة العبادة بشعور العبادة الخالص، وأن ينتصب للصلاة متخلّصاً من كلّ التأثيرات السلبيّة التي قد تشغله.. والواقع أنه عند تناول هذه المسألة في كتب الفقه نجد أن الحكم فيها قد ارتبط بمدى انشغال القلب وعدم انشغاله بها، وعُدَّ وقوف الإنسان للصلاة وهو يدافع الأخبثين مكروهاً، لأن القلب والذهن إن انشغلا بأمرٍ ما فلا يقدران على التركيز في أمرٍ آخر؛ إذ إنه من الصعب، بل ومن المستحيل على الإنسان الذي يركز بشيءٍ ما أن يكتفّ همته حول شيءٍ آخر، ولذلك يستحيل على من انشغل ذهنه أن يؤدّي صلاته على الوجه المطلوب، ويستوفيهما حقّها، ويشعر بالتعمق فيها.

فضلاً عن ذلك فإن الوقوف للصلاة على هذا الوضع فيه استخفافٌ بالصلاة؛ لأن هذا يعني أنه يؤدّيها اعتباطاً ودون تركيز أو كيفما اتفق، والحال أن الصلاة لم تُشرع لتؤدّي على هذه الشاكلة، بل لإنارة الوقت الذي يقف فيه الإنسان للصلاة، ولإنارة الحياة كلها.. من أجل كلّ هذه الأمور حبّذ بعض الفقهاء الإتيان بنية الوضوء عند الذهاب لقضاء

الحاجة، ففي ظلّ هذه النية تدخل كل الاستعدادات الأولية لأداء الصلاة بحضور قلب ضمن قائمة العبادة، وبالتالي ينال الإنسان الثواب على كل مرحلة بدءًا من الاستعداد قبل الوضوء حتى لحظة الوقوف للصلاة.

وعلى ذلك فالوضوء له أهمية بالغة للدخول في جوّ العبادة والتركيز في الصلاة، ولا يمنع المؤمن من إسباغ الوضوء برودة الجو أو حرارته، فمهما كانت الظروف فالمؤمن يسلك طريقه ويشرع في طهارته المادية والمعنوية وكأنه مسافر يُعدّ نفسه لارتقاء المعراج، فلا يكاد يمدّ يديه ليغسلهما حتى يدخل في جوّ مفعمٍ بالخشية والمهابة من الله تعالى، وينصرف عن لهو الكلام حول الدنيا، وعندما يأخذ في غسل كلّ عضوٍ من أعضائه يدرك ضياءً مختلفًا، ويصل إلى حيوية أخرى، ويتعلم الأدعية التي يُوصى بقراءتها أثناء الوضوء، فإن لهج لسانه بذكرها أو تفكّر في المعاني التي تحتويها وتوجّه إلى الحق تعالى بمشاعر سامية عندها يدخل في جوّ معنوي آخر وشدّ معنوي مختلف.

أ. نظافة الأسنان عند الوضوء

يجب على المؤمن أن ينظف أسنانه عند التهيؤ للوضوء، وكما يتحقق هذا بالسّواك يتحقّق أيضًا بفرشاة الأسنان، وسواء كان القصد من هذه النظافة هو التخلص من فضلات الطعام أو القضاء على البكتيريا المتراكمة في اللثة وصيانة الأسنان؛ فلا فرق، لأننا نفعل ذلك اقتداءً بسنة نبينا ﷺ، من جانب آخر فرغم أن الإنسان يبدو حرًا في أفعاله فلا يحقّ له القيام بأيّ شيءٍ حتى وإن كان في نفسه دون إذنٍ من الله على اعتبار أنه عبد لله، والعبد لا يتحرّك إلا في دائرة إذن سيّده.

فمثلاً لا يجوز أن يقطع الإنسان جزءاً من أصابعه انطلاقاً من فكرة أن الأصبع أصبعه ويمكنه أن يتصرف فيه كيفما يشاء، فهذا ذنب يحتاج مقترفه إلى التوبة، وكذلك من قتل شخصاً خطأ فعليه أن يعطي الدية، وقد قدرها النبي ﷺ بألف من الغنم أو مائة من الإبل، وهي تعدل في زماننا أموالاً طائلة، وقد جاء في الأثر أن رجلاً قال لابن عباس رضي الله عنهما: ما ترى في رجل قتل مؤمناً متعمداً؟ فقال: ﴿جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء: ٩٣/٤) ^(١٠٤).

وانطلاقاً من كل هذه الأهمية التي أولاهها الإسلام للإنسان ونفسه وجسده فإن صيانة الإنسان لأسنانه وعدم السماح بإفسادها أمرٌ يجب التركيز عليه أيضاً؛ أي إن كل شيء في جسد الإنسان، بل أدنى شيء له قيمة كبيرة، وكلها نعم ولكل منها قيمة خاصة، ورغم أن إغداق هذه النعم على الإنسان في البداية لا يتوقف على إرادته فإن دوامها يتوقف على إرادته وعلى السعي الذي يبذله في هذا الصدد.. ولكن ما هو هذا السعي؟

هذا السعي هو تنظيف الأسنان بضع مرّات في اليوم، ففي الحديث: "تَسَوَّكُوا؛ فَإِنَّ السُّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاءٌ لِلرَّبِّ، مَا جَاءَنِي جَبْرِيلُ إِلَّا أَوْصَانِي بِالسُّوَاكِ، حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي، وَلَوْ لَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي، لَفَرَضْتُهُ لَهُمْ، وَإِنِّي لَأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أُحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي" ^(١٠٥).

(١٠٤) سنن الترمذي، التفسير، ٥؛ سنن النسائي، التحريم، ٢.

(١٠٥) سنن ابن ماجه، الطهارة، ٧.

ورغم أن الحديث رواه من الصحابة عددٌ يزيد عن أربعين؛ إلا أن المسلمين لم يعطوا هذا الأمر حقه من الالتزام التام، وكما يُنظر للأمر باهتمام الآن من حيث الطبِّ الوقائي فسوف يُنظر إليه باهتمام أكبر في المستقبل أيضًا.. ولكن مهما حاولوا فلن يستطيعوا الوصول إلى مستوى الاهتمام الذي أبداه رسول الله ﷺ حول أهمية هذه المسألة.

ففي حديث آخر يقول صلوات ربي وسلامه عليه: "إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقٌ لِلْقُرْآنِ، فَطَيِّبُوهَا بِالسِّوَاكِ"^(١٠٦). أجل، إن الله جميل يحب الجمال، لطيف يحب كل ما هو لطيف، وبكره كل ما هو قبيح، فحافظوا على طهارة أفواهكم يرض الله عنكم، وإلا حاسبكم على سوء صنيعكم.

وفي النهاية أريد أن أشير إلى شيءٍ آخر، وهو إن كنا نستعمل كلمة المسواك بمعنى فرشاة الأسنان القديمة التي تُتخذ من غصن شجرةٍ معيّنة وتُستخدم في نظافة الأسنان منذ القدم فالمقصود من كلمة السواك في الحديث هو تنظيف الأسنان بالمعنى المطلق، وكما يتحقق هذا بالفرشاة المصنوعة من هذه الشجرة فكذلك يتحقق بِخِلَّةِ الأسنان أو بالفرشاة المعروفة في أيامنا، زيادة على ذلك فإن كانت هذه النظافة يُراعى فيها رضا الله تعالى ومرضاته فهذا يعني أننا قد فهمنا جدية أوامر الدين المتعلقة بالحياة الإنسانية.

(١٠٦) سنن ابن ماجه، الطهارة، ٧.

ب. دلالات أدعية الوضوء

لقد اعتبر بعض الفقهاء أدعية الوضوء من آدابه، والآداب جمع أدب، وتطلق الآداب على الأعمال التي تسهم في القيام بالأمر على أكمل وجه، ويستحسنها الشرع، ويترتب على الإتيان بها الثواب، ولا يتعلق بتركها الذنب، بمعنى أن الإنسان يؤجر على فعلها، ولا يعاقب بتركها.. والواقع أن أدعية الوضوء ليست كلها مروية عن رسول الله ﷺ، لكن يمكن القول إن جوهرها مأخوذ من بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إنها تلك الأدعية التي نطق بها السلف الصالح بعد أن أضافوا إليها وحذفوا منها، وعبروا عنها بعبارات مختلفة، ولكن لا ريب أن هذه التضرعات التي انسابت من أفواه هؤلاء الصالحين وعبرت عن عمق أفكارهم تأخذ من يقرؤها إلى أجواء مختلفة، وتملاً قلبه بأصدق الأحاسيس وتزيّن روحه بعشق العبادة والشوق إليها.

والعبد الصادق عندما يشرع في الوضوء يستعيد بالله من الشيطان الرجيم، ويبدأ باسم الله الرحمن الرحيم، وعندما يلامس الماء يتفكر في عظم نعمة الإسلام، ويشكر الله تعالى الذي جعل الإسلام منبعاً للنور، وجعل الماء وسيلة للتطهر من الأدران المعنوية والنجاسات المادية.

وعند المضمضة يقول: "اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ.. اللَّهُمَّ اسْقِنِي مِنْ حَوْضِ نَبِيِّكَ كَأْسًا لَا أَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا"، ويجيش قلبه أملاً في أن يأتي اليوم الذي يعبّ فيه من ماء الكوثر عبّاً.

وعند الاستنشاق يتمنى أن يشم رائحة الآخرة وهو ما زال في الدنيا، ويدعو الله أن يشم رائحة الجنة ويُرزق بنعيمها.

وعند غسل الوجه يرنو ببصره إلى ربوع الجنة مرةً أخرى قائلاً: "اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهِي بِنُورِكَ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ".

وبعد ذلك عند غسل الأعضاء أو مسحها يدعو قائلاً: "اللهم أعطني كتابي بيمينني وحاسبني حسابًا يسيرًا، اللهم حرّم شعري وبشري على النار وأظلني تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلك، اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم أجرني من النار، اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام"، وعندما ينتهي من وضوئه يقول: اللهم اجعل لي سعيًا مشكورًا، وذنبًا مغفورًا، وعملاً مقبولًا وتجارةً لن تبور"، ثم يدعو الله قائلاً: "اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ"^(١٠٧)، وما من إنسان يستحضر هذه المعاني في كلّ مراحل الوضوء إلا ويصل شيئًا فشيئًا إلى التركيز التام.

إسباغ الوضوء على المكاره

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟"، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ"^(١٠٨).

وقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم كلمة "إسباغ" للتعبير عن استيفاء متطلبات الوضوء، والعناية بالمضمضة والاستنشاق وغسل اليدين والمرفقين والوجه والرجلين، أما المقصود بقوله "على المكاره" فهو الإسراع إلى حوض الماء للوضوء دون اعتبار لبردٍ أو حرٍّ وما يصاحب ذلك من مشقة.

(١٠٧) سنن الترمذي، الطهارة، ٤١.

(١٠٨) صحيح مسلم، الطهارة، ٤١؛ سنن الترمذي، الطهارة، ٣٩.

وهذه المسألة (إسباغ الوضوء على المكاره) تذكّرني ببعض المصلّين في "أرضروم" الذين كانوا يتوجهون إلى الميضاة في الشتاء ليتوضؤوا بمياه كالثلج تنساب في حوضٍ قد أوشك هو الآخر على التجمّد.. ما زالت تتراءى أمام عيني أحوال هؤلاء الرجال، وإنها لتؤثر بعمق في نفس الإنسان، ما زلتُ أتذكّر امتزاج خريير الماء بتأوهات هؤلاء العباد الصادقين الذين ينساب الإيمان بالله من أحوالهم وتصرفاتهم، الأمر الذي يمهد لهم السبيل للارتقاء إلى ربهم.. لقد كانوا يشمرون عن سواعدهم، ويطؤون أطراف أكمامهم، وينطلقون إلى صنابير المياه من أجل الوضوء، كان الجوّ أيامها باردًا لدرجة أن الماء الذي يلامس أصابعهم يكاد أن يتجمد وهو في طريقه إلى أكواعهم.. وعندما تمتزج قسوة الجوّ مع برودة الماء تقشعر كل خلاياهم وهم ما زالوا يغسلون أيديهم.. فإذا انضمت الرجة الداخلية إلى هذه القشعريرة يتعالى صوت إلى السماء قائلاً: "اللَّهُمَّ أَعْطِنِي كِتَابِي بِمِينِي وَحَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا".

أجل، إن المؤمنين على وعي بأنهم يُمتحنون بمثل هذه الشدائد والمحن كما يُمتحنون بكلّ شيء، ولديهم قناعة تامة بإمكانية جبر القصور في بيان درجات العبودية؛ من خلال سعيهم إلى هذا التركيز واجتهادهم في التوجّه إلى الحقّ كلّية.. وبهذا الإيمان والقناعة يولون الوضوء اهتمامًا خاصًا، ويعتبرونه كالسنبله التي أنبت سبع سنابل في كلّ سنبله مائة حبة، فرغم أن وضوءًا واحدًا يُكتب ثوابه في دفتر أعمالهم فإنهم يتطلّعون إلى أضعاف مضاعفة من الثواب، ولا حرج، ف"ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ".

علاوة على ذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فُتِّحَ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، مِنْ أَيِّهَا شَاءَ دَخَلَ"^(١٠٩)، قد لا يتيسر لكل من يتوضأ الفوز بمثل هذا الثواب؛ لأن من المحال أن يستحضر كل مؤمن هذه الأفكار العميقة أو أن يستشعر الوضوء بكل أبعاده وهو متّجه إلى الصلاة، ولكن من المحتمل أن تفوز الأغلبية بمثل هذا الثواب في ظل الوضوء، فمن المؤكد أن هؤلاء المحظوظين الذين ستُفتح لهم أبواب الجنة سيتم اختيارهم من بين الذين يحسنون الوضوء.

وبسبب هذه المزايا التي تطرقت إليها آنفاً كان الرسول الأكرم ﷺ يتوضأ لكل صلاة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعتقدون أن مجيئهم يوم القيامة غراً محجلين طاهري الوجدان مثل ساكني الملا الأعلى منوطٌ بالصلاة وما يسبقها من استعدادات، وعاشوا على هذا الاعتقاد، فمثلاً كان سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه إذا توضأ يكاد أن يصل بغسله ليديه إلى كتفيه وقدميه إلى ركبتيه، وعندما سُئل عن ذلك، قال: يقول حبيبي رسول الله ﷺ: "إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ"^(١١٠)، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام: "تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُ يَتَلَبَّغُ الْوُضُوءَ"^(١١١).

(١٠٩) مسند الإمام أحمد، ١٩/١، ١٥٠/٤.

(١١٠) صحيح البخاري، الوضوء، ٣؛ صحيح مسلم، الطهارة، ٣٤-٣٧.

(١١١) صحيح البخاري، اللباس، ٩٠؛ صحيح مسلم، الطهارة، ٤٠.

وثمة حديث آخر يبشّرنا بأن النبي ﷺ يتعرّف على إخوانه في الآخرة من آثار السجود والوضوء، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمُقْبِرَةَ: فَقَالَ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْتُنَا إِخْوَانًا".

قَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ ﷺ: "بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ".

قَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ ﷺ: "أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ بَيْنَ ظَهْرِي خَيْلٍ ذُهُمٌ بِهِمْ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟"

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ ﷺ: "فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَيَّ

الْحَوْضِ" (١١٢).

وهكذا يعد الوضوء بالثواب العظيم في الدنيا والآخرة، غير أن هناك عقبات لا بد من اجتيازها للظفر بما وعدنا به الوضوء، وهذا أمرٌ يرتبط بإرادة الإنسان، بمعنى أن ما يقع على العباد في هذا السياق هو بذل الجهد والسعي طواعية للوصول إلى التركيز في العبادة، قد يكون الأمر صعبًا شديد الوطأة في البداية، وربما تكون الظروف غير مواتية، ومع ذلك يصبر الإنسان ويحتسب، لكن مع الوقت سيشعر بلذة غير عادية

(١١٢) صحيح مسلم، الطهارة، ٣٩؛ سنن النسائي، الطهارة، ١١٠.

حتى إنه سيعتبر الوضوء قرّة عينه، ولا يستطيع أن يستبدله بشيءٍ آخر، وبعد أن يشرع في الوضوء بقوله "بسم الله"، ويجتاز هذه العقبات بحلم وصبر، سيشعر بطعم ومذاق حتى إنه ليرجو ألا ينتهي ذلك التردد بين الوضوء والصلاة.

الإفراط والتفريط في العبادات

ويظهر عدم التوازن في مفهومنا العبودية في صورة تقصير العبد في أداء العبادات والطاعات أو الانصراف عنها تماماً؛ متعذراً ببعض الأعذار من قبيل الانشغال بالأمور الدنيوية أو ادعاء تشوّش داخلي، وأعذار أخرى.. فمثلاً غيرُ الجادّين في الأمور الدينية يدّعون أن الأساس هو طهارة القلب، ولا داعي لأداء العبادات، وفي مقابل هؤلاء هناك أناس يُظهرون حساسيةً تصل إلى درجة الإفراط إزاء العبادات، كالإسراف في استعمال الماء بحجة إسباغ الوضوء، أو مباشرة أمور غير مستساغة بحجة الاستبراء؛ وكلّها تصرفات لم ينصّ عليها النبي ﷺ أو السلف الصالح أو الفقهاء العظام.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الَّتِي فِي وَسْطِ الشَّهْرِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ حِينِ تَمْضِي عِشْرُونَ لَيْلَةً، وَيَسْتَقْبَلُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ يَرْجِعُ إِلَى مَسْكِنِهِ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ يُجَاوِرُ مَعَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ أَقَامَ فِي شَهْرٍ، جَاوَرَ فِيهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي كَانَ يَرْجِعُ فِيهَا، فَحَطَبَ النَّاسُ، فَأَمَرَهُمْ بِمَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: "إِنِّي كُنْتُ أُجَاوِرُ هَذِهِ الْعَشْرَ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أُجَاوِرَ هَذِهِ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ، فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَبْتَ فِي مُعْتَكَفِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَأَنْسَيْتُهَا، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فِي كُلِّ

وَتُرِّ، وَقَدْ رَأَيْتَنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ"، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه:
مُطْرَنَا لَيْلَةً إِحْدَى وَعَشْرِينَ، فَوَكَّفَ الْمَسْجِدُ فِي مُصَلَّى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم،
فَنظَرْتُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَنْصَرَفَ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَوَجْهُهُ مُبْتَلٌ طِينًا وَمَاءً^(١١٣).

لم يحمل النبي صلى الله عليه وسلم حصيماً معه من أجل الصلاة؛ لأن الأرض جعلت
له مسجداً، علاوةً على ذلك يرى بعض الفقهاء كراهة تجفيف الأعضاء
بعد الوضوء؛ وهذا يعني أنهم كانوا مشغولين بلبّ الأمر لا بظاهره؛
حيث إن الفيوضات التي تتجلى عليهم تأخذ حظها من الشفافية والرقّة
على قدر توجههم إلى ربهم بقلب صافٍ طاهر.

أجل، إن الذين ينشغلون إلى حدّ كبير بظاهر الأمر -فعلى الأرجح-
لا ينشغلون بلبّه بالقدر نفسه، ولا يدرون أن قلوبهم سيغشاها الصدأ
بمرور الأيام، وهنا يجب أن نعلم قطعاً أن الإنسان مهماً باشر من
أمور مستهجنة بحجّة الاستبراء، ومهما حكّ في جسده بحجّة أن يصل
الماء إلى كلّ الأعضاء فإذا كان يعيش ولا دراية له بعالمه الداخلي أو
بمضمون الأشياء التي يقوم بها فلا قيمة لما يفعله، وستلقى مساعيه في
وجهه في الآخرة.

إن الدين يسرٌ، والذين يتشدّدون في الدين هم الذين لم يفهموه بمعناه
الحقيقي، ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم المتنتّعين في الدين بقوله: "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ،
وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ"^(١١٤).

(١١٣) صحيح البخاري، فضل ليلة القدر، ٢؛ صحيح مسلم، الصيام، ٢١٣.

(١١٤) صحيح البخاري، الإيمان، ٢٩؛ سنن النسائي، الإيمان، ٢٨.

أجل، إن الدين أمرٌ قابل للمعايشة والتطبيق، وهو بعيدٌ كلَّ البعد عن التفریط؛ كترك العبادات والطاعات، بزعم أن المهم هو سلامة القلب، وعن الإفراط؛ كتجنب السجود على الأرض بدون سجادة الصلاة، والواقع أن عبودية الإنسان لربه تكون تبعاً لما يحمله في داخله من اشتياق وحماس، فيجب على الإنسان ألا يقوم بحركات مفتعلة تزيد من هيجانه، وإلا فسَد التوازن، لأن الإنسان مهما حاول الاشتغال بظاهر الأمر ولم يستطع أن يحقق التكامل بين داخله وخارجه؛ فلن يستفيد شيئاً؛ وعلى ذلك يجب ألا يأخذ الإنسان الكبر والغرور، وبدلاً من أن يضع جبهته على الأرض ويسحق غروره كالأنبياء فإنه يقلد الشيطان ويتمرد على السجود.

فحقّق التوازن، وضعّ جبينك على الأرض، واسجد حتى تتعفّر جبهتُك بالغبار والتراب، وأقبل بها على حضرة الله تعالى، عندها يُعينك الله.

لقد حقق الأنبياء بالعبادات كما هو في كل شيء توازناً عاماً في الحياة الاجتماعية؛ فإذا ما قمنا بعبادتنا على النحو الذي ارتأيناه فيهم وتعلمناه منهم أمكننا حينذاك أن نحافظ على استقامتنا.

جـ. نَعْم تَكْتَمِل بِالْوَضُوءِ

لقد زود الحق تعالى بدن الإنسان بآليات مذهلة، حتى إن الإمام الغزالي يقول إنه ليس هناك شيء أعجب من جسد الإنسان؛ حيث وضعت بجسد الإنسان موازين دقيقة وحساسة، حتى إنكم لو رغبتُم

في تغيير أحدها لأخفقتم وتسببتهم في فساد البدن بأكمله، فمثلاً يوجد في الجسد أنظمة للقلب والأوعية الدموية تعمل كمضخات الشفط والتفريغ، من أهم أدوارها جس النبض كل لحظة، وضخ الدم إلى كل أنحاء الجسم، وهذه الأنظمة هي التي تكسب الحيوية للجسم، وتظل طوال الحياة تنبض لاهجة بذكر الله دون علم ولا دراية منا، حتى إن الدراويش يقولون بأن نعمة "لا إله إلا الله" تتوافق مع نبضات القلب.

فبعد أن يبدأ الإنسان في قول "لا إله إلا الله" يشرع القلب هو الآخر في تتبع أثر هذه النعمة نابضاً بقول: "لا إله إلا الله، لا إله إلا الله"، ويضخ الدم الذي يُبقي الإنسان على قيد الحياة إلى أقصى المواضع بالجسم عن طريق الشعيرات الدموية، وهذه الشعيرات تشبه أنابيب المياه، فكما تتجبر الأنابيب وتسدّ مع مرور الوقت، فكذلك الشعيرات الدموية قد تتصلّب بفعل طبقات الدهن المتراكمة، ولا تصلح للعمل، أما عن أكثر الأعضاء تأثراً بهذا الوضع فهي الأعضاء الأبعد عن القلب مثل أطراف أصابع اليدين والرجلين وقمة الرأس، ولكي تحافظ هذه الأعضاء على سلامتها فلا بد أن تعمل الدورة الدموية في الجسم بشكل سليم، وماء الوضوء يساعد في هذا الأمر، حيث يحرك الشعيرات الدموية الموجودة في أبعد نقطة عن القلب، وهذا مهم للغاية من أجل عودة الدم المتسخ بيولوجياً إلى القلب وتطهيره وتنقيته من جديد في الرئتين، وهذه كلها نعم أمدنا الله تعالى بها، يقول الله تعالى في ختام الآية التي تأمر بالوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة المائدة: ٦/٥).

فإذا سئل: "ما هي النعمة المطلوب إكمالها"، قلنا: إن كل ما وهبه الله للإنسان نعمة، ولكن اكتمال هذه النعم قد تُرك لإرادة الإنسان من ناحية ما؛ لأن الخلق الأول جبري، فالله تعالى يخلق ويهدي ولا يسأل أحداً، ولكن دوام هذه النعم منوطٌ بإرادة الإنسان، فمثلاً أحدُ العوامل المهمة في الحفاظ على مرونة نُظْم الأوعية الدموية كما ذكر الأطباء اليوم هو غسلها بالماء الساخن حيناً والبارد حيناً آخر، فالماء الساخن يساعد على تفتح الأوردة، والبارد يعمل على تقليصها، ومن ثم فإن الإنسان عندما يتوضأ يكون قد أسهم بمحض إرادته في انكماش هذه الشرايين وانفتاحها مرة أخرى.

وكما يسهم الوضوء والغسل في آلية الدورة الدموية في الجسم فكذلك يعملان على تنشيط وتحفيز الجهاز اللمفاوي، وهذا الجهاز هو عنصرٌ مهمٌ في علاج الجروح وحماية الجسم من الفيروسات، وقد ذكرت معظم الكتب التي تتناول مسألة الإعجاز الطبي في أوامر الإسلام أن تنشيط الجهاز اللمفاوي لا يكون إلا بوضع الماء حول الأنف والرقبة، وبذلك يكون الله تعالى قد جعل الوضوء يقوم بهذه المهمة.

فثمة توازنٌ كهربائيٌّ ثابتٌ في جسم الإنسان بأكمله، وديمومة هذا التوازن الكهربائي مهمٌ جداً لصحة البدن، من هنا يجب الحفاظ على هذا التوازن في الجسد، لا سيما وأن ما نسميه اليوم بالاضطرابات النفسية تستبد بالبدن بنسبةٍ كبيرة، وتؤثر فيه، فمثلاً بعض الأمراض مثل قرحة المعدة هي نتيجةٌ ناشئةٌ عن مثل هذا التفاعل.

ولقد انتشرت وذاعت في أيامنا عديد من السلبيات التي تؤثر في روح الإنسان والتوازن الكهربائي فيه، فمثلاً الكيماويات والمواد الضارة بصحة الإنسان والمستخدمة في الهواء والملابس والحاويات؛ كلها عوامل تخلّ بالتوازن الكهربائي في جسد الإنسان وتدفعه إلى عدم التوازن، ولكن يأتي على رأس الأشياء التي تقضي على عدم التوازن هذا، وتساعد على ضبط كهرباء الجسم الماء والتراب.. وإن وضوء الإنسان خمس مرات في اليوم، أو تيممه في عدم وجود الماء ينظّم ويضبط كهرباء الجسم، ويطرّد الفائض إلى الخارج، ولذلك يلفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا الأمر، ويأمرنا بالوضوء عند كل صلاة، والاعتسَال عند الجنابة، والتيمم في عدم وجود الماء، كي يتم علينا نعمه ﷻ.

والحياة كذلك نعمة، ودوام هذه النعمة وسرمديتها مرتبطٌ باستغلالها في سبيل الفوز بالأبدية والخلود، وقد هياّ الله للإنسان هذه الفرصة، وأناط بإرادته فرصة أن يجعل من الحياة الفانية شمساً أبديةً، وفي هذا الإطار حرّم الإسلام -ولو بشكلٍ تدريجي- المواد التي تهدد صحة الإنسان.

أجل، الإسلام دين يسر، والله تعالى لا يريد العسر بعباده، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥/٢)، ولذلك لا يُقال: "لماذا يتوجب الوضوء حتى في أصعب الظروف؟"؛ لأن الله تعالى يريد أن يتم نعماءه علينا، والوضوء عامل مهم أيضاً في استدامة هذه النعم.

د. مراتب الطهارة في الصلاة

الصلاة عبادة عظيمة تنطوي على أربع مراتب للطهارة:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخبث والأنجاس، حيث يتم تنظيفنا بدايةً من الأوساخ الموجودة على ملابسنا والأشياء التي تلوّث أعضائنا..

الثانية: تطهير الجوارح عن الذنوب والآثام عن طريق الوضوء، فلا تنظر العين إلى حرام، ولا يتلفظ الفم بكلامٍ فاحشٍ، ولا تقوم اليدُ بعمل سيئ، ولا تخطو القدم في اتجاه الشر؛ وبذلك تتطهّر جميع الأعضاء عن المعاصي والآثام.

الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة، فضلاً عن الحرص على رضا الله تعالى.

أجل، إن الله تعالى يُقبل على عباده بما أمرهم به، وقد جعل ﷻ من إقبالهم عليه وسيلةً لتوجّههم إليه وإقباله عليهم، فيقول: "توجهوا إليّ وأقبلوا عليّ أُقبلُ عليكم"، بمعنى أن خضوع الإنسان وانكساره أمام ربه في الصلاة يكون مدعاةً لتوجّه نظر الله إليه، أما الذين لم تنقصم ظهورهم خضوعاً لربهم في الصلاة ولم يسجدوا له فيحرمون من هذا التوجّه والإقبال.

ويمكن أن نوضح المسألة أكثر من خلال المقارنة التالية: أيتبع "عبد الشمس" الشمس من تلقاء نفسه دون داعٍ أم لأنّ الشمس تطلّ عليه؟ لا شكّ أنه لو لا الشمس لما استطاع عبّادُ الشمس أن يلتفت بوجهه إليها،

وعلى ذلك فالأساس هو وجود الشمس المتوجّهة إليه، وهكذا الأمر بالنسبة للعبد، الأساس هو نظر شمس الأزل والأبد ﷺ إليه وإقباله عليه.. فلولا نظر الله إليه لوصل العبد إلى حالة حرجة؛ فلا يعرف طريق المسجد، ولا يعثر على سجادة الصلاة، ولا يتعرف على محرابه، وتقطع به السبل.. والحال أن الله تعالى هو الذي هدى الجميع شيوئاً وشبأً، وهو الذي أَرشدنا إلى طريق المسجد؛ وهذا يعني أنه ينظر إلينا بنظرنا إليه، ونظر إليه بنظره إلينا، فالتوجّه ينتج عنه توجّه آخر، يعبر عن هذا قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٥٢/٢)؛ بمعنى اذكروني في الرخاء اذكركم في الشدة، اذكروني في الدنيا اذكركم عند القبر والمحشر والصراط وعند تطاير شرر جهنم.

أجل، يجب على العبد أن يدور مثل الفراشة ويجدّ السير في البحث عن رضا الله حتى يجده ذات يوم، والصلاة تكفل هذا التوجّه، فالمؤمن حينما يستعدّ للصلاة يجدّد نفسه حتمًا بالوضوء، ويتخذ ماهيةً جديدةً، وبعد ذلك يركض إلى حضرته ﷺ، ويتوجّه إليه، عندها لا يرده الله تعالى صفر اليدين، بل يفتح له جميع الأبواب على مصراعها.

المرتبة الرابعة: تطهير السرِّ عما سوى الله تعالى وهو طهارة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم والصدّيقين، وهي تجرد القلب عما سوى الله تعالى، ونزع كلّ الأمور الدنيوية المشروعة عما سوى الله، ليكون مؤهلاً لتجلّيات الله تعالى على القلب.

وهذه هي الطهارة المرجوة من نبينا ﷺ وسائر الأنبياء، وهي النقطة الأخيرة التي بلغها هؤلاء الأنبياء في الطهارة، وبلوغ هذه المرتبة يتطلب الشروع فيها منذ البداية وتعقب الدور حتى النهاية، فمثلاً لا يتطهر القلب عما سوى الله إلا إذا تطهر وتجرد عن الأخلاق السيئة؛ لأن القلب لا يستطيع أن يقيم علاقة مع الله إلا إذا انسلخ عن الأخلاق السيئة وانخلع عن كل الأمور الدنيوية، وكذلك لا يضيء النور في القلب ما لم تتجرد الأعضاء عن الذنوب والخطايا، بعبارة أخرى لا تسطع جذوة الإيمان في قلب الإنسان إلا إذا باعدت الأعضاء الداخلية والخارجية بينها وبين الذنوب والمعاصي.

وهذا يعني أنه لا يمكن الانتقال إلى إحدى هذه المراتب دون بلوغ الأخرى بالترتيب كدرجات السلم تماماً، يرتقي الإنسان درجةً درجةً حتى يصل إلى النقطة المطلوبة، وفي النهاية يظفر برضا الله تعالى، ولقد راعى الأنبياء ﷺ هذه الموازنة، وارتقوا إلى هذا المقام؛ فمثلاً كان نبينا صلوات ربي وسلامه عليه يراعي الدقة البالغة في الوضوء والصلاة، ويستغفر الله مائة مرة في اليوم حتى يحقق طهارة القلب، وفي هذا الصدد يقول صلوات ربي وسلامه عليه: "إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً"^(١١٥)، وكثيراً ما كان يدعو الله قائلاً صباح مساء: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"^(١١٦).

(١١٥) صحيح مسلم، الذكر، ٤١؛ سنن الترمذي، تفسير السورة (٤٧)، ١.

(١١٦) سنن الترمذي، القدر، ٧، الدعوات ٨٩، ١٢٤.



(٢)

الأذان المحمدي

يمثل الأذان الدرجة الثانية بعد الوضوء في تحقيق التركيز في الصلاة، فبالوضوء ينطلق المؤمن للتخلص من الأهواء والأفكار الشيطانية، لكنه مع الأذان يتعمق وينشرح أكثر، وتهب نسائم الجنة العذبة على داخله، يقول رسول الله ﷺ: "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ"^(١١٧).

وهذا يعني أن الأذان دعوة مقدسة تفضي إلى انزعاج الشيطان والأرواح الشريرة، لذا فمن الأهمية بمكان الاستماع إلى الأذان بوعي وصدق من أجل التخلص من الشيطان والأرواح الخبيثة، وأداء الصلاة بخضوع وخشوع وتركيز، فلقد كان النبي ﷺ إذا حانت الصلاة لا يقول لبلال ﷺ: "أَذِّنْ يَا بِلَالُ"، بل يقول: "أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ"^(١١٨)، وكأنه يقول: "إن المشاغل الدنيوية قد أهتمتنا وأرهقتنا، فَضَبَّ مَاءً عَلَى دَاخِلِنَا، وَخَفَّفَ مِنَ الْأَحْمَالِ الَّتِي أَثْقَلَتْ كَاهِلِنَا؛ حَتَّى نَسْتَرِيحَ، وَنَتَطَهَّرَ مِنْ وَسَاوِسِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ".

قبل أن يُشرع الأذان أشاروا على النبي ﷺ بالضرب على الناقوس كالنصارى أو النفخ في البوق كاليهود؛ فلم يقبل النبي ﷺ هذا الرأي؛ لأنه طالما سيُدعى إلى الصلاة فلا بد أن تكون الدعوة بكلماتٍ تعبّر

(١١٧) صحيح البخاري، الأذان، ٤؛ صحيح مسلم، الصلاة، ١٩.

(١١٨) سنن أبي داود، الأدب، ٧٨؛ مسند الإمام أحمد، ٣٦٤/٥.



عن روح الصلاة وماهيتها الحقيقية، عندما يسمعها الإنسان يرتجف قلبه، ويدرك أنه سيُقبل على حضرة ربه العلي، فيجب أن تكون هذه الدعوة بكلمات مباركة يلهما الله تعالى، وليس بأية كلمات، وفي النهاية ألهمهم الحقُّ تعالى ألفاظ الأذان، فأضفى على الأذان جمالاً آخر، ومن ثمَّ اعتبر العلماء ألفاظ الأذان ركناً من أركانه، فكما أن تكبيرة الإحرام، والقيام والقراءة من أركان الصلاة، ولا يصح الأذان بدونها، فكذلك ألفاظ الأذان تُعدّ من أركانه، ولا تصح الصلاة دون وجود واحدٍ منها.

والتعبير عن الأذان بألفاظٍ مختلفةٍ يسري عليه نفس الحكم؛ لأن لفظة "الله أكبر" مثلاً تتبّه الوجدان إلى شيء ما، فهذه اللفظة لا تعني أن هناك أشياء أخرى والله أكبر منها، ولكنها تعني: "أن الكبير هو الله، ولا أحد سواه، فهو المعبود بالحق، المقصود بالاستحقاق، كل المشاكل المستعصية تُحلّ عند بابه هو لا غير، وكل ما لا يمكن التغلب عليه يُتغلب عليه بالرجوع إليه فقط، ولهذا فإن العبودية لا تكون إلا له ﷻ"، ويتم التعبير عن كل هذه المعاني مع كلمة "الله أكبر" ..

يؤكّد هذا الأمر شهادة المؤذن بوحدانية الله قائلاً: "أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، ثم شهادته بنبوة سيدنا محمد ﷺ بقوله: "أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ"؛ لأنه ﷺ هو الذي بلغ هذه الرسالة عن ربه.. ثم دعوته الناس إلى الصلاة بقوله: "حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ"، و"حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ"؛ لأن الفلاح لا يكون إلا عند باب من لا يوجد أكبر ولا أعظم منه، ويؤكد القرآن الكريم على أن الصلاة هي الوسيلة للفلاح والنجاح بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ (سورة المؤمنون: ٢٣-٢٤).

وبعد أن يصدح المؤذن في النهاية بجلال الله وعظمته قائلاً: "الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله" يشعر وكأنه لم يتشبع بعدُ تمامًا بهذا التعمق فيدعو قائلاً: "اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ"، ويزف النبي ﷺ البشرى لمن ردّد الأذان وأتبعه بهذا الدعاء بقوله: "مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْبَدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^(١١٩)، إن العبد بهذا الدعاء يسأل الله تعالى أن يجعل الصلاة التي يصلحها وسيلةً لشفاعة رسول الله ﷺ له، ولأن يبلغ ﷺ المقام المحمود؛ لأن في ذلك المقام لواء الحمد، ولا تستطيع الأمة المحمدية أن تلتف حول هذا اللواء المبارك إلا عند إحرازه ﷺ له.

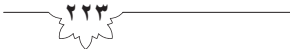
حاصل القول، الأذان له أهمية كبرى، ومن السنة أن يتفكّر كل فردٍ في معاني ألفاظه المباركة، وأن يردّها، بل إن السلف الصالح قالوا: إنه من الأفضل تجنّب فَرْطِ الحركة عند رفع الأذان، وترديد ألفاظ الأذان في سكون وحضور قلب؛ لأنه من الواجب الدمج بين الأذان والواردات السبحانية التي يأتي بها من أجل التركيز في الصلاة.

فرغم أن سادتنا أبا بكر وعمر وعثمان ؓ كانوا من كبار الصحابة فلم يكلف النبي ﷺ أحدهم برفع الأذان، علمًا بأن سيدنا أبا بكر ؓ كان شجيّ الصوت، وإذا قرأ القرآن أرغم من حوله على سماعه، وهذا يعني أن الأذان يتطلب صوتًا مختلفًا وأداءً آخر، ولهذا كلف النبي ﷺ أبا

(١١٩) صحيح البخاري، الأذان، تفسير السورة (١٧)، ١١؛ سنن الترمذي، الصلاة، ١٥٧.



محدورة، وابن أم مكتوم، وبلاّلاً ﷺ، وغيرهم بأدائه؛ إذ كان لا بدّ من
تزيينه بحلّة تتناسب مع حسنه وجماله، وليس بصوتٍ منقّرٍ يصمّ الأذان؛
وذلك حتى يشعر الناس بقوة ألفاظه وتأثيره من جهةٍ، ويدركوا جمال
أدائه وإجرائه، ويحقّقوا التركيز والاستعداد التامّ له من جهةٍ أخرى.





(٣)

النوافل

ثمة أمر مهم آخر يُسهّم في عملية التركيز في الصلاة وهو أداء النوافل التي تسبق الفروض، فصلاة النوافل تُعتبر وسيلةً لبلوغ القلب نوعاً آخر من الجيشان والطمأنينة.. بعبارةٍ أخرى، قبل أن تنفتح الأرواح بالفريضة على أبعاد القرب الإلهي، تحاط بواسطة النافلة بنسائم الرحمة الإلهية رويداً رويداً، وينضبط التركيز الذي تعمق بالوضوء والأذان مرةً أخرى، وهكذا يقطع الإنسان بهذه النوافل مسافةً أكبر، ويقترّب من ربه أكثر فأكثر.

وكما هو معلوم فإن النافلة تُطلق على ما سوى الفريضة والواجب، وبعض هذه النوافل تُصلّى تبعاً للصلوات الخمس المفروضة، وهي ركعتان قبل فرض الفجر، وأربع ركعات قبل فرض الظهر، اثنتان بعده، وركعتان بعد فرض المغرب، وأيضاً ركعتان بعد فرض العشاء.. فإذا أضفنا لهذه السنن سنة الجمعة سميت جميعها "السنن الرواتب"، والسنن الرواتب هي الصلوات التابعة للصلوات الخمس المفروضة، وقد ركّز النبي ﷺ على هذه الرواتب في العديد من أحاديثه الشريفة، وأسهب في الحديث عن أهميتها، فقال في أحد أحاديثه: "مَنْ تَابَرَ عَلَيَّ ثِنْتِي عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنْ السُّنَّةِ، بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ: أَرْبَعٌ قَبْلَ الظُّهْرِ،

وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ،
وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ" (١٢٠).

وفي حديثٍ آخرٍ يتكلم النبي ﷺ عن فضائل كل نافلة من هذه النوافل
على حدة، فيقول مثلاً عن نافلة الفجر: "رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا
فِيهَا" (١٢١).

ويمكن للجميع الظفرُ بهذا الأمر، ولكن أيفوز به كل من يصلي أم لا؟! هذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله؛ فلا بدّ للفوز من الأداء، ولكن يُشترط تصيّد اللحظة التي يمكن من خلالها الوصول إلى القرب والطمأنينة، فإنما نستفيد من أفضال الله بالطريق الذي دلّنا عليه الله، وبهذا الطريق أيضاً نحظى بالقرب والطمأنينة، ويُسمّى هذا الطريق بـ"الصرّاط المستقيم"؛ فهو الذي يوصلنا إلى كل هذا النعيم، ويحقّق لنا الخلاصّ والنجاة، ويرقى بقلوبنا وأرواحنا، ويجعلنا جديرين بالعوالم الأبدية، فمن سلك هذا الطريق والتزم بأدابه وضوابطه دون أن يقع في اليأس أو القنوط ينال ما يبتغيه عاجلاً أو آجلاً.. والواقع أنه ليس من اليسير التعايش مع كلّ آداب وضوابط هذا الطريق؛ فهو أمرٌ شاقٌّ للغاية، يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (سورة البقرة: ٤٥/٢).

وعن نافلة الظهر يقول النبي ﷺ: "مَنْ صَلَّى قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا وَبَعْدَهَا
أَرْبَعًا حَرَمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ" (١٢٢)، وقال عن نافلة العصر: "رَحِمَ اللهُ أُمَّرَأً

(١٢٠) سنن الترمذي، الصلاة، ٣٠٦؛ سنن ابن ماجه، الإقامة، ١٠٠.

(١٢١) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٩٦؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٣٠٧.

(١٢٢) سنن الترمذي، الصلاة، ٣١٧؛ سنن ابن ماجه، الإقامة، ١٠٨.

صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا" (١٢٣)، وعن نافلة المغرب يقول: "مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ كُتِبَتْ فِيهِ عِلِّيْنِ" (١٢٤).

وثمة نوافل أخرى غير ما ذكرنا مثل: التهجد والضحي والأوابين والتراويح والخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد والاستخارة والحاجة والتساييح.

(١٢٣) سنن الترمذي، الصلاة، ٣١٨؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٢٩٦.
(١٢٤) عبد الرزاق: المصنف، ٧٠/٣؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ١٦/٢.





(٤)

الإقامة

بعد انتهاء الإنسان من الوضوء والأذان والنوافل يصل إلى نهاية استعداده للصلاة مع الإقامة التي يصدح بها مؤذّن ذو صوتٍ شجيّ يتوجّه إلى الله تعالى بصدقٍ وإخلاص تامّين، وبالإقامة يحصل لدى العبد نوعٌ آخر من الجيشان.. واستطرادًا نقول: إذا كان صوتُ المؤذّن وصداه عند الإقامة يشكّل أساسًا لتعميق بُعد الخشية لدينا فهذا غاية ما ننشده، أمّا أن ينساق الشخص وراء نغمات الموسيقى فهذا ليس بمطلوبٍ ولا مقبول، وهذا المعيار يمكن الأخذ به عند الابتهالات والأناشيد والموالد النبوية، المهم هو أن يتجاوز الصوت الحناجر، وأن يثن داخل الإنسان ووجدانه مع هذا الصوت.. فالإقامة التي يأتي بها المؤذّن في إطار هذه الأسس ستكون سببًا في نجدتكم وجيشانكم مرّةً أخرى عند وقوفكم لصلاة الفرض أمام ربكم.

أجل، إن المؤذّن مع الإقامة يكرّر الأذان مرةً أخرى، ويضيف إليه تلك الجملة التنبهية "قد قامت الصلاة"، بعدها تبدأ الصلاة.. أما الفرض فهو كيفية وأداء يتكامل فيه العبد مع تجليات الحق ﷻ.



الفصل الرابع

شروط الصلاة
وأركانها



(١)

تمهيد

بقدر القيمة التي يحوزها الكلّ تكون قيمة الأجزاء التي تشكله أيضًا.. تخيلوا مثلاً أمةً أو مجتمعًا بلغ كل أفراده مستوى متقدّمًا عقلاً وقلبًا ومشاعر، فلا شك أن هذا المجتمع سيوصف بالراقي والتقدم؛ بمعنى أن كمال الكل منوطٌ بكمال أجزائه التي تشكله، والصلاة أيضًا كلّ متكامل؛ حتى إن كل فعلٍ من الأفعال التي نوّديها فيها بدايةً من مرحلة الطهارة التي تحمل ماهية الاستعداد حتى السلام من الصلاة؛ كلّ له قيمة لا تُقدّر بثمن في مكانه وساحته.. ولذا يجب أن يكون المؤمن على وعي ودراية بما يفعله من أجل الصلاة، وأن يغض بصره ويسدّ أذنيه عما سواها، ولا يسمح لأي شيء خارج الصلاة أن يلوّث خياله، بل يجب أن ينمحي في الصلاة ويصطبغ بها بكل أحواله وأطواره، وأن يُرى أثر تجليات الله عليه في قيامه وقعوده عند قوله: "سبحان الله".. وهذا ما نسميه الخشية والخضوع في الصلاة، ومثل هذه الحال تبعد الإنسان عن كل أنواع الغفلة والجهل واللوثيات، وتُفضي به إلى أن تكون صلاته صلاةً بالمعنى الحقيقي.

أجل، لكل عنصرٍ من العناصر التي تشكّل الصلاة حكمٌ خاصة به، فكل حركة من حركات الصلاة -بدايةً من تكبيرة الإحرام حتى السلام في النهاية- تشكّل جانبًا من جوانب الصلاة، ولها معانٍ خاصّة بها،

ولذا ينبغي أن تؤدَّى جميعها بحساسية ودقة بالغة، تخيلوا معي صلاة الجمباز: في هذه الصلاة يصدر المدرب أوامره للمتدربين بأن يفعلوا كذا وكذا، ويساعدهم في أن تكون الحركات التي يقومون بها موافقة للعبة؛ لأن هذه الحركات قد تتسبب في وقوع بعض الإصابات إن لم تُؤخذ توجيهاً على محمل الجد، ومن ثم فمن الضروري أن تتوافق هذه الحركات مع قوانين اللعبة.

ومن الخطأ أن نقيس الصلاة بلعبة الجمباز كليةً، لكن للصلاة أركاناً وأفعالاً وشروطاً يجب توافرها، وينبغي مراعاتها بدقة وعناية بالغة.. وقد قسّم علماؤنا العناصر التي لا غنى عنها للصلاة إلى قسمين: أركان الصلاة، وشروط الصلاة.. أركان الصلاة هي الأسس التي تشكّل الصلاة، ولا بد من الإتيان بها حتى تتحقّق الصلاة، أما شروط الصلاة فهي وإن لم تكن حركات وأفعالاً تشكّل الصلاة؛ فهي عبارة عن أمورٍ يُشترط وجودها حتى تكون الصلاة صلاةً بالمعنى الحقيقي، فما لا يتم الشيء إلا به فهو شرط، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. وفيما يلي سنتطرق إلى هذه الأمور بقدر المستطاع.



(٢)

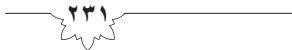
شروط الصلاة

أ. الطهارة من الحدث

الطهارة من الحدث باختصار هي كل ما يُتَطَهَّر به من النجاسات المعنوية (غير العينية)، كالوضوء والغسل، والتميم في حال تعذر الوضوء أو الغسل.. والحدثُ بشكلٍ عام نجاسةٌ حكميةٌ، والطهارة من الحدث تعني التطهر من هذه النجاسة الحكمية، ورغم أن هذه الطهارة تُحقّق بعض المنافع مثل إزالة النجاسة المادية والحفاظ على صحة البدن، فإنها في الأساس طهارة قائمة على العبادة، ورفع الحدث يعني الطهارة بالوضوء والغسل، فالجُبُّ لا يصلي دون غسل، فإذا لم يتوفر الماء لاغتساله أو لم تكن له القدرة على الغسل مع وجود الماء زال هذا الشرط بالتميم.

ب. الطهارة من النجاسة

الطهارة من النجاسة شرطٌ من شروط الصلاة، ومعناها بإيجاز التطهر من النجاسات العينية، أي أن يقوم الشخص الذي ينوي الصلاة بتطهير جسده وملبسه والمكان الذي يصلي فيه مما يعده الدين من النجاسات مثل دم الإنسان، وبوله، وروث الحيوانات... إلخ.



جـ. ستر العورة

الإنسان عبدٌ مكرَّمٌ عند الله، خلقه الله في أحسن تقويم، وأرسل له أنبياءه، وأنزل عليه كتبه حتى يعيش حياة عزيزة كريمة، من أجل ذلك لا يجوز للإنسان أن يعيش كالحيوانات.. أما الذين يودون أن يعيشوا على هذه الشاكلة فقد قال الله عنهم: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩/٧).

ومن بين سبلِ حفاظ الإنسان على عزّته وكرامته التستّر.. فالحيوانات تسترّ بلباسها الفطري الذي منحه الله لها، أما الإنسان فليس كذلك، فلا أحد يستغرب تجرّد الحيوانات من لباسها، أما تعري الإنسان فهو أمرٌ تأنفه النفوس البريئة.

ولقد أمر الحق تعالى الإنسان بالتستّر حتى يمكنه أن يعيش حياته بشكلٍ إنساني، وكما أن التستّر يجعل الإنسان كريماً عند الله فكذلك يجعله كريماً وعزيزاً بين جميع الأحياء، فإذا كان سترُ العورة أمام الآخرين من الفرائض، فكذلك التستّر هو أحد شروط بعض العبادات مثل الصلاة والطواف؛ لأن نبينا ﷺ يقول: "لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ حَائِضٌ إِلَّا بِخِمَارٍ" (١٢٥). ويفهم من هذا الحديث وأمثاله أن الصلاة لا تصح إلا بستر مواضع العورة.

وإلى جانب ستر العورة فمن السنة أن يلبس الإنسان عند الصلاة أحسن ثيابه وأطيبها دون إسراف، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (سورة الأعراف: ٣١/٧)، وقد بين العديد من



المفسرين وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في حق أناس من الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عرايا، كما أن فيها أمراً بستر العورة أثناء أداء بعض العبادات كالصلاة والطواف حول الكعبة^(١٢٦).

د. استقبال القبلة

وبعد أن يتم المؤمن كل استعداداته من أجل الصلاة يتجه إلى القبلة؛ لأنه مأمور بالتوجه إليها في كل صلواته إلا إذا حدث ما يحول دون ذلك، وهذا ثابت بقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (سورة البقرة: ١٥٠/٢)؛ لأن الكعبة هي بيت الله العتيق الذي شيد من أجل مرضاة الله ليس إلا، وكل المساجد الأخرى على الأرض ما هي إلا أبنية تتوجه إليه وتقصده، ولقد عهد الحق ﷻ إلى سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل رضي الله عنهما ببناء هذا البيت ووضع قواعده، حتى يكون قبلة المؤمنين على الأرض إلى قيام الساعة، ويكون كذلك مطافاً للملائكة من مركز الأرض حتى سدرة المنتهى، وفي هذا يقول ربنا ﷻ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (سورة البقرة: ١٢٥/٢)، ولهذا كان للكعبة مكانة وأهمية خاصة عند المسلمين.. ولقد ورد أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في جدار المسجد، فتناول حصاة فحكها، فقال: "إِذَا تَنَحَّمْ أَحَدُكُمْ فَلَا يَتَنَحَّمَنَّ قَبْلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَبْصُرْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى" ^(١٢٧).

(١٢٦) انظر: صحيح مسلم، التفسير، ٢٥؛ سنن النسائي، المناسك، ١٦١.

(١٢٧) صحيح البخاري، الصلاة، ٣٤، ٣٦؛ صحيح مسلم، المساجد، ٥٢، ٥٤.

إن المؤمن بتوجّبه إلى الكعبة يتصوّر نفسه وكأنه قد أفرغ كلّ ما في داخله من سيئات أمام حضرة الله تعالى، ويبيكي إذا ما رأى هذه الذنوب أمامه، بل يذهب بتفكيره إلى أبعد من ذلك فيتخيّل نفسه وقد رحل إلى الآخرة، ووقف للحساب، والصلاة التي يتخلّلها هذا التفكير والتصور هي صلاة الخواص؛ وهي حالة تُغشى فيها الأبصار، وتُصمّ فيها الآذان، ويوشك القلب على التوقف، ويتوجّه الوجود كله بانفعالٍ خفيّ صامت إلى الله؛ بمعنى أن العبد يمحو نفسه كليّةً، فلا يبقى إلا الله ﷻ، فإذا قال العبد: "لا إله إلا الله" شعر بهذا التوحيد من أعماق قلبه، من أجل ذلك كان العديد من الصالحين إذا ما وضعوا أيديهم على آذانهم أخذوا يتلوون من أجل أن يظفروا بهذا التكامل القلبي.

والحاصل أن المؤمن عندما يصلي يتخيّل أن الكعبة أمامه؛ مطاف الملائكة من مركز الأرض حتى سدرة المنتهى، ويتصوّر أنه مائل في حضرة الله بين جماعةٍ مباركةٍ من المصلّين، فيقول: "اللهم إنني عندما أرنو ببصري إلى الكعبة أجد نفسي واقفاً بين جماعة؛ فيها أناس مثلي، ومخلوقاتٌ ضعيفةٌ بائسةٌ، وأنبياء، وملائكةٌ لا يفترون عن العبادة والسجود، وأنا بين هذه الجماعة المؤمنة أتوجّه إلى القبلة وأؤدّي وظيفتي"، ثم يدخل في الصلاة محمّلاً بهذه المشاعر.

هـ. الوقت

من شروط الصلاة الوقت؛ أي أداء كلّ صلاةٍ في وقتٍ معلوم، فالصلاة فرضٌ يجب أدائه في وقتٍ معيّنٍ من اليوم، ولذلك كان الوقت شرطاً من شروط الصلاة المفروضة، فكما لا يجوز أداء الصلاة قبل دخول

الوقت فلا يجوز أيضًا أداؤها بعد خروجه، وإذا كان من الخطأ تأخير الصلاة عن وقتها بدون عذر أو تأخيرها لأدائها في وقت لاحق فكذلك يصبح العبد مذنبًا إذا أخر صلاته لأدائها قضاءً فيما بعد.

و. النية

إن المؤمن إذا أتم طهارته الداخلية والخارجية استعدادًا للصلاة ومثل أمام الله بقلبه فهذا يعني أنه يعرف جيدًا المقام الذي هو فيه وما يجب عليه أن يفعله فيه؛ وهذا ينطوي في الوقت ذاته على معنى النية؛ لأن النية هي قصد القلب، وليست مجرد التلفظ باللسان، بها يتوجه القلب إلى الله، ويُمحى منه ما سواه، فإذا حصل هذا في الداخل فلا فرق حينذاك بين أن يتلفظ اللسان بالنية أو ألا يتلفظ.. فليست النية بالقول فقط، وإنما هي بأن يمحى الإنسان كل ما سوى الله من قلبه، وأن يفكر ويعي الواجب الذي يقوم به أمام الله، ومهما تلفظ الإنسان بنيته فلا يُعد أنه شرع في الصلاة طالما لم يظفر بهذا التوجه القلبي إلى ربه، فما فعله هو عبارة عن قيام وقعود ليس إلا.. ولذلك كان العلماء مثل الإمام الرباني يمتنعون التلفظ بالنية^(١٢٨)، ولكننا مع ذلك لا نمنع التلفظ بالنية ونجيزه بناءً على قول بعض الفقهاء.

ونية كل شخص تكون على قدر صلته مع الله تعالى، ولهذا تختلف النوايا تبعًا لاختلاف الأشخاص، فالمرتبة الأولى للنية هي أن يستحضر العبد بعقله وقلبه أنه سيشرع في الصلاة؛ وهذه نية العوام أصحاب الإيمان التقليدي والنظرة السطحية للإسلام، أما نية الخواص فتعني

(١٢٨) الإمام الرباني: المكتوبات، المكتوب ١٨٦، ١/١٦٠.

حرص الإنسان على العمل الذي يقوم به، وحصر نفسه عليه، وتوجيه كل أفكاره ومشاعره إليه، أما نية خواص الخواص فهي تطهير القلب عما سوى الله تعالى مع المحافظة على هذه الحال أثناء الصلاة، فإذا كان المقصود هو الله ﷻ، فلا مقصودين في نية واحدة؛ أي إن الإنسان إذا كان يود أن يجعل الله مقصوده وهدفه فحسب فعليه أن ينزع من قلبه وعقله كل مقصودٍ سواه نسيباً كان أو حقيقياً، فإن تبادرت إلى الذهن أي ملاحظة في تلك الأثناء فعلى أصحاب هذا المستوى أن يعودوا ويبدلوا وسعهم لتخلية قلوبهم عما سواه ﷻ، وتبدو تلك الحال واضحةً للغاية عند الأستاذ النورسي رحمه الله وطلابه الأولين، ولكن لا ينبغي أن تنحصر هذه المهمة على الشكل والمظهر، وإلا فلا فائدة.

أما أعلى مراتب النية فهي المرتبة التي ينسى فيها العبد نفسه كليةً، وهي ما يقال عنها الفناء في الله والبقاء بالله. أجل، إن نية الذين اجتازوا دائرة الأسماء والصفات وذابوا أمام سبحات وجهه ﷻ تتحقق عندما لا يرون أنفسهم في مثل هذا الأفق ولا يشعرون حتى ولا يحسون بذلك.. والذين يشاركونهم هذا الأفق يعتبرون أن الإنسان لو أحس بنفسه في الصلاة فهذا يعني أنه مشغول بما سواه ﷻ، وهؤلاء انطلاقاً من مستواهم يتوجسون خيفة أن تدخل هذه الحال ضمن دائرة الشرك..

والحاصل أن للنية أبعاداً ودرجاتٍ ومراتب، فمن عرف الله بهذا القدر وحاز هذا الأفق من المعرفة؛ إذا شرع في الصلاة يقيم علاقته القلبية مع ربه وفقاً لهذا الأفق، ويقف للصلاة تبعاً لذلك.

النية روح العمل

يقول بديع الزمان سعيد النورسي* تعليقاً على قول الله تعالى: ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (سورة الحُجُرَات: ١٢/٤٩): "إن الهمزة الموجودة في البداية للاستفهام الإنكاري حيث يسري حكمها ويسيل كالماء إلى جميع كلمات الآية"^(١٢٩).. ولعلها نور هذه الكلمات وروحها، وهكذا النية تماماً، وكأن المؤمن يُعلن أو يجب عليه أن يشعر في كل أركان الصلاة أنه متوجّه بنيته إلى الله؛ المقصود الحقيقي والمحسوب الحقيقي والمعبود الحقيقي، وأن يتسم كل ما يقرؤه في الصلاة بالإخلاص في النية، وخاصة في النافلة التي يصلّيها منفرداً، فالأجدر أن يُراعي هذا الأمر وإن كلفه فوق طاقته.. غير أنه ليس من الصواب سلوك مثل هذا الصنيع في صلوات الجماعة؛ لأن في هذا تشديداً في الدين، ولكن لا حرج في الحرص على هذه النية والسعي إليها في صلوات النافلة التي يصلّيها العبد منفرداً حتى تكون هذه المسألة مرتبطة بقدر الإمكان بفكرة المثل بين يدي الله تعالى.

إن الصلاة هي معراج المؤمن، وعندما تكلم الحق ﷺ عن المعراج قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: ١/١٧)، وفي مرجع الضمير هنا قولان؛ أحدهما أن الضمير يرجع إلى ربنا ﷻ، فالله ﷻ هو السميع لما لطف ودقّ، البصير لما خفي وغاب، أما الوجه الثاني فينسب صفتي السمع والبصر إلى الرسول ﷺ، على اعتبار أن هاتين الصفتين تعبران عن حال الرسول الأكرم ﷺ، ووصف الرسول الكريم ﷺ بهاتين الصفتين

(١٢٩) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون، ص ٣٣٦.

اللتين هما في الواقع من أسماء الله الحسنى هو أمر يسترعي الانتباه إلى حقيقة مفادها: أن النبي ﷺ قد استشعر بعمق كل ما وقع عليه بصره أو ترامى إلى سمعه أثناء المعراج؛ بمعنى أنه ﷺ قد نهل من معين المعراج جيداً حتى ارتوى، ولم يضيّع دقيقة ولا ثانية ولا لحظة فيه، وكأن كل ما وقع له من بداية الأمر إلى نهايته قد مرّ بمصفاة شعوره، وبهذا المضمون يقول الشيخ محمد لطفي أفندي*:

الصلاة تسيرُ سفينة الدين

وهي رأس العبادات جميعاً

ويقول الشاعر سليمان شلبي: "جُعِلَت الصلاة معراج الأمة" (١٣٠)، وبما أن الصلاة هي معراج المؤمن فينبغي للمؤمن أن يتحكّم في سمعه وبصره فيها، فلا يرى إلا ما لا بد أن يراه، ولا يسمع إلا ما لا بد أن يسمع، وفي هذا يقول الأستاذ النورسي (رحمته الله) نقلاً عن مولانا الجامي* (ت: ١٤٩٢م):

اقصد الواحد، فسواه ليس جديراً بالقصد

ادعُ الواحد، فما عداه لا يستجيب دعاء

اطلبُ الواحد، فغيره ليس أهلاً للطلب

شاهد الواحد، فالآخرون لا يشاهدون دائماً، بل يغيبون وراء ستار الزوال

اعرفِ الواحد، فما لا يوصل إلى معرفته لا طائل من ورائه

اذكُر الواحد، فما لا يدلّ عليه من أقوال وأذكار هراء لا يغني المرء شيئاً (١٣١)

(١٣٠) سليمان شلبي: المولد (وسيلة النجاة)، ص ١١٨.

(١٣١) ملا جامي: يوسف وزليخا، النجوم السبعة، ٢/٢٢.

وعلى ذلك يجب على المؤمن ألا يرى إلا الواحد، ولا يعرف إلا الواحد، ولا يسمع إلا الواحد، ولا ينشد إلا الواحد، ولا يدعو إلا الواحد، ولا يشعر إلا بالواحد، وينقطع عما سوى الواحد، ويشعر بهذا كله في كل أركان الصلاة، فإن استشعره وأدركه فينبغي له أن يقول: "لا يُدرَك الأمر هكذا، يجب أن يصل إدراكي لهذا الأمر إلى الحد الذي يجعلني أنسى نفسي، وأغيب عن وعيي، وأنسى أوجود أنا أم لا؟". أجل، يجب أن يغيب عن وعيه إلى هذا القدر.

جهد مستميت

أكرّر مرّة أخرى بأن هذا كله تابع للمستوى، فلا سبيل إلى بلوغ هذه المستويات دون تدريب وإجهاد للنفس؛ بمعنى أنه لا عبرة للتكليف في النهاية ما لم يكن هناك تكلف في البداية؛ ولهذا ينبغي لكل من يطمح إلى بلوغ هذه المستويات أن يجهد نفسه جهداً مستميتاً، وفي هذا المعنى يقول الجنيد البغدادي رحمته الله ما معناه: "أجهدت نفسي ستين عاماً، بعدها من الله عليّ وشرعت في الصلاة"، وبناءً على ذلك فيجب على من لا يتذوّقون حلاوة الصلاة الحقيقية من أمثالنا أن يحملوا أنفسهم على إقامة مثل هذه الصلاة خمس أو عشر سنوات على الأقل.

وفي هذا الصدد لا يحسبن أحد اعتماداً على ما ذكرناه آنفاً أن الله تعالى لم يقبل أو لن يقبل الصلوات التي شابها نوعٌ من القصور حين أدائها، فأملنا في الله تعالى صاحب الرحمة الواسعة واللفظ العميم أن يتقبّل منا هذه الصلوات، ويجعلها وسيلةً لنا إلى الجنة، ورفيقاً لنا في البرزخ، وبراقاً لنا على الصراط، وبرقاً يضيء لنا الآفاق.. ومن ثمّ يجب

ألا نتهاون في أداء الصلاة، ولا نستخفّ بها ألبتة، وأن نعمل من جانب آخر على أن نعلي من هممتنا على الدوام، وأن نجعل عبادتنا التي نتوجه بها لربنا ﷻ تتناسب طردياً مع عظمته ﷻ، بل يجب أن تحمل عبادتنا معنى الشكر لله ﷻ على أطفاه ونعمه التي لا حصر لها، لذا يجب على المؤمن أن يحاول دائماً العثور على الصلاة الحقيقية مدى الحياة.

المهم في النية أيضاً هو الحفاظ على حيويتها وفعاليتها في كل أجزاء العبادة وأركانها، فيجب أن يلمس المؤمن بوجدانه النية التي بدأها بتركيز تام في كل أركان الصلاة؛ أي القصد المطلق والتوجه المطلق والنظر المطلق، ويتمرد على كل ما سوى ذلك. أجل، إن المؤمن في الصلاة يشعر بالضجر والضييق من كل فكرة أو ملاحظة لا تتصل به ﷻ، ويعبر عن ضجره هذا من خلال ردّ الفعل الذي يديه عالمه الداخلي؛ فمثلاً إن لم يشعر المؤمن بوجدانه بتجليات رحمة ربه ﷻ عليه وإحاطتها بكل شيء عندما يقول: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فعليه أن يوبّخ نفسه ويؤتّبها داخلياً.

وهذه أمور يمكن تحقيقها؛ لأن كل هذا قد عاشه الآلاف والملايين من الناس، وعلى نفس الشاكلة هناك آلاف وملايين مرشّحون لمعايشته، فمن طلب وجدّ وجدّ، وبالمفهوم المخالف: من لم يجد فهذا يعني أنه لم يطلب ولم يجدّ.



(٣)

مع أركان الصلاة

أ. تكبيرة الإحرام

إن محاولة العبد أن يبتّ روح التكامل والاطمئنان في قلبه، وأن يتجاوز الأبعاد التي يعيش فيها إلى عالم آخر مختلف، وأن يقول "الله أكبر" بخشوعٍ مَنْ يوقن أنها آخر تكبيرةٍ له قبل الموت؛ كلّ هذا يشكّل بدايةً للدخول في الصلاة.

ولو تمعّنّا في السمات المشتركة بين الزعماء والقادة الذين يتوجه إليهم الناس بالطاعة والخضوع المطلق ويذهب بهم الأمر أحياناً إلى التقديس والتأليه فسنجد أنها تتمثل في العظمة والكبر والرفعة، ولذلك فإن المؤمن حينما يبدأ صلاته بالتكبير فإنه يعلن أنه لا يعترف بقوة سوى قوة الله ﷻ الذي قهر جميع الجبارين والمتكبرين وأذلّهم وأهانهم واستأصل شأفتهم، وعلى ذلك يطرح المؤمن كل ما يحول بينه وبين ربه جانباً، ويوجّه نظره إلى العالم اللاهوتي، مترقباً ما يأتيه من فيوضات هذا العالم، ويوجّه سيدنا رسول الله ﷺ الأنظار إلى هذا الأمر بقوله: "مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ" (١٣٢)، وفي حديث

(١٣٢) سنن الترمذي، الطهارة، ٣، الصلاة، ١٧٦؛ سنن أبي داود، الطهارة، ٣٠، الصلاة، ٧٤.

آخر يقول: "إِنَّهَا لَا تَتِمُّ صَلَاةٌ لِأَحَدٍ حَتَّى يُسْبِغَ الوُضُوءَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى" (١٣٣)، من أجل ذلك جعل الإسلام دخول الصلاة بالتكبير فرضاً.

ب. القيام

إن المؤمن بمثوله بين يدي ربه ﷻ ووقوفه عاقداً يديه أمامه يتذكر أنه المخلوق الأول الذي يعلن عن وجوده وهو واقف على رجليه، فبينما تزحف بعض المخلوقات على الأرض، ويمشي بعضها على أربع نجد الحق ﷻ يمشي على الإنسان بالسير والوقوف منتصباً على قدميه مثل "أ"، وإذا كان بمقدور الحيوانات الزاحفة التي تدبّ على الأرض أن تسير على رجلين فلم تزحف على الأرض؟! إنها تفعل ذلك تبعاً للقوانين الجبرية للشريعة الفطرية نظراً لأنها لم تحظ بالنعم التي أكرم الله الإنسان بها، ولذلك فمهما حاول الإنسان حصر نعم الله عليه فلا يستطيع، ومهما حاول شكر هذه النعم فهو قليل.. لقد خلقه الله في أحسن تقويم ظاهراً وباطناً، ولم يخلقه جماداً، ولم يحرمه من الشعور بين الأحياء، وأعطاه العقل والإرادة بين ذوي الشعور.. أما بالنسبة للمؤمن فصرفه الله عن أن يكون بين جماعة الكافرين، ليس هذا فقط، بل صفاه وطهره، ورفعته إلى مرتبة الإنسانية، ومنها إلى مرتبة الإيمانية، وكأن المؤمن عند كلّ تكاملٍ ورقّيٍّ له يضع نعمة في السلة التي يحملها فوق ظهره، وعند قيامه يتذكر تلك النعم الموجودة في سلته، ويتصوّر نفسه واقفاً بين يدي الله للحساب، ومخاطباً بأمر: "ادفع ثمن الأنفاس التي كنت تستنشقها طوال حياتك".

جـ. القراءة

بعد أن يقول العبد "الله أكبر"، معلناً ومعترفاً بعظمة الله تعالى وكبريائه يستعيز بالله من الشيطان الرجيم، مراعيًا أهمية الصلاة التي يؤدّيها والقراءة التي سيتلوها؛ مع رغبته في ألا يكون للشيطان حظٌّ من الاثنين.. والاستعاذة (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) في البداية تعني اعتراف العبد بعجزه أمام ربه.. بعد الاستعاذة يأخذ العبد في البسملة التي تشير إلى ضرورة أن يبدأ العبد كلَّ عمل وكل شيء بِ"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، وبعد أن يعترف بعجزه في الصلاة يتوجّه إلى الله ﷻ بقلب منكسر، ويقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكأنه يقول: "اللهم إنك وهبتي أعضاء جسدي، وأنعمت عليّ بتشغيلها وإدارتها، وخصّصتني بالخلايا التي هي أصغر المخلوقات، وشكّلت جسدي، والآن غدا كلُّ عضوٍ من أعضائي فرداً بمفرده يعلن عن عبوديته لك حسب مستواه، أما أنا فأعلن عن عبوديتي لك بكلماتي، وأعلن عن امتناني وشكري إليك بعدد الأعضاء التي أعطيتني القدرة على تحريكها أثناء الصلاة".

ثم يقول: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، أي: "الذي عرض هذا الكون أمام ناظريّ وكأنه كتاب كبير رغم فقري وعجزتي، ومنحني الإرادة على قراءته، وألهم قلبي الإيمان بالشعاعات التي أمدني بها هذا الكتاب، فمكّنتني بذلك من الوصول إلى أسرار الكون، والقرب من ساحل الأسماء الإلهية، ودراسة أحوال الصفات السبحانية وكيفياتها، والتفكير في ذاته العلية".

ثم يوضح سبب أهليته ﷻ للحمد والثناء فيقول: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وكأنه يقَرّ ويعترف بأن الله ﷻ هو خالق هذا الكون العظيم، وهو الذي زوّد

المخلوقات بشتى صنوف النعم الظاهرة والباطنة، الدنيوية والأخروية، وأنه ﷺ الحاكم المطلق الوحيد يوم القيامة الذي يُحاسب فيه الجميع على أعمالهم فيثابون أو يُعاقبون.

وبعد ذلك يُعلن العبد عن أنه لا يؤدّي العبودية إلا لمن حاز هذه الأوصاف ﷺ، وأنه يستعين بحول الله وقوته لاستخدام أعضائه في تحقيق هذه العبودية، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم يرتفع إلى مقام يستطيع من خلاله -باسم المعرفة الإلهية- أن يخاطب ربه بقوله "إياك"؛ لأنه لا يستطيع القيام بمهام العبودية إلا بهذه المعونة، بعدها يبدو وكأنه مُنح فرصة وصلاحية في هذا المقام، فلا يضيّع الوقت ويطلب الهداية لعينيه وأذنيه ويديه ورجليه إلى الطريق المستقيم، ويقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، لأن كل هذه الأعضاء معرّضة للانحراف والضلال.

لقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة ؓ: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّيْنِ" (١٣٤). أجل، فالعين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها سماع الفحش والمنكرات، والفم يزني وزناه التلفّظ بالفحش من القول، والرجل تزني وزناها السير إلى المنكر.. فكل هذه الطرق -كما لاحظنا- طرقٌ معوجة، إلا أن ربنا ﷺ يشمل عباده بعنايته ورحمته، حتى يكون لهم عينهم التي يبصرون بها، ويدهم التي يبطشون بها، وأذنه التي يسمعون بها، ولسانهم الذي ينطقون به، ويحول بينهم وبين السير نحو الخطأ، أو اقترافه، أو النظر إلى ما هو خطأ، أو التلفّظ به.

وحينما يشرع العبد في القراءة بعد التكبير في الصلاة يبدو وكأنه يتكلم مع ربه ﷻ، ويشير إلى هذه الحقيقة قولُ ربنا ﷻ في الحديث القدسي الجليل: "قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَدَّنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ" (١٣٥).

أجل، إن سورة الفاتحة هي تعبيرٌ عن جيشان الضمير الإنساني، فحينما يتلو العبد هذه السورة في الصلاة يصير من جهةٍ ترجماناً لجميع الضمائر، ويدخل ضمن هذه الجماعة المستقيمة، ويشعر من ناحية أخرى وكأن يد القدرة تُرَبَّت على ظهره، وحينما يقرأ ما تيسر له من القرآن بعد الفاتحة فإنه يتجول في محافل متنوعة، ويقع بصره على مشاهد مختلفة، وأحياناً يسلبه الوجد فيغيب عن وعيه، وأحياناً يبكي ويتحسّر، وأحياناً أخرى يشعر في داخله بالهم والحزن، فإذا ما أحس أنه لا طاقة له على مواصلة القراءة بادر إلى الركوع على الفور.

ولقد كان النبي صلوات ربي وسلامه عليه يُطيل القراءة غالباً في الصلاة، وفي هذا الصدد يحكي سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ قائلاً:

(١٣٥) صحيح مسلم، الصلاة، ٣٨؛ سنن الترمذي، التفسير، ٢.

"صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَطَالَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ"، قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: "هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعَهُ"^(١٣٦).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَأَفْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَزْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَزْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النَّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: "سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ"، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: "سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ"، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: "سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى"، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ"^(١٣٧).

أجل، كان النبي ﷺ يقتنص أي فرصة في الصلاة ويأخذ في الدعاء والمناجاة، قد لا يتأتى لنا فعل ذلك في صلاة الجماعة، ولكن ربما تواتينا هذه الفرصة في صلاة النافلة التي نصليها منفردين، حينها نستطيع أن نقبل على ربنا ونبته شكوانا، وأعتقد أن مثل هذه الشكوى ستكون وسيلة في تضييد جروحنا وغفران ذنوبنا وانشراح صدورنا.. لكن في الواقع هناك بؤساء لا يفعلون ذلك ألبتة، ويظلون على غفلتهم رغم اعتقادهم أنهم يحسنون الصلاة، فهو لاء لا يعلمون ما معنى التوجه كليتة إلى الله ﷻ، وما معنى الشعور بالنشوة في حضرته؛ لأن الصلاة بالنسبة لهم عبارة عن قوالب جافة، وعبء لا بد من التخلص منه.. أما المؤمن الحقيقي فحينما يذهب إلى الصلاة يذهب إليها -ولا مشاحة

(١٣٦) صحيح البخاري، التهجد، ٩؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٤.

(١٣٧) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ مسند الإمام أحمد، ٣٨٤/٥.

في التمثيل - وكأنه ذاهب لتناول طعام يشتهيهِ، بل يشعر بمتعةٍ وانسراحٍ داخلي وكأنه ذاهب إلى الجنة.. ويستغل كلَّ منفذ يتخلل الصلاة حتى يحقق لقاءه بالله على الفور، ويعقد صلةً قويةً بينه وبين ربه ﷻ.. ندعو الله أن يُشعرنا هذه المعاني! وإلا ما استطعنا أن نتخلص من الغفلة التي تجثم على صدورنا، أو أن نطرد عن أنفسنا الدعة والخمول، بل وسننسى حتى وإن كنا في الصلاة كم ركعة صلينا، ولن نعي ما نقوله فيها.

د. الركوع

عندما يقف المؤمن في الحضرة الإلهية ليحاسب على النعم التي ينوء بها ظهره يواجه بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (سورة البالد: ٨٠/٨١-١٢)؛ أي: "أمددناك بكل صنوف النعم، وهديناك إلى الطريق القويم، ومع ذلك لم تفق من غفلتك، ولم تبذل ما عليك بذله، وبالتالي لم تسلك طريق ربك، والآن ستحاسب على هذا كله"، عندها يبدو المؤمن وكأنه لا يقوى على الوقوف على رجليه، فيشرع في الركوع مباشرة، ويقرّ بعظمة ربه ﷻ، ويعترف بكل النعم التي أنعم عليه بها، ويقول: "اللهم إنك أمددتنني بكثير من النعم، ومعلوم أن المنح والبذل من شيم السادة والكبار، أما الصغار والعبيد فيخطئون وسيئون الاستعمال، اللهم إنني أعترف بقصوري وعجزتي وأمام عظمتك وكبريائك، وأمثل لأمرك ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (سورة الواقعة: ٥٦/٧٤)، وعقب ذلك يقول: أنا أطرق بابك بتسبيح الملائكة "سبحان ربي العظيم"، معترفاً ومقرراً بعجزه وقصوره أمام صاحب العزة والكمال.

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو في ركوعه ويقول: "اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلْتُ، أَنْتَ رَبِّي خَشَعَ سَمْعِي وَبَصْرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصْبِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي، اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (١٣٨).

وهيئة الركوع تذكّر المؤمنَ بهيئة المخلوقات التي تسير على أربع، وكأن المؤمن عندما يدعو بهذا الدعاء يقول: "أحمدك ربي على أنك لم تجعلني مثل المخلوقات التي تسير على أربع، بل خلقتني قائماً منتصباً، وإن كنتُ قد انحنيْتُ الآن اعترافاً وتعبيراً عن كبريائك وعظمتك فيمكنني الاستواء مرة أخرى، فلك الحمد".

فإذا رفع من الركوع يقول كما علمنا سيدنا رسول الله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ" (١٣٩)، أو "رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِْلَاءَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِْلَاءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِْلَاءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ" (١٤٠).

هـ. السجود

بعد أن يشعر المؤمن بهذه المعاني أثناء الركوع يرفع رأسه متطلعاً إلى نسمة رجاءٍ من الله، ويرنو ببصره إلى رحمة الله ﷻ مرة أخرى.

(١٣٨) سنن النسائي، الافتتاح، ١٠٤؛ مسند الإمام أحمد، ٢/٢٦٨.

(١٣٩) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٧٦.

(١٤٠) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٣٢.

ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "أَمَرَ اللَّهُ ﷻ بِعَبْدِ إِلَى النَّارِ فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى شَفَتِهَا التَّمَّتْ فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ إِنَّ كَانَ ظَنِّي بِكَ لِحَسَنٍ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: رُدُّوهُ، فَأَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي" (١٤١).

وعند القيام من الركوع يشعر العبد بانسراح في صدره، فيقول: "سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ"، فإذا استوى قائماً مثل حرف الألف "أ" قال: "رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ"؛ أي: "اللهم لك الحمد أن سويتني بشراً، وأنقذتني برحمتك من هول الحساب، ومننت عليّ بألطافك ونعمائك التي لا تُحصى".

بعدها يشعر المؤمن بقرب رحمة الله منه، فتقلّ مخاوفه نوعاً ما من ثقل الحساب، وتبدأ نسائم الأمل تهب على عالم روحه، بعد ذلك يضع جبهته على الأرض تعبيراً عن شكره لربه ﷻ، ويقول معبراً عن تعظيمه له ثلاث مرات: "سبحان ربي الأعلى".

ولقد كان النبي ﷺ إذا سجد امتثالاً لأمر القرآن الكريم: ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ (سورة الإنسان: ٢٦/٧٦) يقول في سجوده أحياناً معبراً عن تعظيمه وإجلاله لربه ﷻ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةً، وَجَلَّةً، أَوْلَةً وَآخِرَةً، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ" (١٤٢)، وأحياناً أخرى يقول: "اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ فَصَوَّرَهُ، فَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ" (١٤٣).

(١٤١) البيهقي: شعب الإيمان، ٢/٢٣٣.

(١٤٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١١٨.

(١٤٣) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٦؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٧.

والحاصل أن المؤمن -بفضل السجود- يتبوأ مكانته اللازمة خلف النبي ﷺ ليُجري مقابلةً ولقاءً مع الله، تمامًا كما ارتقى النبي ﷺ بعبوديته والتقى بربه ﷻ أثناء المعراج.. فيجب أن يحرص المؤمن حين الصلاة على بلوغ هذا المكان السامي، فالمؤمن حين يبادر إلى تنفيذ أمر ربه ليفوز بما وعده به يشعر بمتعة لا حد لها ولذة لا تنتهي لها في كل ركنٍ من أركان الصلاة؛ لأن وراء هذا الوعد الفوزَ برضا الله، ومشاهدة جمال الله ﷻ، وقدوتنا في ذلك هو سيدنا رسول الله ﷺ، ندعو الله أن يُشبع أرواحنا بنشوة الصلاة، وأن يجيئش قلوبنا بها، وأن ييسر لنا جميعاً المعراج الذي نرتقيه بفضل الصلاة.

والعلماء المحققون يعتبرون السجود الذي يتبوأ مكانةً مهمةً بين أركان الصلاة أعلى الذرى التي يبلغها العبد، ويقولون: "الأركان الأخرى هي بمنزلة درج للوصول إلى السجود". أجل، إن الإنسان يمرّ بمراحل شتى حين ينوي المثلول بين يدي الله تعالى، فيبدأ بالوضوء، حتى يصل إلى السجود؛ أي إلى المكان الذي قال عنه النبي ﷺ: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ"^(١٤٤)، لكن المهم هو علاقة الإنسان القلبية بالله ﷻ، وما يحسه ويشعر به تجاهه، فمثلاً عند القيام للصلاة يستحضر المؤمن فكرة: "اللهم لولا أنك شرعت لنا الصلاة ما كان بوسعنا أن نعرف كيف نوذّي عبوديتنا لك، فلك الحمد ولك الشكر"، وفي الركوع يقول: "اللهم إنني لا أدري أيكفي حالي في التعبير عن عبوديتي لك أم لا؟! ولكنني أحاول أن أفعل قدر ما أستطيع أسوةً

بسيدنا رسول الله ﷺ، فاللهم تقبل"، وفي السجود يقول: "اللهم لو كان بمقدوري لوضعتُ رأسي أسفل قدمي"، وهكذا يجب على المؤمن أن يؤدي كل ركن في صلاته وهو مستشعرٌ هذه الأفكار.

أجل، إن الصلاة في ظل المعراج هي رحلة تُقطع إلى وراء الماوراء، أما السجود فهو أهم ركنٍ في هذه الرحلة، ولذلك ينبغي للإنسان أن يشعر بأقصى درجات القرب في السجود، وأن يسعى إلى الظفر به.

إن السجود فرصةٌ ينبغي للعبد أن يقتنصها وكأنها "ليلة عُرس" على حدّ قول مولانا جلال الدين الرومي، كما أنه قاعدة ينطلق الجميع منها للفوز بآثار الفيوضات الربانية، كلٌّ حسب أفقه المعرفي وقدره وقيّمته.

السجود هو المكان الذي يمحو الإنسان فيه من قلبه كل ما سوى الله تعالى، ويرتشف فيه القرب منه ﷻ.

السجود هو اسم للانقياد الكامل بما يليق بشأن الله وعظّمته؛ وعلى ذلك لا بدّ أن تُؤخَذ بعين الاعتبار ماهيّة هذا السجود وكيفيّة وهيئته وأسبابه.

و. جلوس التشهد

الجلوس للتشهد هو تعبيرٌ عن بذل الإنسان جهده، واستفراغه لطاقته في سبيل الترقّي في الصلاة، فإن العبد يستخدم انتعاش جسده ويقظة عقله وجيشان روحه في سبيل ترقّيه لربه، وبعد ذلك يجلس للتشهد الذي يستحضر فيه حادثة المعراج، والمعراج - كما نعرف - رحلة مباركة فُتحت فيها أبواب السماء أمام الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه

عليه بعد أن أعرض عنه أهل الأرض، وتهلّل فيها أهل السماوات بقدم سيدنا رسول الله ﷺ، وتلطّف الرب الكريم على رسوله بقوله: "أقبل يا عبدي!". ولذلك فإن كلّ مؤمن بعد أن يؤدّي صلاته بارتقاءاتها وانحداراتها انطلاقاً من مستواه ورحابة قلبه فإنه يتصوّر نفسه عاجزاً عن النهوض بثقل الحساب، فيجلس وكأنه يجلس على أرائك الجنة فريحاً فخوراً متمرّغاً في النعيم، أو يجلس وكأنه أحرز مكاناً بين الإمكان والوجوب بمثوله بين يدي ربه ودخوله في حضرته، وارتقائه إلى هذا المقام السامي الذي أتاح له التحدّث مع ربّه مباشرة كما جاء في سورة النجم.. يجلس بعد أن يؤدّي الصلاة بكل شدّتها وثقلها المادي مستحضراً حادثة المعراج وفقاً لرحابة قلبه ويقظة أحاسيسه.

نعم، إن التشهد يصف المعراج ويشرحه.. فمن الواضح أنه لا قبل لنا بالمشول بين يدي الله بأنفسنا، فمهما أدينا من عبادات فمن المتعذّر أن نقف بين يدي الله تعالى دون المرور على سيدنا رسول الله ﷺ الذي سبقنا وسنّ لنا الطرق والشرائع، فنُلقي التحية عليه، ونضمن وساطته.. من أجل ذلك فإننا بعد أن نقدم تحياتنا لربنا؛ أي بعد أن نتوجّه بكلّ عبادتنا المالية والجسدية من أجله ﷺ نُلقي التحية على سيدنا رسول الله ﷺ، ونقول: "السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ"، وهذا يعني: أن نصطفّ وراء رسول الله ﷺ عند توجهنا إلى الحضرة الإلهية بذنوبنا وسيئاتنا، وأن نُلقي السمع إلى ما يقال في هذا اللقاء المبارك، وأن نسعى إلى فهمه.

هنالك يقول سيدنا رسول الله ﷺ أولاً: "التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ"؛ أي "لك يا ربي كل العبادات التي أديتها بكلّ ذرّة في كياني،

ولك يا ربي كل ما بذلته من مال اكتسبته وادخرته، كله من أجل رضاك يا ربي، اللهم إني أقف بين يديك لأعبر عن ولائي وتمسكي بوعدي وعهدي، وأحيتك بهذه الكلمات"، ثم يلقي السلام على الله، عندها يردّ مولانا عليه السلام تحية حبيبه عليه السلام قائلاً: "السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ".

إن كل هذه المحادثات تجري في مقامٍ لا يستوعبه العقل ولا ندري أتدخل في حيز المكان أم لا؟! والملائكة تُنصت بتمعن لها، وتقول: "السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ" .. وفي النهاية يضي جبريل الأمين عليه السلام لونا رائقاً وتناغماً عذبا على هذه السيمفونية الجميلة فيصيح في أهل السماوات والأرض، ويدوي في العرش والفرش قائلاً: "أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"، أي إن الله هو المعبود المطلق والمقصود بالاستحقاق، وأن محمداً عليه السلام هو النبي عالي الشأن.

وهذا يعني أن التشهد عبارة عن تخيلٍ وتصوّرٍ لما وقع ليلة المعراج، واستحضار لارتقاء العبد إلى ربه في ظل قيامه بعبوديته، ولقد كان النبي عليه السلام يقرأ بعد معايشته لهذه الملحمة هذا الدعاء: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ" ^(١٤٥)، ثم ينتهي من صلاته.. ندعو الله تبارك وتعالى أن يلهمنا استحضار هذه الرحلة أثناء الجلوس للتشهد في صلاتنا.



(٤)

العناصر المتممة للصلاة

أ. تعديل الأركان الداخلية والخارجية

تعديل الأركان هو استيفاء أركان الصلاة وحركاتها حقها؛ أي تطويل الأركان والفواصل التي تتخللها على الأقل حتى تسكن الأعضاء وتطمئن.. وهذا هو الوضع الذي يكتسبه جسد الإنسان مادياً أثناء الصلاة؛ بحيث لا تتم الصلاة إلا بمراعاته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ازْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"، فَرَجَعَ فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"، فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الَّتِي بَعْدَهَا: عَلِّمْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ازْجِعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ازْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ازْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ازْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا" (١٤٦).

(١٤٦) صحيح البخاري، الأذان، ٩٥، صحيح مسلم، الصلاة، ٤٥.

انطلاقاً من هذه الأدلة وما شابهها حَكَمَ أغلبُ الفقهاء ومن بينهم الإمام أبو يوسف في المذهب الحنفي بفرضية مراعاة الطمأنينة في الأركان، أما الرأي المعتبر في المذهب الحنفي فهو الوجوب، ومن ثمَّ يجب حتمًا عند أداء الصلاة مراعاة الطمأنينة في كل أركانها، وفي رأبي أن العمل برأي القائلين بفرضية الطمأنينة في الأركان هو الأحوط، فما دام هؤلاء الأئمة المجتهدون القائلون بهذا هم أناس عظاماء؛ وهبوا أنفسهم كليةً للقرآن الكريم، وجعلوا فهم القرآن والسنة غايةً لحياتهم فإن الأسلم والأصوب هو العمل بالأحوط في الأمور المختلف فيها فيما بينهم.

وإن أداء أركان الصلاة على الوجه الأكمل هو محاولة للحفاظ على النشوة الأولى لها، والحيلولة دون ذبولها وضياع بريقها؛ من أجل هذا كان لتطويل القراءة والقيام والركوع والسجود أهمية بالغة في الصلاة، أهم ما في الأمر هو أداء أركان الصلاة بحقها، وتحمل مشقاتها؛ لأن مراعاة هذه الأركان يُكسب الإنسان أبعاداً مختلفة في كل صلاة، ولهذا يجب على الإنسان أن يراجع صلاته مرةً بعد أخرى، ويسعى إلى استشعار قيامها وركوعها وسجودها بكل كيانه.

ولا شك أن مراعاة الأركان الظاهرة في الصلاة وأدائها دون نقصان، والحرص على ألا يعترى أركان الصلاة وشروطها وسننها ومستحباتها بل وآدابها أي نوع من التقصير هو أمرٌ مهم لا يُستهان به.

لا ريب أن الأصل في علاقة الإنسان بربه هو المعنى واللبّ والروح، ولكن ما يحمل كل هذا هو الألفاظ والأشكال والقوالب، ولهذا لا بد

من مراعاة هذه الألفاظ والقوالب بشكلٍ قطعي، فلا يمكن أن يُقال إنه لا معنى لها، ذلك أن الأحكام الظاهرية تُبنى عليها، ولكن المهم - كما ذكرنا- هو لبّ الأمر، وهذا يحصل بأداء الصلاة في خشوع.

ويمكننا أن نطلق على الخضوع والخشوع "تعديل الأركان الداخلية" وإن كانت تخلو كتب الفقه من مثل هذا التعبير، فالحضوع والخشوع يربطان الأمر بمضمون الصلاة، ففي الحديث لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"^(١٤٧). فيجب أن تؤدّي الصلاة بمثل هذا الشعور العميق، إلى جانب مراعاة الدقة والخشوع في كل أركانها، كما ينبغي أن تؤدّي كل صلاة في بُعدٍ مختلفٍ وجوٍّ مختلفٍ عن سابقتها.

وإن محتوى الصلاة واسعٌ بما فيه الكفاية حتى يفكر الإنسان فيه بعمق؛ فثمة أنماطٌ مختلفة لاستشعار الإنسان بالصلاة؛ تبدأ من شوق الإنسان وعشقه للوقوف بين يدي الله، وشعوره بأنه فردٌ من الجماعة التي تصطفّ خلف رسول الله ﷺ، ورؤية نفسه قائماً بين صفوف الملائكة، وتنتهي إلى ما هو أبعد من ذلك حين يشعر الإنسان كما لو أنه يضع جبهته على ستار العرش.

والشرط الأول لنجاح الإنسان في هذا الأمر، هو أن يعتبر الصلاة مثل المعراج تماماً أو ظلاً للمعراج؛ لأن الصلاة ليست عبارةً عن حركات تؤدّي أثناء القيام والقعود، بل إن كل صلاةٍ بالنسبة للمؤمن هي وسيلة

(١٤٧) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٥.

للمعراج، فما يقع على المؤمن هو أن يتم معراجه في كل الصلاة، حتى ولو في أبعادٍ مختلفة.

الغاية من الصلاة

إن كلّ العبادات التي توجّه إلى الله ﷻ تفيض باليمن والبركة، فلا يتصوّر أن يُحرّم العبد من رحمات الله بعد أن يتوجه إلى باب الرحمة، ولكن ينبغي للعبد ألا يربط عباداته بالفيض الذي يناله، أو بالأحرى باللذة والمتعة التي يشعر بهما، فأحياناً يُقبل الإنسان على الصلاة بصدور منقبض ضيق، فإذا نظرنا إلى الظاهر، وتعبّلنا في الحكم على الأمر فمن الممكن أن ننظر إلى هذه الصلاة نظرةً تشاؤمية، بيد أنها ربما تكون من أكثر الصلوات قبولاً عند الله ﷻ، لأن العبد في هذه اللحظة يكون متجرّداً من مشاعر الفيوضات المادية والمعنوية، ومع ذلك لا ينسى عبوديته لربه، ويقبل على حضرة مولاه عز وجل، ورغم أنه لم يدفع له شيءٌ مقدّمًا فلا يقلل هذا الوضع من ولائه لربه؛ وهذه هي العبودية الخالصة.

وإنّ التزام العبد باب ربه ﷻ وقوله: "ما دام الحق تبارك وتعالى قد وعد باستجابة الدعاء فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٤٠/٦٠)، فأنا أيضاً سأظلّ أتمسّح بعتبة بابه؛ فهذا إنما يعبر عن صدق العبد وولائه لربه ﷻ، فلو أن الإنسان ظلّ طوال حياته يؤدّي مثل هذه العبودية دون استشعارٍ للذةٍ أو متعةٍ فهذا يعني أنه قضى عمره في أخلص العبادات وأصدقها لله تعالى.

من جانب آخر فليس المقصود من العبادة هو الفوز بالمراتب المعنوية، ولذلك فمن عبد الله رغبةً في الجنة قد يُسمّى بـ"عبد الجنة"، فليست الجنة هي هدف العبادة والعمل، إنما تؤدّي العبادة ابتغاءً لمرضاة الله، ولأن الله أمر بها.

أجل، إن السبب الحقيقي للعبادة هو أمر الله؛ بمعنى أننا نوّدي عبادتنا طاعةً لأمر ربنا، أما الإنسان الذي يقف للصلاة مستسلمًا خاضعًا فزعًا من جهنم فقد يُسمّى بـ"عبد النار".

وعلى ذلك كيف يكون الإنسان عبدًا لله!؟

على الإنسان أن يؤدي عبادته لله لأنه عبدٌ لله الذي أمره بذلك فحسب، وليس حبًا في الجنة ولا خوفًا من النار، وعلى الإنسان أن يؤدّي صلاته حتمًا حتى وإن حصل له ضيق في صدره وحُرم من مشاعر الفيوضات المادية والمعنوية، فكما أن بكاءه ونحيبه يكونان سببًا لاستجلاب البركات والفيوضات، فقد يكونان كذلك امتحانًا وابتلاءً له، فمن لم يعمل على أن يظلّ قلبه دائمًا في فكر ومراقبة فلربما يكون البكاء والنحيب خطرًا بالنسبة إليه؛ لأنه غير واقف أو مطلع على الدوام على أعماق قلبه.. ولو كانت هذه الأحوال عطايا وهبات للصلاة خاصة فإن الإنسان إذا هرول وراءها أثناء صلاته فإنه يفقد جزءًا مهمًا من النقاط المتعلقة بالإخلاص؛ إذ لا بد أن يُقبل العبد على الله كصندوق مغلقٍ وهو متشبعٌ ومشغولٌ بالفوز برضا الله فحسب.

ندعو الله ﷻ أن يوصلنا إلى أعلى مراتب الإخلاص في التعلق به ﷻ، وليكن وضعنا في المقابل متصدِّعاً خرباً في نظر الناس، فلا أهمية لمثل هذا المظهر الخارجي، المهم هو أن نكون كباراً في نظر الله.. ومن ثمَّ يجب على الجميع أن يتلوى ويساوره القلق بهذا الشأن، ويدعو الله قائلًا: "اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي فِي عَيْنِي صَغِيرًا وَفِي عَيْنِكَ كَبِيرًا"^(١٤٨).

ثمة أمر آخر وهو أن الله تعالى قد يمنَّ على عباده ببعض الأذواق الروحانية، فهناك بعض من الكبار الذين نزعوا من قلوبهم الكبر والعجب ووصلوا إلى التوحيد الكامل؛ وهؤلاء ينسبون جميع جمالياتهم إلى من ألبسهم تلك الجماليات، ولهذا يعتبرون حديثهم المتكرَّر عن هذه الحقيقة من باب التحدُّث بالنعمة، فمثلاً يقول نبينا ﷺ: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَيَبْدِي لَوَاءَ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي، وَأَنَا أَوْلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ"^(١٤٩)، وفي حديث آخر يقول: "أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي"^(١٥٠).

فكلَّ هذه الكلمات قد قيلت من باب التحدُّث بنعمة الله تعالى، هب أن أحدهم ألبسني لباساً جميلاً، فلا بدَّ أنني كلَّما أقيمت في مقامٍ أو نزلت في منزل سأحدث الناس عن تلك الهدية وذلك المعروف الذي أسداه إليَّ هذا الشخص، وسأرفع عقيرتي بالصياح قائلًا: "إن هذا اللباس جميل، وقد أضفى عليَّ جمالاً مختلفاً، وأكسب جمال خِلقتي

(١٤٨) البزار: المسند، ٣١٥/١٠؛ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٤٧٣/١.

(١٤٩) سنن الترمذي، المناقب، ٣؛ مسند الإمام أحمد، ١٥٢/٣.

(١٥٠) صحيح البخاري، التيمم، ١، صحيح مسلم، المساجد، ٣.

التي خلقتني عليها ربي بعداً آخر، فهذا الجمال ليس مني، ولكنه ناشئ عن الجمال الذي ألبسني إياه هذا الذات". وهكذا، فلا بأس من التحدّث -بهذا المعنى- بأفضال الله تعالى علينا، بل ربما يكون من الجحود إخفاؤها، "وأما بنعمة ربك فحدّث".

وفي هذا الباب أيضاً يقول رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ شَهْوَةً، وَإِنَّ شَهْوَتِي فِي قِيَامِ هَذَا اللَّيْلِ" (١٥١)، غير أن النبي ﷺ لم يكن يصلي لينعم بالمتعة الروحية التي يشعر بها أثناء الصلاة، بل يشير بقوله هذا إلى من لديهم استعداد لاستقبال هذه النفحات؛ فتعلو همتهم، ويواصلوا سعيهم ليصلوا بصلاتهم إلى هذا المستوى.

ب. صلاة الجماعة

أداء الصلاة في جماعة سنة مهمّة، لا بدّ من الحرص عليها وعدم إهمالها، وللإمام أحمد بن حنبل رحمته الله رأي حول هذه المسألة جدير بالملاحظة والاعتبار، حيث يعتبر الإمام أحمد الصلاة في جماعة فرض عين على الرجال، وكان سادتنا التابعون رضوان الله عليهم يحرصون كلّ الحرص على أداء الصلاة في جماعة، فمثلاً كان الإمام الأعمش (سليمان بن مهران، ت: ١٤٨هـ) يحرص طوال حياته البالغة سبعين عاماً -كما شهد بذلك أحد أئمة تابعي التابعين وكيع بن الجراح (ت: ١٩٦هـ)- على ألا تفوته التكبير الأولى، ولم يذكّر عنه أنه قضى الركعة الأولى قط، وهناك آخرون حرصوا طوال حياتهم على أداء الصلاة في الصف الأول.

وقد عني النبي ﷺ عنايةً خاصةً بأداء الصلاة في جماعة، وكان يحضُّ المسلمين عليها في كلِّ مناسبة، ومن ذلك قوله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ بِحَطَبٍ، فَيُحَطَّبَ، ثُمَّ أَمُرَّ بِالصَّلَاةِ، فَيُؤَدَّنَ لَهَا، ثُمَّ أَمُرَّ رَجُلًا فَيُؤَمِّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفُ إِلَى رِجَالٍ، فَأُحَرِّقُ عَلَيْهِمْ بِيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ، أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ الْعِشَاءَ.." فهذا الحديث يبيِّن الأهمية البالغة التي كان يوليها النبي ﷺ للصلاة الجماعة.. وانطلاقاً من هذا الحديث اختلفت آراء الفقهاء حول الجماعة أفرض هي أم واجب أم سنة مؤكدة؟ فالإمام أحمد بن حنبل حكم بأن أداء الصلاة في جماعة فرض عين، انطلاقاً من الحديث أعلاه وما شابهه من الأحاديث، فضلاً عن الآيات القرآنية التي تحث على هذا الأمر، مثل قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (سورة البقرة: ٤٣/٢)، وهي فرض كفاية عند بعض الشافعية، أما البعض الآخر منهم مع الحنفية والمالكية فقد أجمعوا على أنها سنة مؤكدة.

يقول مفخرة الإنسانية ﷺ: "صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَدِّ بِسَبْعٍ وَعَشْرِينَ دَرَجَةً" (١٥٢).

ومثل هذه الأحاديث تكشف لنا في الوقت ذاته عن بعض الحقائق مثل: أن النجاحات الفردية في السير والسلوك والعبادة والطاعة سينال العبد ثوابها بالمعنى المطلق، ولكن في النهاية سيظل هذا الأجر منوطاً بالمستوى الفردي، ولن يصل إلى الثواب الحاصل عند أداء هذه العبادة

ضمن الجماعة، وكما ينطبق هذا الأمر على الصلاة والصيام والحج وغير ذلك من العبادات ينطبق أيضاً على كل جهد مبذول في سبيل خدمة الإيمان والقرآن.

أجل، لا ضمان أن يفوز الفرد الواحد بما وعد الله به الجماعة، فحتى لو قام الإنسان وحده بأمر خارق للعادة في خدمته الإيمانية والقرآنية فإن هذا سيظل مرهوناً بمستوى الفردية، ولكن لو أنه قام بهذا العمل ضمن جماعة يشاركونه نفس الأفكار والمشاعر والقيم فسيكون لكل فرد في هذه الجماعة نصيبٌ من ثواب هذا العمل الفردي انطلاقاً من دستور الشراكة في الأعمال الأخروية، لا سيما أن هذا العصر الذي نعيشه هو عصر الوعي الجمعي، ولا يمكن حمل هذه الأعباء الثقيلة إلا بهذا النوع من الوعي.



الفصل الخامس
مواقيت الصلاة



(١)

تمهيد

ينبغي أن تنظّم الحياة وفقًا للصلاة، وأن تتخلّل كلّ شرائح الزمن في هذه الحياة كالتيقويم تمامًا، وأن يستند التقيؤم الحقيقي للحياة على أساس وأرضية الصلاة، وأن تصير مواقيت الصلاة كأحجار الزاوية تُبرمج وفقها سائر الأعمال، لقد كان الأقدمون إذا تواعدوا قالوا: "قبل صلاة الفجر، أو بعد صلاة العصر، وهكذا"، ولقد حافظ القرآن الكريم على هذه العادة في العديد من آياته، فقال مثلاً: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ (سورة التور: ٥٨/٢٤).

ولهذا نجد المؤمن كي ينال سهمًا من أفق الرحمة يقطع الطريق جيئةً وذهابًا إلى المسجد، ويتفقّد قلبه، ويراقب ربّه من مرصاد المسجد.. وعندما كان سادتنا الصحابة رضي الله عنهم يتكلّمون عن المخافة والمهابة التي يجدونها أثناء الصلاة يقولون: "كنا نجالس النبي صلى الله عليه وسلم ونحادثه، ولكن إذا قمنا إلى الصلاة صار الواحد منا لا يدري من على يمينه أو يساره، ولا يعرف بعضنا بعضًا، حيث كنا نتوجّه بأبصارنا وكل كيائنا لعوالم الغيب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: "لَا يَزَالُ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم مُقْبِلًا عَلَى الْعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ انْصَرَفَ عَنْهُ" (١٥٣).

(١٥٣) سنن أبي داود، الصلاة، ١٦٤؛ سنن النسائي، السهو، ١٠.

أجل، إن العبد إن لم يستشعر هذا الأمر في روحه عند توجّهه إلى ربه، فلن يستطيع أن ينسلخ من جسمانيته ويحلّق إلى عوالم القلب حتى وإن كان في المسجد، بل لن يستطيع أن يضفي روح الاستقامة على قيامه وعوده، ولن يفارقه بؤسه الذي في بيته وشارعه حتى في المسجد، سيصلي، ولكن سيرجع من صلاته دون أن يظفر بشيء.

ولقد كان بعض أهل الحقيقة يراعون الدقة البالغة في هذه المسألة، حتى إنهم وضعوا ميزاناً يقرر أن المصلي تفسد صلاته إذا تعرف على من بجانبه، فالرسول ﷺ يقول: "ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ" (١٥٤).

وعلى ذلك ينبغي للمؤمن أن يتفقد قلبه حينما يمرّ من الشوارع التي تعبّ بالفسق والفجور قادمًا إلى المسجد وكأنه يحمي محفظته من النشل والسرقة، ولا بد أن يخلع عن قلبه كل ما هو دنيويّ قد يعده عن ربه ﷻ، وأن يبذل وسعه ليتوجّه إلى ربه توجّهًا تامًّا، وإلا لا يكون قد أولى قلبه عنايته كما أولاها بمحفظته فيما يتعلّق بعلاقته بربه ومثوله بين يديه، ويكون قدره عند ربه بقدر علاقته به، فالمؤمن لا يشغله في الصلاة إلا ربه، ولذا يتوجّه إليه بكلّ قلبه وقلبه، وعندما يؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم سرعان ما يشئت تلك الغفلة التي تبعده عن ربه وكأنه تلقى ضربةً فوق رأسه، فيجعل عبوديته تهيمن على كلّ وقته، وبالتالي يكتسب ذلك الوقت الذي يُعتبر خطأً اعتباريًا قيمةً وقدرًا بفضل هذه العبودية، ويجري كالسيل إلى العالم الأبدى مكورًا الليل على النهار



والنهار على الليل، وفي النهاية يأتي بثمار الجنة التي تبسّم للعبد في الآخرة.

أجل، إن كل ما يتمثل للعبد في الآخرة هو تعبيرٌ عن الصلة التي عقدها مع ربه هنا في الدنيا، فلو أنه أحسّ بنشوةٍ مختلفةٍ وبعدٍ آخر عند أدائه لكل صلاة، واستشعر معاني وفيوضات جديدةً في كلّ مرة فسيجدها كلها ماثلةً أمامه يوم القيامة.



(٢)

تخصيص الصلاة بخمسة أوقات

نفهم من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أن الصلاة تؤدى خمس مرّات في اليوم، وسنذكر ههنا الآيات القرآنية التي تنص على تخصيص الصلاة بخمسة أوقات، ثم سنتطرق بعد ذلك إلى الجانب العملي لهذا في السنة النبوية الشريفة.

أ. الصلوات الخمس في القرآن الكريم

سرعان ما ننسى -بمقتضى بشريتنا- النعم التي أحسن الله بها علينا ولا نذكرها، ولأن ربنا ﷻ هو أعلم بنا من أنفسنا ويعلم هذه الغفلة عندنا، فقد قسّم لنا ساعات اليوم إلى أجزاء معينة، وطلب منا أن نقف بين يديه في خضوعٍ وخشوعٍ في أوقاتٍ محدّدة في تلك الأجزاء من اليوم وكأنه يهيئنا لموقف الحساب، وحتى نتذكّر نعمه ﷻ التي منّ بها علينا؛ لأن العبد كلما كان قريباً من ساحة الألوهية استمرت حيرته ودهشته، وكلّما ابتعد عنها تحكّمت فيه المشاعر البهيمية ولم تبرحه، ولذلك فرض الحق تعالى علينا الصلاة في أوقاتٍ محدّدة حتى نكسر هذه الغفلة، فقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (سورة البَنَاء: ١٠٣/٤)، ودعانا إلى المسجد في أوقاتٍ معيّنة من اليوم.

ويشير القرآن الكريم في عديد من آياته إلى أوقات الصلاة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (سورة هود: ١١/١١٤)، وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (سورة الإسراء: ١٧/٧٨)، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (سورة طه: ٢٠/١٣)، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۗ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (سورة الرُّوم: ٣٠/١٧-١٨)،
ليشير ﷻ بهذه الآيات الكريمات إلى الأوقات الخمسة للصلاة.

ففي أوقات المغرب والعشاء والفجر تضحج السماوات بالملائكة والأرض بالعباد الذين يصدحون بالحمد والثناء على الله تعالى جهراً وعلانية، وفي وقتي الظهر والعصر سراً وخفية، ويتوجه العالم كله بالتقديس والتحميد والتسبيح لله ﷻ، وعلى ذلك يجب على العبد أن يشارك في هذه السيمفونية الكبيرة، ولا يخل بهذا التناغم.. فقد روي أن نافع بن الأزرق -وهو تلميذ ابن عباس ﷺ- سأل ابن عباس فقال: تَجِدُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَرَأَ عَلَيْهِ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ (سورة الرُّوم: ٣٠/١٧) الْمَغْرِبِ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (سورة الرُّوم: ٣٠/١٧) الصُّبْحِ، ﴿وَعَشِيًّا﴾ (سورة الرُّوم: ٣٠/١٨) الْعَصْرِ، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (سورة الرُّوم: ٣٠/١٨) الظُّهْرِ، ﴿وَمَنْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ (سورة النُّور: ٢٤/٥٨) صَلَاةِ الْعِشَاءِ" (١٥٥). أجل، إن النظر إلى هذه الآيات على أنها جامعة لأوقات

الصلاة ليس مقتصرًا على ابن عباس رضي الله عنه، بل شاركه جمعٌ من الصحابة في هذه الآيات تدل على أن للصلاة خمس أوقات في اليوم، ويلزم تأديتها في هذه الأوقات، وهذا المعنى ليس من بنات أفكار ابن عباس رضي الله عنه، بل فهمه كذلك كلُّ الصحابة رضي الله عنهم.

وقد يتبادر إلى الذهن أن الآية لم تذكر إلا أربعة أوقاتٍ فقط، ولكن هناك آيةٌ أخرى تنص على عدد الصلوات بشكل أوضح يقول فيها ربنا تبارك وتعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٨/٢)، فكلمة "صلوات" إنما هي بصيغة الجمع، ومن المعلوم أنه لا يُعبر بصيغة الجمع عما هو أقل من ثلاثة، ثم جاء بعد ذلك ذكرُ الصلاة الوسطى، فأضيفت هذه الصلاة إلى الجمع السابق، وبهذه الزيادة يفهم أن العدد أربع أوقاتٍ، ولكن لا بد أن تتوسط الصلاة الوسطى عددين متساويين، وبالتالي لا يمكن أن يكون العدد أربعة بل خمسة على الأقل.

ورغم اختلاف العلماء حول الصلاة الوسطى، فمعظم الآراء ترجح أنها صلاة العصر، ويدعم هذا الرأي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الْأَحْزَابِ: "سَعَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى آبَتِ الشَّمْسُ، مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ نَارًا، أَوْ يُبُوتَهُمْ، أَوْ يُطُونَهُمْ" ^(١٥٦).

أجل، إن للصلاة أهمية بالغة؛ حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تضايق كثيرًا بسبب عدم قدرته على أداء الصلاة في وقتها لانشغاله بالحرب مع المشركين،

وكان ﷺ حتى ذلك الحين يدعو دائماً لخير البشرية وسلامتها، لكن هذه المرة رفع يديه، ودعا على من منعه من الصلاة، لماذا فعل نبي الرحمة ذلك؟! لأن الصلاة تحمل قيمةً خاصةً في نظره، وفي ذلك اليوم سُغِلَ عن أداء الصلاة الوسطى، وبالتالي لم يستطع أن يقتسم يومه، ويتوجه إلى ربه، ويكمل جزءاً من معراجِه.

وعلى هذا فإن الصلاة يجب أن تؤدى في خمسة أوقاتٍ معلومة، بأن يقف العبد في حضرة مولاه خمس مرات في اليوم حتى ينشط في رقيه إلى الكمال، وأن يقدم كشف حسابٍ لحياته خمس مرات، حتى يتغلب على الغفلة، ويقوّي علاقته بربه ﷻ، كما ينبغي للعبد أن يتعلم كيف يتحلّى بالأدب في حضرة ربه حتى يتهيأ قلبه للسّرّ الوارد من الفيض الأقدس، وتستقرّ لطائفه، وترقّ روحه وترتقي، وبذلك يلقي عن كاهله ما يحمله من صفات حيوانية، ولا ينوء ظهره بعبءٍ لا جدوى منه.

وثمة مسألة أخرى تلفت الآية الكريمة الانتباه إليها، وهي التعبير عن الصلاة بكلمة "التسبيح" الذي هو في الأصل أحد معاني الصلاة؛ لأن الشيء إذا ذُكر على إطلاقه صُرف إلى كماله، إننا نبحت عن كلمة نعبر بها عن عظمة ربنا وصغر أنفسنا، ونتحرّى السبل التي نعبر بها قولاً وفعلاً وحالاً عن تكبيرنا وتسبيحنا وتعظيمنا لربنا ﷻ، في حين أن أعظم الأقوال التي يمكن أن نعبر بها عن تعظيمنا لربنا هي: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، وكلها متناثرة بين أوضاع الصلاة، فقبل أن نبدأ القراءة في الصلاة نقول: "سبحانك اللهم وبحمدك"، وفي بداية الفاتحة نقول: "الحمد لله رب العالمين"، وعند الرفع من الركوع نقول:

"ربنا ولك الحمد"، وهكذا وبهذه الأذكار جميعها نحمد الله ﷻ.. وفي الصلاة أيضاً نعبر عن دهشتنا وإعجابنا بإجراءات الله وتصاريفه بقولنا: "الله أكبر" في كل ركن من أركانها، كما نعبر عن تنزيهنا لمقام ألوهيته تعالى وخضوعنا أمامه فنقول: "سبحان الله"، ونجمع أحياناً بين الجلال والجمال فنقول: "سبحانك اللهم وبحمدك"، وقد قال النبي ﷺ في أحد أحاديثه مبشراً: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ" (١٥٧).

خلاصة القول: إن الصلاة التي صيغت بالكامل من قِبَل الله تعالى، وزُيِّنَتْ بهذه الكلمات القدسية ستجعلنا نفيض تسييحاً وتعظيمًا وتكريماً لله تعالى، وستصبح وسيلةً معراجيةً تحملنا على الفور إلى الحضرة الإلهية قلبياً وروحياً.

ب. الصلوات الخمس في السنة الشريفة

وتخصيص الصلاة بخمسة أوقات لم يأت مجملاً فقط على النحو الذي ورد بالآيات الكريمة، فقد علم ربنا ﷻ هذه الأوقات لنبية ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام مباشرة، وهذه الحقيقة يخبرنا عنها سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن عباس رضيهما عن النبي ﷺ يقول: "أَمِنِي جَبْرِيلُ عِنْدَ النَّبِيِّ مَرَّتَيْنِ، فَصَلَّى الظُّهْرَ فِي الأُولَى مِنْهُمَا حِينَ كَانَ الفَيْءُ مِثْلَ الشَّرَاكِ، ثُمَّ صَلَّى العَصْرَ حِينَ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مِثْلَ ظِلِّهِ، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ وَأَفْطَرَ الصَّائِمُ، ثُمَّ صَلَّى العِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، ثُمَّ صَلَّى الفَجْرَ حِينَ بَرَقَ الفَجْرُ، وَحَزَمَ الطَّعَامَ عَلَى الصَّائِمِ، وَصَلَّى

المرّة الثّانية الطُّهرَ حينَ كانَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مثله لوقتِ العَصْرِ بِالْأَمْسِ، ثُمَّ صَلَّى العَصْرَ حينَ كانَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مثليه، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ لوقتِهِ الأوَّلِ، ثُمَّ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ حينَ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ صَلَّى الصُّبْحَ حينَ أَشْفَرَتِ الأَرْضُ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيَّ جَبْرِيْلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا وَقْتُ الأَنْبيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْوَقْتُ فِيمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ" (١٥٨).

أجل، لقد بيّنت السنة الشريفة هذه المواقيت الخمسة بيّناً واضحاً، وأخبرت كتب السنة الصحيحة وفي مقدمتهم البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ حينما رجع من رحلة الإسراء والمعراج أخبر أمته أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات بالفعل وهي خمسون بالأجر.. والحديث يرويه سيدنا أنس رضي الله عنه على هذا النحو، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً"، قَالَ: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ لِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَارْجِعْ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَارْجَعْتُ رَبِّي، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرْتُهُ قَالَ: رَاجِعْ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَارْجَعْتُ رَبِّي، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبِّكَ، فَقُلْتُ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي" (١٥٩).

(١٥٨) سنن الترمذي، الصلاة، ٤١ سنن أبي داود، الصلاة، ٢.

(١٥٩) صحيح البخاري، الصلاة، ٤١ صحيح مسلم، الإيمان، ٢٦٣.

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسَلُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟" قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: "فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا" (١٦٠).

وثمة واقعة أخرى ذكرتها كتب الحديث فيما يتعلق بمواقيت الصلاة الخمسة يرويها سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، أنه أتاه سائل يسأله عن مواقيت الصلاة، فلم يزد عليه شيئاً، قال: فَأَقَامَ الْفَجْرَ حِينَ انْشَقَّ الْفَجْرُ، وَالنَّاسَ لَا يَكَادُ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ أَمَرَهُ فَأَقَامَ بِالظُّهْرِ، حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، وَالْقَائِلُ يَقُولُ قَدْ انْتَصَفَ النَّهَارُ، وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَأَقَامَ بِالْعَصْرِ وَالشَّمْسُ مُزْتَفِعَةٌ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَأَقَامَ بِالْمَغْرِبِ حِينَ وَقَعَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَأَقَامَ الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، ثُمَّ أَخَّرَ الْفَجْرَ مِنَ الْعَدِ حَتَّى انْصَرَفَ مِنْهَا، وَالْقَائِلُ يَقُولُ قَدْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ، أَوْ كَادَتْ، ثُمَّ أَخَّرَ الظُّهْرَ حَتَّى كَانَ قَرِيبًا مِنْ وَقْتِ الْعَصْرِ بِالْأَمْسِ، ثُمَّ أَخَّرَ الْعَصْرَ حَتَّى انْصَرَفَ مِنْهَا، وَالْقَائِلُ يَقُولُ قَدْ احْمَرَّتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ أَخَّرَ الْمَغْرِبَ حَتَّى كَانَ عِنْدَ سُقُوطِ الشَّفَقِ، ثُمَّ أَخَّرَ الْعِشَاءَ حَتَّى كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ أَضْبَحَ فَدَعَا السَّائِلَ، فَقَالَ ﷺ: "الْوَقْتُ بَيْنَ هَذَيْنِ" (١٦١).

حاصل القول إن مواقيت الصلاة الخمسة قد ظلت على الصورة التي بينها النبي ﷺ منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا، ويقدر أهمية هذه

(١٦٠) صحيح البخاري، بدء الخلق، ٦، مناقب الأنصار، ٤٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٢٦٩.

(١٦١) صحيح مسلم، المساجد، ١٧٨؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٢.

الصلوات الخمس بالنسبة لنا تكون أهمية أدائها في وقتها أيضاً؛ بعبارة أخرى كما أن أداء الصلاة فرض فكذاك أدائها في وقتها فرض أيضاً، وكما أن تركها حرام فكذاك التواني في أدائها حرام أيضاً؛ وعلى ذلك ينبغي أداء جميع الصلوات في الأوقات التي حددها النبي ﷺ، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: "الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا"، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ"، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" ^(١٦٢).. و"الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا" أي استنارة الوقت بها، واكتسابه قيمة من خلالها.. أما الأمران الآخران المذكوران في الحديث وهما برّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله؛ فهما أقل في الأفضلية من الصلاة على وقتها.

(١٦٢) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، ٥؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٧.



(٣)

الحكمة من تخصيص الصلاة بخمسة أوقات

ثمّة وشيجةٌ تجمع بين "القرآن والكون والإنسان" وعبوديته في تلك المواقيت الخمسة التي خصّها الله تعالى لأداء عبادته؛ فكتاب الكون، والإنسان الذي هو نواةٌ ومثالٌ مصعّرٌ له، والقرآن الكريم الذي هو ترجمانٌ لهما؛ يتداخلون جميعاً ويتشابهون في الصلاة، وكأنهم يشكّلون ثلاثة أوجهٍ لحقيقة واحدة؛ أي إن العبد الذي هو خلاصة الكون ومثالٌ مصعّرٌ له يقف في انقياد وخضوع تام أمام الحضرة الإلهية فيقرأ القرآن الذي هو ترجمانٌ للكون، والفاتحة التي هي خلاصةً للقرآن، ويؤدي صلاته التي هي خلاصةً لعبوديته.

ولمزيد من التفصيل نقول: إن الإنسان هو فهرس الكون الذي تتجلى فيه الأسماء والصفات الإلهية، فكل العوالم كامنةً ومطويةً فيه؛ بمعنى أن الكون قد سُطّر في الإنسان بدقة كما سُطّر القرآن في لفظة "يس"، والعين الفاحصة المدققة هي التي يسعها أن تقرأ فيه كل العوالم، وتدرّك فيه جميع المعاني.. فضلاً عن ذلك فالقرآن هو خلاصة جميع الكتب، أي إن كل الكتب السماوية المقدسة مثل الزبور والتوراة والإنجيل موجزةٌ فيه، وكل الصحف مختزلةٌ به.. كما أدرجت في القرآن إلهاماتٌ كثيرٍ من الأنبياء السابقين وانفعالاتهم القلبية.. وكذلك لخصّ في سورة الفاتحة القرآن كله؛ ولهذا حمل الكثير من المفسرين حتى يومنا هذا

على عانتهم مهمّة توجيه الأنظار إلى الدروس والمعاني التي تحتويها سورة الفاتحة، وقدموا في سبيل هذه الغاية العديد من المجلدات، وذكروا أن الفاتحة هي خلاصة القرآن من جميع الأوجه.

وعلى ذلك فإن "الفاتحة" التي نقرأها في الصلاة هي بمثابة لسان ينطق بمضمون القرآن؛ بها نعبّر عن تكبيراتنا وتقديساتنا وتسيحاتنا وتحميداتنا لربنا ﷻ، ومن خلالها نعمل على تقديم عبوديتنا لربنا ﷻ، ولا ريب أننا بعد ذلك نشرع بأفعالنا في إثبات ما نطق به لساننا حتى لا نصبح كاذبين، فنقول: "اللهم إننا لسنا من المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، ولذلك ستتوجه إلى المسجد ونضع جباهنا على الأرض حتى نوثق ما نطق به ألسنتنا، وبالنهار سنختم على أفواهنا بالصوم، وبالليل سنترك فراشنا الوثير امتثالاً لآية: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (سورة الشُّجْرَةَ: ١٦/٣٢)، وبذلك نصدق بأحوالنا ما نطق به ألسنتنا؛ لأن اللسان ترجمان القلب، والأعمال برهان اللسان، وبقدر طهارة القلب يكون اللسان، وما ينطق به اللسان - إن كان صدقاً - ينعكس على الأعمال، فمن المتعدّر التفرقة بين هذه العناصر الثلاثة (القلب-اللسان-العمل).

أجل، إن العبد الذي هو خلاصة الكون يصل إلى الحضرة الإلهية بالفاتحة التي هي خلاصة القرآن، وبمعراج الصلاة التي هي خلاصة جميع العبادات، وهكذا ينطوي في الإنسان كتاب الكون.. ويمكن أن نقرب هذه المسألة للأفهام فنقول: لنفترض أن الساعة التي تشتمل على عقارب لعدّ الثواني والدقائق والساعات قد صار بها عقارب تشير إلى

السنة وعمر الإنسان وعمر الكون، وعندما يحلّ وقت شيءٍ من هذا يدقّ العقرب، وإذا تحرّك أحدُ هذه العقارب تبعه الآخر.. فهكذا الكون هو بمثابة ساعة لدى الله ﷻ، وعندما تجري الحوادث والأشياء كالسيل في إطار الزمن تعمل هذه الساعة وتتحرك، حيث إن فيها عقارب تشير إلى اليوم والأسبوع والشهر والسنة، وعندما يحلّ وقت كلّ واحدة من هذه الأوقات تدقّ هذه العقارب، وعندما نرى في هذه الساعة الكبيرة العقرب الذي يشير إلى السنة نعتقد أن هناك عقرباً آخر يشير إلى عمر الإنسان، وتشكّل لدينا قناعةً بأنه يتحرّك، ولا شكّ أن يوماً ما سيأتي ويتجلّى فيه سرُّ قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سورة الرُّحْمَنِ: ٢٦/٥٥-٢٧)، عندها ستتوقف كلّ الساعات، ويتوقف كلّ شيءٍ عن العمل، ولا يبقى إلا الله ﷻ، هو من سيتكلّم، ويسمع، ويحكم، ولذلك فإن الإنسان يمكن أن يواصل وجوده بكيفية مجهولةٍ على قدر نسبته وارتباطه بالله ﷻ؛ لأنه جاء من الله وسيرجع إليه.

يقول الرسول ﷺ في خطبة الوداع: "إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا" (١٦٣).. لقد كان المشركون في الجاهلية يعتمدون على التقويم القمري الذي اختلّ واضطرب فيما بعد بسبب ما أحدثه هؤلاء المشركون من تبديلٍ لمواقع الشهور وترتيبها بما وضعوه من "النسيء" الذي يهدفون من ورائه إلى أن تتوافق الأشهر الحرم مع مواسم التجارة، وقد أدى هذا الوضع إلى

تداخل واختلاط كل ما قدره الحق ﷻ من حلال وحرام فيما يتعلق بالزمن.. فكما أن هناك زمناً في عالم البشر فكذلك يوجد نظام كبير يتحرّك وتدورُ فيه الساعة في عالم المجرات، ولكن لم يكن ثمة توافق بين هذين الزمانين المختلفين في المجتمع الذي نشأ فيه النبي ﷺ، فلما أكمل ﷺ مهمة الرسالة أعلن في خطبة الوداع أن الزمان قد استدار على هيئته الصحيحة مرة أخرى؛ بمعنى أن الزمان المهيم على العالم الصغير الذي يقابل الزمان الدائر في العالم الكبير قد بدأ يعمل في تناغم وانتظام كالقلب النابض، وبات الزمان الذي يُعبّر عنه بالساعة والدقيقة والثانية والفيمتو ثانية في العالم الصغير يقابل السنوات والشهور والأسابيع والأيام في العالم الكبير، وهكذا يجب أن ندرك من خلال هذا السرِّ الدقيق السرِّ الذي تحمله مواقيت الصلاة الخمسة.

أجل، إن الزمن يجري في العالم الكبير، ويصل إلينا بعد أن يستدق طرفه كالسهم، ثم يتحول إلى ساعات ودقائق وثوان وفيمتو ثانية، بل إن هذا الخط الذي يتجاوز حدودنا السمعية والبصرية في العالم الصغير يظل يستدق ويستدق حتى لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالفيمتو ثانية.. فمثلاً ليس بالإمكان قياس سرعة دوران الإلكترونات حول النواة بالساعات التي بأيدينا، وكذلك تبدو هذه الساعات ضئيلة للغاية أمام قياس دوران الشمس والقمر، غير أن هذه الفيمتو ثانية تخبر عن الثواني والدقائق والساعات، وهم يخبرون عن الأيام والأسابيع اللذين يخبران بدورهما أيضاً عن الشهور والسنين، وعلى ذلك فإنكم حينما تنظرون إلى الثانية التي تتحرّك في أيديكم سترون الشمس التي تدور في درب التبانة،

وتسمعون اقتراب الفلك خطوة خطوة من ترس الأجل، واحتكاكه بعمر طبقات البشر، وفي ظل هذا الحدس والسمع ستعتقدون يوماً ما أنكم تسمعون توقُّف قلب الكون النابض، وانتهاء كلِّ شيءٍ.. وهكذا فمن خلال هذا تصوّر سيصبح من الأيسر أن نفهم ما الذي تخبرنا به صلاة الصبح، وما الذي يذكّرنا به وقت الظهر، وما الذي يقوله العصر، وما الذي ينبئنا به وقت المغرب والعشاء..

أ. دلالات وقت الصبح

مع بزوغ الفجر نستقبل وقت الصبح بنشوة يومٍ جديدٍ مشرقٍ، ونشعر وكأننا وُلدنا من جديد؛ لأن هذا اليوم الجديد يخبرنا عن اليوم الذي نزلنا فيه إلى أرحام أمهاتنا، وعن اليوم الأول من الأيام الستة التي خلق الله فيها الكون، وبذلك نثبُّ من وقتٍ محدودٍ إلى الساعة الكبرى؛ أي ننتقل من فجرٍ يومٍ جديدٍ إلى اللحظة التي نزلنا فيها إلى أرحام أمهاتنا، ومنها إلى اليوم الذي خُلِق فيه الكون، فتذكّر خلق الله لهذه الأيام التي غمرنا فيها بنعمه، وبعد ذلك نقف في حضرته لاهجين بالتعظيم والتكبير والتسبيح له، ونسأله القرب منه.. فما أجدر أن تُؤدّى صلاة الصبح بهذا المعنى وفي هذا الوقت!

ويسجل بديع الزمان ملاحظاته حول هذه الصلاة التي تؤدّى في هذا الوقت بقوله: "إن الإنسان بفطرته ضعيفٌ جداً، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التي تورثه الحزن والألم، وهو في الوقت نفسه عاجزٌ جداً، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرةٌ جداً.. وهو فقيرٌ جداً مع أن حاجاته كثيرةٌ وشديدة.. وهو كسولٌ وبلا اقتدار مع أن تكاليف الحياة ثقيلةٌ عليه،

وإنسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعاً مع أن فراق ما يحبه وزوال ما يستأنس به يؤلمانه، وعقله يريه مقاصد ساميةً وثماراً باقيةً، مع أن يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود.. فروح الإنسان في هذه الحالة (في وقت الفجر) أحوج ما تكون إلى أن تطرق -بالدعاء والصلاة- باب القدير ذي الجلال، وباب الرحيم ذي الجمال، عارضةً حالها أمامه، سائلةً التوفيق والعون منه سبحانه.. وما أشدّ افتقار تلك الروح إلى نقطة استناد كي تتحمّل ما سيأتي أمامها من أعمال، وما ستحمل على كاهلها من وظائف في عالم النهار الذي يعقبه.. ألا يفهم ذلك بدهاءة؟^(١٦٤).

ب. دلالات وقت الظهر

وقت الظهر هو ذروة كمال اليوم، أي الوقت الذي يسع فيه الأشجار أن تؤتي ثمارها، كما أن هذا الوقت يشبه اللحظة التي يصل فيها الإنسان إلى عنفوان الشباب في عمر الدنيا، ويشير إلى اللحظة التي تشكل فيها النبي الأول سيدنا آدم عليه السلام عند خلق الكون، وإلى بداية الفترة التي يفهم فيها معنى الكون، وإلى بداية الوقت الذي تدرك فيه الإرادة معنى الحوادث والأشياء.. وإن كان لا بدّ من ترتيب كلّ هذه الأمور على التوالي، فلنقل إن وقت الظهر يشير إلى عمر شباننا، وإلى كمال النهار، وإلى كمال الأيام في الكون، ثم إلى إحراز آدم عليه السلام لنعمة أن يكون مخاطباً لله تعالى، وعلى ذلك نقف في حضرة المولى صلى الله عليه وآله معقودي الأيدي ومدركين لهذا الكمال متوجهين بالشكر والحمد له على كلّ هذا،

(١٦٤) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة، ص ٤١.

ونقول: "اللهم إنك غمرتنا بنعمك منذ خلق آدم عليه السلام حتى حلول وقت ظهر ذلك اليوم، وقد جئت لأداء صلاة الظهر لحمدك وتعظيم شأنك"، ثم نعبّر عن كل ذلك بالتكبير والتحميد والتسبيح استحقاقاً لهذا الوقت واقتضاءً لحكم محضّة.

أجل، إن وقت الظهر يذكّر باللحظة التي تتكامل فيها الأعمال اليومية، وتصل فيها نعم الله إلى الذروة، والإنسان في هذا الوقت يكاد يختنق من عناء الأعمال اليومية، فيهرول على الفور إلى المسجد حتى يرمي من فوق ظهره كلّ هذه الأعباء، ويتقدّم بالشكر والحمد لربه ﷻ على النعم التي أسبغها عليه من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه حتى تلك الساعة من اليوم، وفي هذا الأوان أيضاً يجد الإنسان الفرصة للاسترواح مؤقتاً من عناء الدنيا، فيقف أمام ربه معترفاً مرةً أخرى بعجزه و فقره قائلاً: اللهم أنت العظيم وأنا الحقير، ثم يهتّم بالركوع ومن بعده السجود وكأنه يقول: "إلهي، إنني بكلّ أعضائي منقادٌ خاضعٌ لعظمتك"، فكل هذا بمثابة متنقّسٍ للروح؛ بحيث إن الإنسان لو استمع إلى روحه حقيقةً، وأصغى إلى نبضات قلبه فعلاً لشعر بالغبطة والسعادة التي يشعر بها تلميذٌ خرج إلى الاستراحة بعد تعبٍ من كثرة دروسه.

وكذلك فإن الهرولة إلى المسجد وقت الظهيرة حين تشتد الحرارة التي وصفها النبي ﷺ بقوله: "إِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ" ^(١٦٥)؛ يذكر بلواذ المؤمن إلى ظل ربه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ﷻ، ودخوله تحت لواء الحمد للنبي الأكرم ﷺ.

(١٦٥) صحيح البخاري، المواقيت، ٩-١٠؛ صحيح مسلم، المساجد، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٦.

أجل، إن إقبال الإنسان على صلاة الظهر محملاً بهذه المعاني، وانسلاخه مؤقتاً من الجسمانية، وإصغائه إلى صوت قلبه، واستماعه إلى لغة روحه؛ هو عين السكينة والسعادة.

ج. دلالات وقت العصر

وقت العصر هو الوقت الذي تميل فيه الشمس إلى الغروب، ومن ثم فهو يذكّر بالوقت الذي تشيخ فيه الإنسانية، وباللحظة التي تطلع فيها شمس فخر الكائنات ونبي آخر الزمان ﷺ ثم تأفل.. وعند أداء صلاة العصر ندرك أن كل ما على الأرض في طريقه إلى الأفول والغروب، وأن الألم الذي أصاب أقدامنا والوجع الذي انتاب ظهورنا والشعر الأبيض الذي ملأ رؤوسنا يشير إلى أن أنفُسنا في طريقها إلى الزوال والفناء بالتدرّج.. وفي هذا الوقت الذي نصاب فيه بالإحباط وخيبة الأمل يتناهى إلينا صوت الأذان، فنهرع إلى المسجد ونحن في نشوة وسعادة أن قد وجدنا السبيل لتخليد هذه الحياة الفانية.

ويشير هذا الوقت أيضاً إلى عصر السعادة النبوي، فلقد أخبر النبي ﷺ أنه شمس العصر، ثم عقد مقارنة بين أمته وبين الأمم السالفة بقوله: "إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيَمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أَوْتِي أَهْلُ التَّوْرَةِ التَّوْرَةَ، فَعَمَلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأَعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أَوْتِي أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ، فَعَمَلُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأَعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أَوْتِينَا الْقُرْآنَ، فَعَمَلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأَعْطِينَا قِيرَاطِينَ قِيرَاطِينَ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيُّ رَبَّنَا، أُعْطِيتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطِينَ قِيرَاطِينَ، وَأَعْطِيتَنَا قِيرَاطًا

قِيْرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا؟ قَالَ اللهُ ﷻ: هَلْ ظَلَمْتُمْ مَنْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أَوْتِيَهُ مَنْ أَشَاءُ" (١٦٦).

ولذلك فإن عصر السعادة هو بمنزلة النذير لتوجه البشر نحو الزوال، وبما أن الرسول الأكرم ﷺ هو خاتم الأنبياء فبهي أن يكون المتبقي من عمر البشر قصيرًا، فعصر السعادة يذكرنا بهذا كما تذكرنا شمس العصر بشيخوختنا.. وأمام هذه الحوادث والوقائع المتصلة المتتابعة نهول إلى حضرة الرب الجليل لنؤدّي صلاة العصر، إما حزنًا وأسفًا، وإما فرحًا بانتقالنا إلى الآخرة وتقلُّبنا في نعيم الجنة.

والقرآن الكريم يقسم بهذا الوقت في سورة العصر، وإننا عندما نهول إلى الحضرة الإلهية محمّلين بهذه المشاعر في هذا الوقت الذي أقسم الله به نبذو وكأننا نبحت عن سبيل للإبقاء على الأشياء التي أخذت تجري في سيل الفناء والزوال؛ حيث إن التكبيرات التي ترتفع من فوق المآذن تبعث فينا الروح وتعيدها إلينا من جديد.

د. دلالات وقت المغرب

وقت المغرب هو لحظة الغروب، عندها ينصرم النهار، وتغرب الشمس، وندخل في شريحة زمنية أخرى.. وهذا الحال يخبرنا عن انتهاء يومٍ من أربع وعشرين ساعة، وعن موتنا أيضًا؛ لأنه سيأتي يومٌ نموت فيه، ونُكفَّن، وتُربط أيدينا وأرجلنا وأذقاننا ونوضَّع في القبر، وبعد أن توضع على قبورنا شواهد القبور يفارقنا الأحباب والأصدقاء، ونظّل هنالك وحيدين بلا أنيسٍ ولا جليس.

(١٦٦) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، ١٧؛ سنن الترمذي، الأدب، ٨٢.

من جانب آخر يشير هذا الوقت إلى حشجة الكرة الأرضية وقت الاحتضار، فغروب الشمس يذكّر بأن كل شيء يشرق سيأتي عليه يوم ويغرب، وكذلك كل الأنظمة ستأفل وتغرب.. يُشيرُ إلى هذا قولُ الله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (سورة التَّكْوِينِ: ١/٨١-٣)، وفي هذا الفزع والحيرة نهرول إلى الصلاة مساءً حتى نسري عن قلوبنا الحزينة، ونروح عن أرواحنا البائسة.

أجل، إن وقت المغرب إما أن يكون تعبيراً عن البكاء والانكسار، وإما تعبيراً عن الانفعال الذي نشعر به من جراء إصلاح حالنا في العالم الآخر.. ففي هذا الوقت الذي تودّع فيه الأشياء بعضها البعض، وتتمتم بأناشيد الهجر والفراق معبرةً عن انكسارها بآلاف الصيحات؛ يُسمع صوت الأذان الذي يُخبر عند الغروب عن ميلاد فجر جديد، عندها نشعر في أرواحنا مع الموت بوجود وانبعثت جديدين بكل ما فيهما من حيوية؛ بتعبير آخر: إن الأذان الذي يُرفع في هذا الوقت يُشبه الصوت الذي ينفخه إسرافيل في الصور من أجل الحشر، في هذه اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء ويزول يُقال: "ثمة انبعثت جديد، وتوجه إلى حضرة الرب الكريم".

وإن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام كما حكى القرآن الكريم: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٧٦/٦) يعني: "لا أحب ما يزول ويأفل، وما لا يخالطني ولا يعاشرنني ولا يرافقني صباح مساءً"؛ وهذا يحمل معنى التوجّه إلى الله السرمدي الباقي؛ لأن الله هو الأحد الصمد، وهو الذي يكسب الوجود للعدم، وهو الذي يحكم بالأفول على الآفلين، وبالزوال على الزائلين،

وهو الذي يحوّل العدم إلى وجود، ويتجلى بالقدرة والدوام على ما يزول، وبعدها مات في القلوب العشقُ والانفعالُ، وانمحي من العقول كلُّ شيءٍ يعود إلى الفكر؛ فهو سبحانه الكفيل بمنح النفوس العشق والانفعال من جديد، وبَعثِ الحياة في القلوب الميتة.

هـ. دلالات وقت العشاء

وقت العشاء هو الوقت الذي غاب فيه الشفق تمامًا، وأظلمت فيه السماء كليلًا، ولم يبق فيه أيُّ أثرٍ للشمس.. ولا يوجد في هذا الوقت ما يوحي لنا بأن النهار قد رحل قبل قليل؛ لأن النهار بعد ما مضى ودخل وقت المغرب ظهرت حمرة في السماء تذكّرنا ولو قليلًا بالنهار المنصرم، وعندما غابت هذه الحمرة أيضًا يكون كلُّ شيءٍ قد مضى وانتهى.

وكما يذكّر وقت العشاء بانتهاء كلِّ شيءٍ، فإنه يذكّر أيضًا بانقضاء عمر الإنسان وانمحاء ذكراه، فالإنسان عندما يموت يخرج وراءه الباكون والنائحون، وينهار من خلفه الأهل والأقارب، ويغشى عليهم.. ولكن بعد مرور مدّةٍ معيّنة تُمحي ذكراه من الأذهان، وتصبح الأرواح مجردةً تمامًا من أيِّ أثرٍ له، أو كما تقول الآية الكريمة: ﴿نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ (سورة مزيم: ٢٣/١٩)، وهناك أناس لا يذكرون مَنْ توفّي من آبائهم وأمّهاتهم إلا في اليوم السابع أو الأربعين من وفاتهم، عندها يكون ويولولون ويتصدّقون؛ وهذا يعني أن الإنسان كلّما مرّت السنوات صار نسيًّا مَنْسِيًّا وكأنه ما عاش قط.

وهكذا يذكّر وقتُ العشاء باللحظة التي ينتهي فيها كلُّ شيء للإنسان وينمحي، ويُحرم فيها في قبره من كلِّ أنواع الضياء.. ولذلك فالشيء الوحيد الذي ينبغي أن يفعله العبد الذي انكسر قلبه وتلّفت أحاسيسه وتحطّمت مشاعره هو: أن يهرع إلى ربه في صلاة العشاء حتى يسري عن نفسه في تلك الدقائق، وأن ينير ليلَه بالمشول بين يدي ربه، وأن ينثر بذور الربيع في ليالي شتائه، وأن يعيد النجوم المتناثرة إلى سمائه من جديد، وأن يجعل عمره الذي أوشك على الزوال بداية لحياة جديدة، وأن يقول: "إننا انتهينا هنا وفينا، ولكن هذا الغروب يحمل في طياته بشرى الشروق، وسنحيا من جديد كما نموت".. وبهذه المشاعر تلامس جبهته سجادة صلّاته.

وفي مثل هذا الوقت أيضاً عندما يرتفع اسم الله تعالى من المآذن يستتير العالم الآخر للإنسان وتشعّ الأنوار في حياته البرزخية التي ينتظر فيها أن تُقرأ عليه الفاتحة، ويُدعى له بالرحمة، ويُبشّر فيها بالمغفرة، فلا يظلّ وحيداً بين ظلمات القبر، وتتبعه أعماله الصالحة وعباداته وطاقاته، وتنتظره صلّاته التي تتمثّل له عن يمينه وشماله ومن أمامه وخلفه.. وفوق كل هذا فبمجرد أن يلقه الظلام من كلّ ناحية، ويضمّه القبر، وتختلف أضلّاعه، وينعقد لسانه أمام أسئلة منكر ونكير؛ فإنه يرى أن ربه الأقرب إليه من كل الأحياب ينتظره هنالك برحمته، وكأنه ولي حميم.

و. ظلمة الليل والتهجد

تذكّر ظلمة الليل باللحظة التي تنقطع فيها كلُّ آمال الإنسان، وتبدد فيها كلُّ الأصوات والأنفاس، وتنعقد فيها الأيدي والأذرع والأرجل

أمام أهوال القبر، فضلاً عن أنها تذكّر بالوقت الذي ينهار فيه الكون بأكمله، فيبدو الإنسان أمام هذه الأهوال وكأن كابوساً قد جثم فوق صدره، فيود أن يتكلم فلا يستطيع، ويرغب في أن يحرك يديه وقدميه فلا يقدر، فيصيح ولكن لا يستطيع أن يُسمع صوته لأحد.. عندها يتوقّف في انتظار مصيره.

وهكذا فإن قيام الإنسان في هذا الوقت للصلاة ونحيبه وتأوّهه في ظلمات الليل ينير حياته كلها ويبدد ظلام ليله، فيا له من عمل نوراني مبارك يعدّ بالثواب الجزيل.. ولا يدرك هذا إلا من ذاق حلاوته.

وقد أكّد القرآن الكريم على ضرورة قيام الليل، من ذلك قول ربنا ﷺ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (سورة المزمل: ١٧٣-٤).

بعد ذلك يقول ربنا ﷺ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (سورة المزمل: ١٧٣-٦-٧)، وكأنه ﷺ بهذا القول يحدّد الوقت الذي يتوجّه فيه نبيه ﷺ إليه.

وفي آية أخرى يقول عز من قائل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (سورة الإشراء: ١٧/٧٩).

ولمزيد من البيان نقول: "إن هذا المقام (المقام المحمود) لا يمكن الظفر به بالغفلة والاشتغال بالأغيار، والتقلّب على الفراش الوثير، إنما بالعبرات التي تنسكب على سجادة الصلاة.." وقد أذعن النبي ﷺ بحساسية كبيرة لهذه الأوامر، فأعرض عن الرغبات الجسمانية حتى

في أنها لحظات حياته، فارتقى بذلك إلى مدارج حياة القلب والروح، وراقب ربه من هذه الزاوية.. ففي الحديث الذي رواه أمنا السيدة عائشة: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ ﷺ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟!"^(١٦٧).

وعندما يتكلم الإمام البوصيري عن تلك الحال في قصيدته "البردة" يقول:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنْ اشْتَكَّتْ قَدَمَاهُ الضَّرَّ مِنْ وَرَمٍ
وكانه يوبخ نفسه ويلومها قائلاً: "أما أنت أيها النفس فتقللين على
الفراس الوثير وتنامين، وتهئين به وتنعمين".

أجل، إن الإنسان بقيام الليل يتصل بربه ﷻ ويحاوره وينال صحبته ومعيته؛ فإن صلاة الليل هي شرف المؤمن، بها يُدرك النعمة، ويحوز كل شرف. أجل، إن قيام الإنسان ومثوله بين يدي ربه ومحاورته له في اللحظة التي يصل فيها كل إنسان إلى مطلوبه ومحبوه لهو شرف كبير لا يعادله شرف.. فينبغي لنا أن نحصل على ما ضيعناه بمقتضى بشريتنا.. وحتى يشعر الإنسان بأن هذه مسؤولية عظيمة ملقاة على عاتقه ويتسنى له القيام بها وتحقيقها فلا بد له من التوكل على الله، والالتجاء إلى رحمته ﷻ؛ لأننا بانتسابنا إلى مولانا ﷻ سنستطيع حل جميع مشاكلنا كالجنود الذين يُسمح لهم بأسر الجميع حتى الملوك اعتماداً

(١٦٧) صحيح البخاري، التهجد، ٦؛ صحيح مسلم، صفات المنافقين، ٧٩-٨١.

على قوة السلطان وسطوته؛ فبالتوكل على الله تُحرَّك الجبال من أماكنها، وبالاعتماد عليه تُنقل الجبال الثلجية من مواضعها، وبقوة الله وقدرته تتكوّن الشلالات التي تندفق صبًا صبًا.

أجل، يستحيل فعل أي شيء دون الاعتماد عليه ﷺ.. وإن مستقبل العالم الإسلامي اليوم منوطٌ كلياً بالتوجه للقرآن الكريم، كما أن عزنا وشرفنا مرتبطان بأدائنا لوظيفة العبودية خلف النبي ﷺ، وإن لم نفعل أُغْلِقَت الأبواب دوننا، ورُفضت مطالبنا، وضُربت علينا صنوف شتى من الذلّة فوق الذلّة التي عشنا فيها عصورًا، وما استطعنا نحن أمة الإسلام -التي قادت العالم تسعة قرون- أن نتخلص من شتى أنواع التذلل والتسؤل؛ لأن الله تعالى ربط رقيتنا وسعادتنا بالعودة إليه وإلى أنفسنا، فعلى أن نتوجه إليه سبحانه بدعائنا ليل نهار، وأن نستجلب رحماته بأفئدتنا المحترقة.

لقد خُلِقنا عبادًا فقراء محتاجين، وحاجتنا واسعةٌ سعة الفرق بين الثرى والثريّا، وبقدر اعتمادنا على الحقّ تعالى نكتسب قوتنا ونلبي حاجتنا ونأمن أعداءنا، والصلاة تُكسبنا هذه القوة، فإذا ترك الإنسان النوم تحت وطأة هذا القدر من الخصوم، ووقف معقود اليدين بين يدي ربه في ظلمات الليل، ورفع يديه إليه يكون قد تخلّص من العبء الذي ينوء به كاهله كجرح في صدره.. وهذا الوضع الذي هو مدارٌ لمتنفس الروح، فيه من الفضل ما فيه بحيث لا يمكن للإنسان أن يدرك النشوة الحقيقية التي فيه إلا بجانبه الملائكي.



الفصل السادس
ثمرات الصلاة



(١)

ثمرات الصلاة على المستوى الفردي

أ. تمنح القلب الانسراح والسكينة

الصلاة تعني غسل الإنسان بقلبه وروحه بعد تطهير الظاهر من الأدران والأخباث، بهدف التهيؤ للوقوف بين يدي الله صاحب العزة والكبرياء.. وعلى ذلك فالصلاة عبادة استثنائية مخصوصة تكفل للإنسان الانسراح روحياً، في ظلّها يصل العبد إلى الاطمئنان القلبي، ويفوز بالرضا الإلهي، ومن لم يستطع أن يجد الطمأنينة فيها فلن يستطيع أن يجدها فيما سواها، ومن لم يستطع بلوغ أفق الاطمئنان الحقيقي عن طريق المسجد فلن يمكنه الوصول إليه من أيّ طريقٍ آخر.. وقناعتنا أن الإنسانية جمعاء عندما تتوجّه إلى الصلاة ذات يوم بكلّ كيانها ستظفر بالاطمئنان الحقيقي.. فالصلوات الخمس التي تؤدّى خلال اليوم هي بالنسبة للمشتاقين إلى الترقّي معراجٍ يصلهم بالله خمس مرات في اليوم.. ولذلك كان النبي صلوات ربي وسلامه عليه يقول عن الصلاة: "قُوَّةٌ عَيْنِي"^(١٦٨)؛ وبهذا القول يعلن ﷺ أن الصلاة هي أعظم الوسائل التي تشرح صدره وتثلجها، وتبعث الطمأنينة فيه.

(١٦٨) سنن النسائي، عشرة النساء، ١؛ مسند الإمام أحمد، ٣٠٥/١٩، ٣٥١/٢٠.

ففي اللحظة التي ارتقى فيها النبي ﷺ إلى الحضرة الإلهية في المعراج وبدأ ينتظر بشوقٍ خبيراً مهماً يأتيه من قبل الله تعالى إذا به يُفاجأ بالصلاة تُفرض على أمته، وكأنَّ النبي ﷺ بعدما وُلد بشراً وانضمَّ إلى عالم الأحياء صار بعبوديته لربه وكأنه مَلَك، وارتقى إلى عرش الكمالات، وعندها طلب الخلاص لأمة التي تعيش في بؤسٍ وشقاء على وجه البسيطة.. ففرض الله عليه خمس صلوات في اليوم واللييلة، وبعد أن كانت خمسين صلاة في البداية خُفِّت إلى خمس، فإن أدى العبد هذه الصلوات الخمس بصدقٍ وإخلاصٍ نال ثواب خمسين صلاة.

وهكذا صارت الصلوات الخمس بهذه الكيفية قرة عين لسيدنا رسول الله ﷺ ولأمته.. فكما أن الأبوين اللذين ماتا كمدًا وأسى على فراق ولدهما؛ تقرُّ أعينهما بمجرد سماع خبر عنه يثلج صدورهما ويبعث الطمأنينة في قلوبهما؛ فكذلك الأمر بالنسبة للصلاة تشرح صدور المؤمنين، وتحقق لهم السكينة والاطمئنان.

أجل، الصلاة هي الهدية التي أُعطيَت للرسول ﷺ في المعراج؛ حتى تقرَّ بها عينه.. من أجل ذلك فإن المؤمن حينما يدخل في الصلاة يشعر بنسيم الانسراح يلامس قلبه، بغضَّ النظر عما إذا كان على وعيٍ بما يفعل أم لا، فمهما كانت الغفلة التي نقع فيها أثناء الصلاة فلا يمكن أن نشعر في سواها بالمتعة التي نشعر بها غالباً فيها، لكن هذه المتعة لا تدوم طويلاً، فقد يحرمنا الله تعالى من هذه المتعة أحياناً حتى لا نستنفذ أجر عبوديتنا لربنا في الدنيا، ولكن عندما تتوقَّر لنا هذه المتعة نودُّ أن ندفع الدنيا وما سواها بأقدامنا ونقول كما قال يونس أمره: "أريدك أنت وحدك، وحدك دون سواك".

تُشكّل الأوامر جانبًا من الإسلام، وتمثل النواهي الجانب الآخر منه، ونحن كمؤمنين ننظم حياتنا تبعًا لهذه الأوامر والنواهي، ونحاول أن نحافظ على هذا الخط المستقيم بصلواتنا، والصلاة في الواقع هي تعبير عن حالةٍ تتداخل فيها أسماء الله تعالى وصفاته، فهي من جهةٍ ما عبادة شمولية، تحمل ماهية أمره ناهية على حد سواء، وهي أثقل العبادات المأمور بها، لكن في الوقت ذاته تحتوي على جانب ظريف مبهج؛ حيث إنها تشكل نوعًا من الصلة بين العبد وربّه، وكلٌّ من انفرجت ثنياه بسبب نشوة عالم الغيب يشعر في الصلاة بما لا يشعر به فيما سواها، ولذلك إذا نودي عليها يهرع ذلك الفرد إليها في ذوقٍ وشوقٍ، حيث تُعتبر بالنسبة له متنفسًا من جوّ الحياة الاجتماعية الخانقة خمس مرات في اليوم، وتغدو المساجد بالنسبة له مكانًا للاسترواح، وتصبح التهليلات والتكبيرات والتحميدات التي ترتفع من تلك المساجد وسيلةً لجلب نظر رحمة الله ومرحمته، لذلك يرنو نظر المؤمن في الصلاة إلى الأعلى دائمًا، فيبدأ رحلته قائلًا "الله أكبر"، ويتوجه إلى الربّ الكريم الذي يعرفه ويشعر به في قلبه كنزًا مخفيًا.

والإنسان الذي يقف في الحضرة الإلهية محمّلًا بهذه المعاني يفتح مع كلّ آيةٍ يقرؤها على عالم الغيب، وتنزاح الحجب التي تغشى عينه واحدة تلو أخرى، ويأخذ في مشاهدة كلّ خصائص الجنة والنار، ولا جرم أن الإنسان إذا ما تراءت له النارُ بأهوالها ورياض الجنة ببهائها سيترك طريق جهنم ويفضّل طريق الجنة.. وهكذا تُزيح الصلاة هذا الحجاب عن أعيننا خمس مرات في اليوم بما تكتنفه من ماهيةٍ ومعاني، وتوجّه أنظارنا إلى عالم المعنى.

ونظرًا لما تحمله الصلاة من هذه المعاني فإن القلب يشعر فيها بالسكينة والانشراح، ولذلك كان النبي ﷺ عندما يشتد حرّ الظهيرة ينادي على سيدنا بلال ؓ ويقول: "قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ"^(١٦٩)، ولا يقول: ارفع لنا الأذان، وكان سيدنا بلال يفهم المعنى المقصود من هذا القول، فيصعد إلى سطح المسجد ممتثلًا للأمر، ويرفع الأذان الذي سيستمّر إن شاء الله أبد الأبدین ودهر الداهرين قائلاً: "الله أكبر، الله أكبر"، فيجعل المدينة المنورة كلها تضحّ بالبكاء والنحيب.

فكان الجميع يُهرعون إلى المسجد كي يشعروا بالراحة، ويغتربوا من النور الذي تقذفه الصلاة في القلوب، وينشرح عالمهم القلبي، ويرتقوا إلى السماء بعالمهم الروحي والشعوري.. لم تكن غايّتهم من الرواح إلى المسجد إلقاء العبء الذي عليهم أو التخلّص من التكاليف الملزمة لهم، بل التشبّع من الصلاة التي هي غذاءً للقلب والروح.. وهكذا ينبغي لنا عندما نسمع نداء المؤذّن أن نهول إلى المسجد مستشعرين بهذا الجوّ، فإذا ما وقفنا في خضوع وانقياد أمام الله تعالى لا نتخلّى عن وعينا بإدراك هذه الحضرة التي نمثل أمامها، وأن نحاول من خلال معراج الصلاة إحراز مقام العروج الذي حقّقه النبي ﷺ بالفعل، فالمهمّ هو أداء الصلاة بهذا الشعور، ولقد كان سيدنا عمر ؓ يمرض ويلزم الفراش بسبب تلك المعاني التي يشعر بها في الصلاة، وعلى ذات الشاكلة كان سيدنا علي ؓ يقف للصلاة -حسب ما جاء في إحدى الروايات- شامخًا حتى يتسنى له استخراج السهم الذي ينغرز في جسده

(١٦٩) سنن أبي داود، الأدب، ٨٥؛ مسند الإمام أحمد، ٣٨/١٧٨، ٢٢٥.

من قوس الأعداء دونما أن يهتز؛ لأن المعاني التي يشعر بها في الصلاة كانت تحيط بكل كيانه، وترتقي به عن الإحساس بشيء آخر.

أجل، لا بدّ من ذكر الله تعالى ذكرًا يليق بعظمته، والواقع أن هذا هو ما يقتضيه الإيمان، وبهذا الفهم العميق يتخلل اسم الخالق ﷻ كلّ ذرة من حياة المؤمن، ويعيش المؤمن حياة كحياة الملائكة.. يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ" (١٧٠)، ومن ثمّ فلا بد من تحمّل بعض المشاق لدخول الجنة، والصبر على الشهوات للنجاة من النار.

أجل، إن ذكر الله واستحضار الرابطة معه كلّ لحظة وعدم نسيانه هو فضيلة عظيمة يذكّرنا بها الخطيب كل يوم جمعة بترديده لقول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٩/٤٥)، والحقيقة أن المؤمن لا يستطيع ولا يتحمّل أن يغيب ربّه ﷻ عن وعيه.

من أجل تحقيق الاطمئنان القلبي

إن أداء المؤمن لصلاته بوعي وشعور يضبط حياته الفوضوية، ويحقق التوازن والانسجام في قلبه المشتت، ويشير أحاسيسه البائسة، ويضفي نورًا على مشاعره الضبابية.. كما أن الصلاة تتيح للإنسان أن يرى ويفكر ويتكلم بشكلٍ صحّي وسليم، وعلى ذلك فإن مثول العبد بين يدي ربّه خمس مرات في اليوم وأدائه لصلاته بوعي وشعور يُكسبانه كل هذا بإذن الله تعالى.

(١٧٠) صحيح البخاري، الرقاق، ٢٨؛ صحيح مسلم، الجنة، ١.

أجل، إن الصلاة الحقيقية هي الصلاة التي يؤدّيها المؤمن في خشوع، ولكن ثمة شروطٌ لتحقيق هذا الخشوع، فلا بد أولاً من حضور القلب واستيعاب الأمر والاتكال على الله في مرتبة بين الأمل والرجاء، ثم المثول بين يدي الله في استكانة وحياء.

ويمكن أن يتحقق الاطمئنان القلبي من خلال التفكّر في حركات الصلاة واستشعار ما فيها من معانٍ؛ فمثلاً بعد أن نقف برهةً من الزمن أمام حضرة الله نأتي بالركوع، لماذا؟! لأنه لم يعد لدينا طاقة على الوقوف، وبعد الركوع نهوي إلى السجود من أجل الاعتراف بعجزنا وصغرنا أمام قوة الله تعالى وعظمته.. بل إننا عندما نشرع في الصلاة نقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنه هو الذي شملنا برحمته ووهبنا لساناً وشفتين نتكلّم بهن، ونعبّر بواسطتهما عن مرامنا ومقصودنا.. كما زوّد ﷻ أجسادنا بمفاصلٍ نتحرّك بها، ولا يعرف قيمة هذه النعم حقاً إلا الذي استطاع بصعوبة أن يستوي ويعتدل ويتحرك بعد سلسلة من الآلام الفظيعة.

وفي الصلاة أيضاً نتذكّر الأجل وقد كثر عن أنبيائه، والصراط وقد ضرب أماننا، وجهنم وقد علا لهيئها تحت أقدامنا، وسجود الناس أمام هول هذا الموقف.. عندها نقول: "اللهم أنت النافذ قوله في الدنيا والآخرة، والجاري حكمه في المحشر، فكيف لي أن أعبد من سواك والحال هكذا؟! إنما أنا أوّدي عبادتي لك أنت، ولا أرجو المعونة إلا منك من أجل النجاة من أهوال الدنيا والآخرة، فاللهم لا تجعلني ممن انحرفوا عن طريق العبودية وضلوا، فباؤوا بالخيبة والخسران في الدارين".

أجل، يمكن أن يتحقّق الاطمئنان القلبي من خلال الصلاة واستشعار ما فيها من معانٍ.. وكما أن التسوّق يتطلّب منك أن تحافظ على نقودك أو محفظتك فكذلك الصلاة تلزمك أن تحافظ معها على قلبك؛ لأنه إذا كان ثمة نقودٌ ساريةٌ عند الله فهي القلب، فأنت تهبه قلبك وهو في المقابل ينعم عليك برحمته ورضاه، ولكن إن فارقك قلبك عند الوقوف بين يديه فلن تستطيع إتمام هذه الصفقة.. بتعبير آخر: إذا فارقك قلبك عند الصلاة ودار في السوق وانشغل بالعيال والأولاد فلن تكون له قيمة في هذا السوق، أما لو حافظت على وجود قلبك عند الصلاة فستظلّ يقظاً متنبّهاً مشدوهاً بما تشاهده فيها، وعند تلاوة آيات القرآن ستشعر وكأنك تسير على سواحل المعرفة الرحبة التي لا حدّ لها، وستأخذك هذه الآيات من يدك، وترشدك إلى المعرفة وإلى الثراء الداخلي، وتسير بك على سواحل لا تعلمها، وفجأة تجد الأشياء التي تجهلها عن معرفة الله تبدو وكأنها تبدى لك من عالم آخر، فأحياناً تسير في عوالمٍ فسيحةٍ من الثرى إلى الثريا، وأحياناً أخرى تسير في عالمك الداخلي، وحينها سترى الكرة الأرضية وكأنها قلبٌ نابضٌ، فتصيح وتستغيث بالله تعالى بحماسةٍ وهيجان، ومنها تنتقل إلى الشمس، فتجد أنها تنكمش وتفتح مثل قلبٍ يلهج بذكر الله ﷻ، محاولةً أن تقطع طريقها إلى درب التبانة.

حاصل القول: إنك ستسمع دقائق قلبك تردّد مع جميع الأنظمة وصورها المرّوعة كلمة "الله، الله.."، وعندما تغدو وتروح بين هذه الأنظمة كالمكوك الجوّال يتشكّل لديك خليةٌ من المعرفة، ومن خلالها تشعر في داخلك بالتعظيم والإجلال لله تعالى، وينطلق لسانك بقول:

"الله أكبر" تعظيمًا للحق تعالى الذي يدبر أمر هذا الكون العظيم، بعدها تأتي بالركوع قائلاً: "الله أكبر"، ثم تهوي إلى السجود مع قولك: "الله أكبر" أيضًا، بعد ذلك ترفع من السجود قائلاً: "الله أكبر"...

حقًا الله أكبر كبيرًا، والعبد بهذه الكلمات يشهد ويعترف بكبرياء الله وعظمته، بل قد تصيب هذه العظمة العبد بالخوف والرعب، وتجعله يغيب عن وعيه، ولكن عندما يعود إلى رشده يعي وهو ما زال في مستهل صلاته أن الله تعالى يشملته بصفته الرحمن الرحيم كما يشمل جميع الكائنات برحمته ومرحمته، بل وحتى إنه يشعر ويظن بأن الله تعالى ينظر إليه فقط، فيقول: "إن الله ينظر إليّ فقط، ويسمعني أنا فقط، ويترجم انفعالاتي بصوتي ونفسي" .. والواقع أن من رحمة الله للعبد أن يتعلّق بمثل هذا الأمل والرّجاء في الوقت الذي يسيطر عليه فيه الخوف والقلق بشكلٍ بالغ، وعندما يشعر العبد بهذه المعاني يقول: "وُطِّتُ هذا المجلس، وبثتُّ همي لربي، فها أنا ذا ثملٌ منتشٍ بما يأتيني من عند ربي"، ولأن العبد ليس في مقام التدلّل فإنه يلتزم بالحياء؛ لأن الله هو الخالق، أما العبد فهو المخلوق والمحتاج للرحمة.

والحاصل أنه ينبغي للمؤمن أن يعقد آماله على أن يُوفَّق إلى صلاةٍ حقيقيّة مقبولة، وطالما تحرّك بهذا الأمل فالرجاء في ربنا ﷻ أن يعطيه -برحمته الواسعة- ثواب أداء الصلاة الحقيقية، ربما نسعى ونبذل جهدنا أحيانًا حتى نوفّق إلى أداء صلاةٍ حقيقيّة بين الصلوات التي نؤدّيها، ونعتبر السجدة التي نخزّ بها وكأنها هرولةٌ إلى المحبوب، ونقول: آه! ليتني أوفّق إلى هذا"، ولكن المهمّ هو أن نستشعر كلّ لحظة في وجداننا

بعظمة الله تعالى بكلِّ بهائها، وندرك بروحنا عجزنا وصغرنا، وبهذه المشاعر نُقدِّم لربِّنا قيامنا وركوعنا وسجودنا وجلوسنا، وأعتقد أن صلاةً تُؤدِّي على هذه الشاكلة تكون وسيلةً لاستقامة القلب والروح.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيُنْصِرُفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ تُشْعَعُهَا ثُمَّنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمُسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا"^(١٧١)..
والحال أن الصلاة الحقيقية هي التي يُكتب ثوابها كُلُّه للمؤمن، ولا يتحقَّق هذا إلا بأن تُؤدِّي الصلاة بوعيٍ وشعورٍ، ندعو ربنا تبارك وتعالى أن يجعلنا لاثقين بمغفرته ورحمته، وأن يزيدَ من شعور الإجلال والتعظيم له في نفوسنا، وأن يغمرنا بهذا الشعور من أعلى رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا، وأن يسعفنا بمنافذ الرجاء إذا انتابنا اليأس وانقطع الرجاء، وألا يحرمنا -ولو لحظة- من الأدب؛ حتى لا نخطئ ونسيء في حضرته.

ب. الصلاة تعين على استقامة المشاعر

من عادة الإنسان أن يكون حريصًا على الأجر والمنفعة الفورية، أما الجماليات والثواب الذي يتحصَّل عليه في المستقبل فغالبًا ما يتعامل معه بلا اكتراث ولا مبالاة، ويبيِّن القرآن الكريم هذه الحقيقة فيقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (سورة الإنشراء: ١٧/١١)، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (سورة المعارج: ٧٠/١٩)، بعدها يقول ربنا ﷺ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (سورة المعارج: ٧٠/٢٠)؛ أي عندما تنزلُ به المصيبة يصرخ ويولول، ويُطلق لسانه بذكر المصيبة في كلِّ مكان علَّه يجد من الآخرين من

(١٧١) سنن أبي داود، الصلاة، ١٢٧؛ النسائي: السنن الكبرى، ٢١١/١-٢١٢.

يشاركه همه ويكي لبكائه، بيد أنه لعجلته لا يعلم أن هذه المصيبة التي نزلت به قد تكون خيرًا له، ولا يعرف كذلك أن الله تعالى ربما غمره بوابل من المصائب حتى يسير على وجه الأرض مترنحًا متطهرًا من ذنوبه، لكن بما أنه مدمنٌ على الأجر المقدم العاجل فإنه لا يتحمل المصيبة ألبتة، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (سورة المعارج: ٢١/٧٠)، أي لا يفرط في قرش واحد، ويريد أن يجعل من الواحد ألفًا.

أجل، إن هذه المشاعر الكامنة في فطرة الإنسان لا تستقيم ولا تُستخدم على الوجه الصحيح إلا في الصلاة، فالهدف من هذه المشاعر في الأصل هو الارتقاء بالإنسان إلى كمالات أعلى عليين، ولكن إذا لم يحقق الإنسان الصلة بينه وبين ربه فلن يتسنى له معرفة أين يستخدم هذه المشاعر، فإذا أساء استعمالها انتكس وتردى إلى أسفل سافلين بدلًا من أن يسمو ويرتقي إلى كمالات أعلى عليين.

فعلى سبيل المثال شعور "العناد"؛ قد يرقى بالإنسان إلى أعلى عليين إذا استُغِلَّ في سبيل التوجه إلى الله، واللواذ برحمته؛ حيث يعين هذا الشعور الإنسان على الثبات على الحق، ويجعله صامدًا أمام موجات الكفر العاتية، ويشجعه على أن يقول: "لقد توجهتُ إلى ربي وأقبلتُ عليه مرةً واحدةً في حياتي، ولا يمكن أن أتوجه إلى غيره حتى يأتيني الموت"، فيتحرّك وفقًا للأمر السبحاني: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سورة الحجر: ٩٩/١٥).. وهكذا يغدو العناد خصلةً جليلةً تصل بالإنسان إلى أوج الكمالات.

وهكذا شعور "الحرص"، لا يستطيع الإنسان أن يظفر بالجماليات الأخروية إلا من خلاله.. ولقد أُدرج الحرص في فطرة الإنسان حتى يكتسب صفات العظماء والصالحين وخصالهم، ويتعمق في عبوديته لربه ﷻ، فلا يشبع، ويقول: "ما ألدَّ العبودية لك يا رب! فاللهم بلغني ذراها"، وفي النهاية ترتفع وتعلو مرتبته في الجنة.. فإذا ما انقطعت الصلة بين العبد وربّه ووجّه هذا الحرص إلى الدنيا ومفاتها التي تُبعد الإنسان عن ربه، بمعنى أنه يُساء استعماله، وعندها قد لا يستطيع الإنسان أن يخرج من هذا المستقع مرّةً أخرى.

والحال أن استعمال هذه الصفات في التمتع بدنياً وفي الركض وراء لذائذها الجزئية المؤقتة لا يزن عند الله جناح بعوضة، بل هو خسران ما بعده خسران، ويصوّر القرآن الكريم هذه الحالة المرضية الفظيعة بقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (سورة المعارج: ٢٢/٧٠-٢٣)، في إشارة إلى أن المصلين لا يسقطون في مثل هذه الهاوية؛ بمعنى أن الذين يقفون في الحضرة الإلهية خمس مرات في اليوم لا يستغلّون الصفات السلبية مثل الحسد والطمع والغلّ والحقد والشهوة لصالح حساباتهم الدنيوية، بل يستغلّونها لصالح آخرتهم.

ج. إجابة الدعوة الإلهية

وكما أن الصلاة وسيلةٌ لانشراح القلب واطمئنانه، فهي كذلك تحمل معنى إجابة دعوة الرب ﷻ، فالأذان الصادح من المآذن خمس مرات في اليوم قائلاً: "الله أكبر، الله أكبر" يحمل معنى الدعوة للناس جميعاً، وكأنه يقول لهم: "الله أكبر وأنتم الصغار فهلّموا وسيروا وراء نبيكم ﷺ، وقوموا

بين يدي ربكم، واهرعوا إلى المسجد حيث تُوزَع المنح والهبات؛ حتى تنالوا ما تحتاجون وتظفروا بالفلاح في الدارين".

والمؤمن يجيب هذه الدعوة؛ لأنه يعتبرها موجّهة إليه، وكأنه يريد أن يقول بلسان حاله تلك: "اللهم إنك دعوتني إلى المسجد خمس مرات في اليوم، وها أنا ألبي الدعوة، بل إنك لو دعوتني خمسين مرة وليس خمس مرات فسألبي دعوتك أيضًا". في مقابل ذلك يجازيه الله على هذه النية الخالصة ويقول له: "عبدني، إنني أعلم أنك صادق في هذه النية، ولذا سأثيبك عليها وأكتب لك ثواب خمسين صلاة وليس خمس صلوات فقط".

أما غير المؤمن فلأنه لا يستمع إلى الأذان المحمدي الذي يتردد خمس مرات في اليوم، ولا يُشارك في أداء الصلاة المفروضة؛ فلا يُقَيّد في صحيفة أعماله أية حسنات، والمؤمن تمتلئ حياته باليمن والبركة، حيث إن البذرة الواحدة التي يلقها في حقل الدنيا يجنيها في الآخرة عشرة، ومائة، وسبعمئة حسنة، أو أضعافاً مضاعفة؛ لأن نيته كانت أعظم من عمله، فيمضي كل مراحل حياته في عبادة طالما حافظ هو على شعور العبودية.

أما الجانب المتعلق بالله تعالى في هذه الدعوة المقدسة فهو أن الله تعالى يدعو الناس إلى رحمته من خلال الصلاة، فالأذان ما هو إلا كرت دعوة إلى الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٣٣)، وكما يقف صاحب البيت الكريم أمام باب بيته لاستقبال المدعوين

بكل حفاوة؛ فإن الكريم الحقيقي وهو الله تعالى عندما يدعو العباد إلى بيته خمس مرات في اليوم والليلة عن طريق الأذان يستقبلهم أيما استقبال، ويحتفي بهم أيما حفاوة، ولا يردّهم صفر اليدين، بل يغدّي قلوبهم وأرواحهم بعظيم فضله وإحسانه ورحمته، ويرفع الغشاوة عن أعينهم، ويطلعهم على عالمه الغيبي، ويربهم تجلياته الخاصة بهذا العالم، ويشرفهم بالعروج إليه سواء أدركوا هذا أم لا، وهكذا فإن العبد حين يجيب هذه الدعوة ويقف بين يدي ربه يرى أن الصلاة قد صارت له سلماً، وارتقت به إلى الذرى التي يشاهد من خلالها مولاه ﷺ.

فما دام رسول الله ﷺ -الذي لم يخرج عن حدود كونه بشراً- قد رأى ربّه في المعراج فقد يعيش العبد الحقيقة نفسها في الصلاة؛ لأن المخبر الصادق صلوات ربي وسلامه عليه يقول: "إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرَمُوهُ"^(١٧٢)، والقلوب المؤمنة هي أكرم الأحياء على وجه الأرض؛ لأنهم لم يشركوا بربهم، ولم يسجدوا لغيره، وعندما يُرْفَع الأذان المحمدي يبادرون لتلبية دعوته، وحاشا لأكرم الأكرمين أن يبخل على كرام حلوا عليه ضيوفاً.. ننزع -من صميم قلوبنا- إلى الله تعالى ألا يحرم المجيبين دعوته والواقفين بين يديه من هذا الفضل والإحسان.

د. مناجاة العبد لربه ﷺ

الصلاة تعني التسليم لموجودٍ لا حدَّ لقوّته وقدرته، والاعتماد عليه، وانتظار أن تنكشف الكروب على يديه.. ولقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ وأعياءه وضاق به صدره هرع إلى الصلاة، ووقف بين يدي ربه في

(١٧٢) سنن ابن ماجه، الأدب، ١٩؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ٢٣٤/٥.

خشوع وانكسار علةً يجد الانشراح لصدره والطمأنينة لقلبه، وهو في ذلك يمثّل لأمر الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٣/٢)؛ أي يا أيها الذين آمنوا إذا ضاقت عليكم الأمور وتراكمت عليكم الهموم فاهرعوا إلى الصلاة، وفقوا بين يدي الله متضرّعين متذلّلين حتى يزيح الله عنكم همومكم ويشرح صدوركم؛ لأن الصلاة تعني أن يقف العبد في انقياد تامّ وعبودية خالصة أمام صاحب القوّة والجبروت، معترفاً بعجزه وفقره.

والصلاة بهذا المعنى هي موقعٌ سامٍ يرتقي فيه الإنسان إلى مقام أن يحاور الله تعالى، فبالحركات التي يقوم بها، وبالآيات التي يتلوها، وبالأدعية التي يذكرها يعقد العبد صلةً قلبية مع الحق تعالى ويحاوره، أحياناً يكون هو المتكلم وأحياناً أخرى يكون هو المخاطب، وبين هذه الحقيقة ذلك الحديث القدسي الذي ذكرناه من قبل، والذي يقول فيه الحق تبارك وتعالى: "قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أُنْتَنِي عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ" (١٧٣).

والحاصل أن العبد في الصلاة كأنه يقف في مقابلة الله تعالى؛ ليحصل على جزاءٍ يتوافق مع عمق قلبه، وإخلاص قوله، وصدق حركاته، والله ﷻ هو الذي يكفل له ذلك.

هـ. الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

الصلاة هي مثول العبد في الحضرة الإلهية خمس مرات في اليوم ليقدم كشف حساب لربه على ما صنعه خلال يومه؛ بمعنى آخر: إحساس العبد بنفس ملك الموت من خلفه، وحساب الله من أمامه، ولجؤه إلى الحضرة الإلهية خوفاً من إضلال الشيطان عن يساره، ووقوفه في انقياد تام وعبودية خالصة أمام الله تعالى رغبة في تأييد الملائكة عن يمينه؛ لأن الصلاة التي تؤدي بهذا المعنى تعني تخلص العبد من الذنوب خمس مرات في اليوم، وتشرفه بالمثل بين يدي ربه، بعد ذلك لا يبقى معنى لارتكاب الذنوب، ولا يوجد مبرر منطقي للتلطف بالذنوب والآثام.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩)، فالفواحش والمنكرات من الذنوب التي يُغضها الله تعالى لأنها تمثل بوجوهها البغيضة الممقوتة عبئاً يحول دون عروج المؤمن إلى ربه والمثول بين يديه.. وانطلاقاً من فكرة "في كل ذنبٍ طريقٌ يؤدي إلى الكفر"؛ فإن الإنسان الغارق في الذنوب يتعد عن ربه، وبنفس القدر يقترب من الشيطان؛ بعبارة أخرى: إن استغراق الإنسان في الذنوب يُفقدته -في سبيل أشياء تافهة- مقام القرب الذي حازه عن طريق الصلاة، ويجعله ينقلب رأساً على عقب مرةً أخرى من فوق السلم الذي صعده خطوةً خطوةً ووصل به إلى الذروة، وعلى ذلك

ينبغي للمؤمن الذي اتخذ القرب من ربه غايةً له، وركض وراء هذه الغاية أن يتقي الوقوع في الفحشاء والمنكر اللذين يبعدهن عن ربه، وأن يكره العودة إليهما كما يكره أن يُقذف في النار.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (١٧٤).. وعلى ذلك فإن من ذاقوا طعم الإيمان إذا ما تعرضوا لشيء يودي بهم إلى الكفر شعروا وكأنهم سيقذف بهم في النار، ففعلوا كل ما بوسعهم حتى لا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى.

وهكذا فإن أداء الصلاة بهذه الروح وذلك الشعور، والوقوف بين يدي الله في انقياد تام وعبودية خالصة، وتجديد العهد مع الله؛ كل هذا يعني توثيق الصلة مع الحق ﷻ، وهذا في حد ذاته أمرٌ يسيّر بالنسبة لمن ذاق حلاوته، أما بالنسبة لمن لم يصل إلى نشوته فهو أمرٌ جدٌ عسير.. وكما أن الصلاة وسيلةً للقرب من الله تعالى، فإن تزكها كذلك سبب للدخول في الكفر والشرك، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ" (١٧٥)، وفي حديث آخر: "مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفَرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ" (١٧٦)، وكما أن غير المسلمين إذا

(١٧٤) صحيح البخاري، الإيمان، ٩، ١٤، الإكراه، ١؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٦٧.

(١٧٥) صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٤؛ سنن الترمذي، الإيمان، ٩؛ سنن أبي داود، السنة، ١٥.

(١٧٦) صحيح البخاري، الصلاة، ٢٨، الأضاحي، ١٤؛ سنن الترمذي، الإيمان، ٢.

أصبحوا في ذمة قيادة إسلامية ودخلوا في كنفها تمتعوا بكل الحقوق التي يتمتع بها الرعايا المسلمون، وكذلك المسلم إذا صلى الصلاة وتوجه للقبلة يدخل في ذمة الله ورسوله ﷺ، فلا يتعرض له أحد.. وإن أيّ عدوانٍ يقع على إنسانٍ دخل في كنف أحد وجواره يُعدّ عدواناً مباشراً على من أجاره.

بمعنى أن الإنسان يصبح في حماية عظمى إذا دخل تحت ظلّ الله وكنفه ورعايته، ويكون التعظيم لشعائر الإسلام بمثابة حائلٍ بينه وبين الشرك والكفر.

و. الصلاة تذكّر بأركان الإيمان

الصلاة هي منظومة الأركان الإيمانية، فهي بدايةً تعقد صلةً بين العبد وربّه، فعندما يقف العبد للصلاة ويقول: "الله أكبر" فكأنه يرمي من وراء ظهره كلّ ما يحول بينه وبين ربه، فيرنو ببصره إلى منافذ العوالم المعنوية، وترقّب كلّ ما يفد من هنالك، وفيها يعلم الإنسان قطعاً أن كلّ ما يخرج من فمه ويعتلج في مشاعره أثناء الصلاة جديرٌ بالارتقاء إلى الله كالكلمة الطيبة، ويعبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٤/١٤)، وفي آية أخرى يقول ﷺ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سورة فاطر: ١٠/٣٥).

فإذا أغمض العبد عينيه عما سوى الله صار مشاهداً لذلك العالم فقط، وأدى صلاته بذوقٍ وتمعنٍ خاصّة؛ لأن العبد حينما يدرك عجزه وفقره

أمام عظمة الله تعالى وكبريائه يقشعرّ بدنه خشيةً لربه، وعندها يشعر بهذا الذوق وتلك المتعة.

واعترافُ العبدِ بعبوديته لربه بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو اعترافٌ بعجزه عن أداء العبودية اللاتقّة بالله تعالى، وكأنّ العبد يقول حينما يلجأ إلى الله بهذا الفقر والعجز: "اللهم اني أتعبّد إليك وأطوّقُ العبودية في عنقي، فإنما أنا عبد عاجز فقير، ولكن ما أشرفها من عبودية حينما تكون إليك".

أجل، إنّ الله تعالى هو سلطان السلاطين، أما نحن فخدمٌ على بابه، وإننا عندما نقول "أشهد أن لا إله إلا الله" حينما نجلس للتشهد في صلاة الفرض والنفل فإنما نعلن ونعترف بأن الله تعالى هو المعبود والمقصود بالمعنى الحقيقي، وأنه لا شريك له في دائرة ألوهيته وعبوديته، وأن زمام كلّ شيء بيده ﷻ.

وفي الصلاة أيضًا إقرارًا بالإيمان بالأنبياء، فكأننا حينما نقول في التشهد "وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ" ونذكر اسم سيدنا رسول الله ﷺ ونشهد بنبوته؛ نشهد في الوقت ذاته بنبوته الأنبياء السابقين من لدن آدم ﷺ حتى سيدنا رسول الله ﷺ، وهذه الكلمة ترقى بنا تارة إلى جوار سيدنا نوح ﷺ في السفينة، وتارة إلى جوار سيدنا موسى ﷺ على جبل الطور، وتارة إلى جوار سيدنا المسيح ﷺ الذي رُفِعَ بجسده وروحه سرًّا كامنًا في السماء، وتارة أخرى إلى جوار سيدنا محمد ﷺ الذي اجتمعت فيه كل فضائل الأنبياء.. وفي الصلاة أيضًا نحْيِي النبي ﷺ

بقولنا: "السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ" وكأننا ماثلون بين يديه ونجلس بجانبه ونقول له: يا أيها النبي الذي لا ندرك كنهه والذي عرفنا بنفسه كما علمه الله قائلًا: "محمد رسول الله" أقدم لك تحياتي بعدد ذرات وجودي، فتقبلها مني".

فبفضل إيماننا بالأنبياء والرسل السابقين لن نرى الماضي دارًا مظلمةً، وسنخترق كالبرق أخطر المزالق في المستقبل، ونصل إلى ساحل الأمان والطمأنينة بوجودنا تحت وصايتهم إن شاء الله تعالى.

وفي هذا الركن أيضًا نتذكر الإيمان بالملائكة، فبفضل الإيمان بوجودهم لا نشعر بالوحدة أبدًا، بل نحسّ وكأنهم يلازمونا كالأصدقاء الأوفياء أينما حللنا، يرشدوننا إلى الطريق الصحيح، ويحولون بيننا وبين الطرق المعوجة.. وإن إيماننا بهم يؤمن السكينة والطمأنينة في قلوبنا، ويوحى لنا بأنهم سيستقبلوننا في الآخرة استقبال الملوك، ويضربون حولنا سياجًا من الزينة ندخل الجنة من خلاله.

وهكذا فإننا عندما نقول: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ نقرّ ونعترف بأن الله تعالى هو الحاكم والمالك لنا دنيا وآخره، ونتذكر كذلك اليوم الذي سنقف فيه للحساب بين يدي الله تعالى، فلا يستطيع أحد أن يراجعه في شيء، وعندما نقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ نتذكر الإسلام والقرآن بأحكامه ومحتواه، وما يطلبانه منا.

أجل، نتذكر كلّ هذا أثناء الصلاة التي هي منظومة الأركان الإيمانية.. ربما لا نعلم الأشياء التي لا بد أن نذكرها أو نشعر بها أثناء الركوع

والسجود والتشهد، فمنهي الصلاة قيامًا وقعودًا في غفلة وذهول، إلا أن الله تعالى يصوغ بأمره الصمداني شعورَ العبودية الذي يفيض داخلنا على شكل نظامٍ يتخذ شكلاً وقلباً معيّنًا، ويقول: "لا أرضى إلا أن تفعلوا هذا".

ز. تكفّر الذنوب

الصلاة تمحو الذنوب وتكفّرهما كما ورد في العديد من الأحاديث الشريفة إن أُدّيت على الوجه الأمثل؛ ففي الصلاة تغدو التوبة شعورًا منبعثًا بداخله؛ بمعنى أن التوبة التي تتحقّق من خلال الصلاة لا تكون طواعيةً أو مقصودةً، فإن انصهار العبد في صلاةٍ أدّاهها على المستوى المطلوب، وحظوته بالمشول في الحضرة الإلهية بهذا الانسجام يبعثان في الإنسان شعورًا يسمى "التوبة".

من جانب آخر فإن الصلاة تعني التوبة كليةً، حيث إن التوبة تسري في كلّ أركان الصلاة لدرجةٍ يكاد من المستحيل أن يفصل الصلاة عن التوبة.. وليس كلّ توبةٍ صلاة، ولكن كلّ صلاةٍ تؤدّي بشعورٍ ووعيٍ كاملٍ هي توبةٌ، ولكن حتى تُحدث الصلاة مثل هذا التأثير فلا بدّ أن تؤدّي على المستوى المطلوب.

إن الله سبحانه لو شاء لَعَفَرَ الذنوبَ في كلّ صلاة، ولكن لا بدّ أن يحمل العبدُ همّ الذنبِ في قلبه طوال الأربع وعشرين ساعة من اليوم حتى يكون ذلك مدعاةً لغفران تلك الذنوب، وحتى تتخلّل التوبة كلّ أجزاء اليوم الذي تُرتكب فيه هذه الذنوب، وحتى يتحرى العبدُ قبولَ هذه التوبة في كلّ صلوات هذا اليوم، ويسعى لذلك.. وأداء الصلاة بهذا

الشعور هو بمثابة لطفٍ خاصٍّ للذين يقضون يومهم على هذه الشاكلة.. فكما أُخفيت ليلةُ القدر في رمضان والوقت الذي يُقبل فيه الدعاء يوم الجمعة لحكمةٍ ما، ولعلّها لاستغلال كلِّ شهر رمضان وكل أيام الجمع في العبادة والإنابة؛ فكذلك أُخفيت الصلاة التي تكفر الذنوب؛ حتى يتحرّى الإنسان ذلك في كل صلواته، ويؤديها كلّها بهذا الشعور، وفي النهاية ينال ثمرة عمله في صلاة من الصلوات.

حـ. الصلاة وسيلةً للقرب من الله

الصلاة هي أعظم وسيلة للقرب من الله ﷻ، وليس هناك شيءٌ أعظم من السجود يقترب به المؤمن من ربه، ويعبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ"^(١٧٧)، فإن العبد حينما يتلوّ في سجوده ولا يكون على قلبه رقيبٌ سوى الله تعالى فإنه يقترب من ربه، وكلّما اقترب صرخ الشيطان وابتعد عنه، ويعبر عن هذه الحال سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: "إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اغْتَرَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي - أَمْرَ ابْنِ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمْرَتْ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِي النَّارُ"^(١٧٨).

بناءً على ذلك يجب على المؤمن ألا يترك الصلاة التي تُبعد عنه الشيطان بهذا القدر، وتقربه من ربه على هذا النحو، وأن يعطي أهميّة كبرى للسجود خاصّة، وأن يبحث عن الوسيلة التي تتيح له أن يضع وجهته على الأرض أمام ربه وبيته همّة قائلاً: "يا ربي لم يسمع أحدٌ

(١٧٧) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٢؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٨.

(١٧٨) صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٣؛ سنن ابن ماجه، الإقامة، ٧٠.

صراخ قلبي، وليس عند أحد دواءً لآلامي، وها أنا ذا أبثك همّي وشكواي" .. والواقع أن الإنسان عندما يقول في سجوده: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى؛" إنما يريد أن يقول: "اللهم إني ظلمت نفسي، وارتكبت جرماً كبيراً رغم جرمي الصغير، ولكنني في هذه اللحظة أحطّم غروري أمام عظمتك، وألجأ إليك، وأضع جبهتي بين يديك، فاعفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فأنت الشاهد والرقيب على كل شيء، ورغم كلّ ذنوبي فإنني لم أطرق بابَ غيرك، ولم أركع ولم أسجد لأحد سواك، بل لم يشغلني شيءٌ عنك عند سجودي، واتبعتُ أمر: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (سورة الذّارِيَات: ٥١/٥٠)، وفرزْتُ إليك ساجداً في المكان الذي فرّ منه الشيطان مولولاً، ولجأتُ إلى ركنك".

أجل، الصلاةُ هي أجلُّ عبادةٍ وأعظم وسيلةٍ للقرب من الله تعالى وللعفو وغفرانِ الذنوب بشهادة الملائكة.. وبسبب هذه القيمة الجليلة يقوم الملائكة الكرام بتبديل وظائفهم في أوقات الصلاة، ففي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَأثُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ" (١٧٩).

إن الصلاة بمعناها ومحتواها لها قيمة عظيمة؛ لدرجة أن كل ركن فيها يمثل بذاته عبادةً مستقلةً لطائفةٍ من الملائكة في السماء.. وهي وظيفة عهد بها إلى النبي ﷺ بلا واسطة، فكلّ العبادات الأخرى كان الواسطة

فيها جبريل عليه السلام إلا الصلاة فقد أهداها ربنا ﷺ إلى النبي ﷺ بلا واسطة؛ ولذلك فإنها عندما تؤدَّى بصدق يكتب الله لصاحبها أجر خمسين صلاة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه السلام (١٨٠).

والصلاة صاروخٌ يرتقي بالإنسان إلى حضرة مولاه في آنٍ واحد؛ رغم صغر الإنسان وعجزه وضعفه واستعداده للتردي إلى أسفل سافلين.. بل إن الصلاة تمكّن الإنسان من مخاطبة مولاه، ولو جاز التعبير فإن العبد من خلال الصلاة يدخل في حوار مع الله، أحياناً يتكلم العبد، وأحياناً يتكلم الرب، وأحياناً أخرى تشارك الملائكة في هذا الأمر.. إن العبد في الصلاة كأنه يقول: "يا ربي، يا مَنْ خلقتني، وأتحت لي الوقوف في حضرتك مع صغري وحقارتي، وسمحت لي بمخاطبتك، وشرّفتني وكرمتني بخطابك لي، أريد أن أقوم بعملٍ يحمل كلَّ معاني التبجيل والتعظيم لك، فبِمِ أودّي شكر أفضالك عليّ؟ إنني لا أجد في داخلي ما أترجم به النعم التي أحسنت بها عليّ، فاللهم هبني لساناً، وتفضل عليّ بنفسٍ أستطيع بهما أن أعبر عن تعظيمي وشكري وثنائي عليك كما أثنت أنت على نفسك".

وإزاء هذه الرغبة يجيب الله تعالى على عبده قائلاً: "لقد أكرمتك بالصلاة لتكون لساناً ممتداً من المعراج، وبهذا اللسان ستتكلّم، وتعبّر عن توقيرك لي، بل وإنَّ كلَّ ركنٍ في الصلاة سيغدو لساناً تعبّر به عن شكرك لي.. وبعد هذا الحوار يؤدّي العبدُ شكرَ ربه قائماً وراكعاً وساجداً، ثم يقول: "اللهم إنك يسّرت لي في الصلاة التعبير عن تعظيمي

وتذللي إليك، وزوّدتَ جسدي بمئات المفاصل حتى يتيسّر لي التعبير عن ذلك، ولذلك أشعر بمزيد من الخشية والتوقير لك، وأودّ أن أتوجه إليك بمزيد من التبجيل والتعظيم، فاللهم تقبّل مني هذا حسب نيتي".

والحاصل أن الصلاة بكل أركانها هي ترجمانٌ للهموم التي يشعر بها العبد ولا يستطيع أن يعبرَ عنها بلسانه أو التي تتدافع عليه تدافع الفراشات، والله تعالى يُصغي لهذه الأصوات التي تلهج بها تلك الألسنة، ويقول: "لقد سجد عبدي لي، وركع لي، وأدى وظيفة العبوديّة لي بحقّ، وها أنا أيضًا أعطيه سُؤله"، وهذا بالطبع هو أسمى ما يصبو إليه العبد، أملنا في الله تعالى أن يوفق جميع الضمائر النقية الطاهرة إلى بلوغ مثل هذا المعراج، ويلهم الذين يستوحشون من العبادات والطاعات ويؤدون الصلاة كإجراءٍ شكليٍّ فقط متثاقلين؛ المعنى الحقيقي للصلاة.





(٢)

ثمرات الصلاة على المستوى المجتمعي

الإسلام هو دينٌ عالميٌّ شامل، من جهة يدعو جميع الأمم إلى الاتحاد، ومن جهة أخرى يطلب من المسلمين أن يشكلوا وُحدةً فيما بينهم، وأن يرتبطوا فيما بينهم برباط الأخوة، وهذه حقيقة تؤكد عليها الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٠/٤٩)، والصلاة هي أهم أركان الإسلام، وعلاوةً على أن الصلاة صلةٌ بين العبد وربّه فإنها تكفل تحقيق الحوار بين الناس على الوجه الأكمل، ومن هذا الجانب فإن الصلاة ترسخ لروح الجماعة.

إن المسجد الذي يجتمع فيه المؤمن مع إخوانه في الدين خمس مرات في اليوم ليس داراً للعبادة فحسب، فلم يكد النبي ﷺ يشرف المدينة المنورة حتى وضع حجر الأساس لبناء مسجدٍ تؤدّى فيه العبادات لله جماعة، وتجتمع فيه المجالس المدنية والعسكرية، ويتشاور فيه المسلمون في شؤون الدولة، وتشكّل فيه الأمة الحلقات لمدارسة العلم، وقد اتُخذ هذا الإجراء سنةً بعد النبي ﷺ.

فإذا ما نظرنا إلى العهود الأولى في الدولة العثمانية فسنرى أن هذا الوضع لم يختلف عما كان عليه من قبل، وإذا انطلقنا في رحلة عبر التاريخ وذهبنا إلى مدينة "بورصة" فسنرى السلطان "محمد

شليبي* و"مراد خداوندكار" وكثيراً من السلاطين يجتمعون بالمجلس العسكري في ناحية من المسجد، وبالمجلس المدني في ناحية أخرى منه، ويحاولون حل المشاكل وتحديد الإستراتيجيات عند خريير الماء الجاري في الميضأة، فإذا ما رُفِع الأذان المحمدي الجليل رفعوا الجلسة وأسرعوا إلى الميضأة يتوضؤون، ثم يقفون للصلاة بهذا الصفاء والنقاء، وبعد أن تنتهي صلاتهم يعودون إلى مجلسهم لمباحثة شؤونهم، ولا شك أنهم عندما يقفون في حضرة الله خمس مرات في اليوم مقرّين بعظمة الله وكبريائه قائلين: "الله أكبر" يكونون في الوقت ذاته قد استعدوا لأداء وظيفتهم بقلب صافٍ براق.. ولكم أن تتخيلوا كم ستكون النتيجة نقية مطمئنة! توصل إلى الهدف المرجو إذا كانوا يتذكرون أمورهم وشؤونهم بشعور أنهم سيقفون للحساب على ذلك أمام الله ﷻ.

أ. الصلاة تحقق المساواة بين الناس

إن العبادات تقلل من الفروق في المجتمع إلى أدنى مستوى، وتسهم بشكل كبير في تحقيق المساواة التي طالما حلمت بها البشرية منذ أمد بعيد، والصلاة والصوم والحج والزكاة كلها عبادات تفي بهذه الوظيفة. ومن أهداف نظام العبادة في الإسلام حماية الإنسان من الأمراض النفسية والجسدية وذلك من خلال الحفاظ على سلامته نفسيًا وجسديًا، والغرور والكبر من الأمراض النفسية التي تصيب الصغار الذين لم يكتمل رشدهم بعد، ومن المحتمل كل لحظة أن يُصاب الإنسان بمثل هذه الأمراض، ولذلك ينبغي لكل إنسان أن يعمل دومًا على مكافحتها طوال عمره..

من ناحية أخرى فإن الإخلاص ونكران الذات والتواضع هي فضائل تملأ هذه الثغرات في النفس الإنسانية.. والصلاة هي أشمل العبادات التي تكتنفها كل هذه المعاني.

أجل، إن الصلاة تقضي على المشاعر السيئة الكامنة في الإنسان، وتزيل كل العقبات التي تحول دون التلاحم مع الآخرين.. وليس هناك شيء يجمع الناس؛ غيبتهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم، صغيرهم وكبيرهم ويجعلهم يصطفون بجوار بعضهم في مكان واحد مثل الصلاة.. فحتى رؤساء الدول الذين لا يفارقهم حراسهم أثناء سيرهم ولا يُسمح لأحد بالاقتراب منهم يكونون مضطرين أثناء الصلاة إلى الاصطفاف مع المواطنين العاديين؛ وكما لا فرق بين العبد والسيد في الحضرة الإلهية فلا فرق أيضاً بين من يلبس سترةً غالية وخرقةً بالية في الصلاة، الفرق يكمن في التقوى فقط.

ولقد أرسى الإسلام هذا المفهوم الاجتماعي، ونادى بمثل هذه المساواة بين الناس، فكفل بهذا المفهوم شعوراً بالأنس والألفة انتقل إلى كل مرحلة من مراحل الحياة وهيمنَ عليها، فلا يزدي أحدٌ أحداً، ولا يفرُّ أحدٌ من أحدٍ أو يبتعد عنه، بل على العكس يُصبح الناس بنياناً مرصوصاً في الساحات الاجتماعية كما في الصلاة تماماً.

ب. الصلاة تنظم حياة الفرد والمجتمع

إن الصلاة تنظم حياة المؤمن، وتضفي عليها روح الطاعة، فحينما يقف المؤمنُ خمس مرات في اليوم للصلاة يكون بذلك قد قسّم ساعات

يومه الأربع والعشرين إلى خمسة أجزاء ثابتة، ولذلك تنتظم كل شؤون الحياة تبعاً لهذه الأوقات التي يقف فيها العبد في حضرة مولاه، فيستقيم فكره وتترن حياته.

وفي الوقت ذاته عندما يأتّم المؤمن بالإمام في الصلاة فإنه بذلك يفوّض الإمام في محاوره الربّ الجليل ﷺ، وتكون قراءة الإمام قراءة له، ولا يملك إلا أن يؤمّن على قراءة ودعاء إمامه؛ لأن سيدنا رسول الله ﷺ يقول في الحديث الذي رواه سيدنا جابر رضي الله عنه: "مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ، فَقِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ"^(١٨١)، فإذا ركع الإمام تبعه، وإذا سجد اقتدى به.. وهكذا حتى ينتهي الإمام من الصلاة ويسلم.. ولذلك فالإمامة لها قدر عظيم في الإسلام، ولطالما صلى النبي ﷺ بأصحابه إماماً، ولم يأتّم بأحد طوال حياته إلا في تلك الآونة التي مرض فيها في أواخر حياته وشقّ عليه المجيء إلى المسجد؛ عندها تقدّم سيدنا أبو بكر رضي الله عنه إلى المحراب وصلى بالناس إماماً، ولما لمس النبي ﷺ تحسّناً في صحته حضر إلى المسجد، فعندما أحسّ سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بحضوره رجع إلى الخلف، ولم يشأ أن يصلي إماماً برسول الله ﷺ؛ فإلى جانب كونه نبياً فهو في الوقت ذاته إمامٌ ورئيس دولة، ولا يصح أن يتقدّم عليه أحدٌ.

من جانب آخر فطاعة الإمام ليست بالطاعة العمياء، فلو أخطأ أو نسي؛ يُنصح ويذكر.. فقد روي أن النبي ﷺ تمثل له أمام ناظريه ذات مرة مشهداً من عالم المثال فتضجّر، حتى إنه قطّب حاجبيه، وآل إلى حالة أخرى غير التي كان عليها، والحديث بأكمله يرويه لنا سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه.

(١٨١) سنن ابن ماجه، الإقامة، ١٣؛ عبد الرزاق: المصنف، ١٣٦/٢.

فيقول: "صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَسَلَّمَ فِي رَكَعَتَيْنِ.

فَقَامَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَالَ: أَقْصِرَتِ الصَّلَاةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ نَسِيتَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ".

فَقَالَ: قَدْ كَانَ بَعْضُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: "أَصْدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ؟"

فَقَالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَأْتَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا بَقِيَ مِنَ الصَّلَاةِ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، وَهُوَ

جَالِسٌ، بَعْدَ التَّسْلِيمِ" (١٨٢).

وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ قال لأصحابه: "إِنَّهُ لَوْ حَدَّثَ فِي

الصَّلَاةِ شَيْءٌ أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسُونَ، فَإِذَا نَسِيتُ

فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ، فَلْيَتِمَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ

لْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ" (١٨٣).. وكان الله تعالى قد أنسى نبيه ﷺ ركعات الصلاة

حتى يرسخ روح التذكير في الأمة لإمامها، ويعلمها بما يجب عليها أن

تفعل في هذه المسألة.

فالإمام من حقه أن يتقدم ويؤم الناس، ولكن لو أخطأ سهواً أو عمداً

فعلى الأمة أن تذكّره، وعلى ذلك فإن الصلاة هي أهم عنصر تنظم به

الجماعة، وأسلم شكل تُصاغ من خلاله فكرة التسليم والطاعة.

(١٨٢) صحيح البخاري، الصلاة، ٨٨؛ صحيح مسلم، المساجد، ٩٧، ٩٩.

(١٨٣) صحيح البخاري، الصلاة، ٨٩، صحيح مسلم، المساجد، ٨٩.

جـ. الصلاة تُعلِّم الجود والكرم

لو نظرنا إلى المجتمعات المتقدمة في العالم لرأينا أنها تتمتع ببعض المزايا والمؤهلات التي تميزها عن غيرها، فأكثر المجتمعات مثالية هو ذلك المجتمع الذي تتحقق فيه المساواة بين جميع أفرادهِ صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، والذي يتحرَّك فيه أفرادُه انطلاقاً من شعور الطاعة والمساواة، والذي يحترم فيه أفرادهِ بعضهم، ويجود فيه الأغنياء على الفقراء بما لديهم بشعور السخاء والكرم.. والصلاة هي عبادة جليلة تحوي داخلها كل هذه المزايا، وهي من أعظم صورِ التواضع، وهي دعوةٌ قدسيَّةٌ تزرع في الإنسان فضيلة الجود والكرم.

أجل، إن الإنسان في الصلاة يتدرب على الجود والكرم، فهو بدايةً يضحى بوقته، غير أن كل الأوقات تمضي وتفنى إلا الوقت الذي يخصَّصه الإنسان لصلاته فإنه يظلّ حتى الأبد، ولذلك فإن الوقت يكتسب بالصلاة قيمة عظيمة، ويغدو خطأً نورانياً بين الجود والإمكان، ولنوضح ذلك بمثال: إن الإنسان يُخرج زكاته من المال الذي اكتسبه بعد أن أنفق ثلث وقته تقريباً على الدنيا، بيد أنه لا يُخرج زكاته من رأس المال، بل من الربح الناتج عنه، أما الصلاة فليست هكذا، فكلها تُقدِّم لله تعالى من رأس المال، فلو احتسبنا الوقت الذي يستهلكه المؤمن في الوضوء والذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة خمس مرات في اليوم فسنجد أنه قد خصَّص جزءاً مهماً من رأس ماله البالغ أربعاً وعشرين ساعة لربه ﷻ كل يوم، وهذا يعني أنه يستثمر في الوقت مباشرة، وكأنه يُخرج زكاة ماله من الشجرة وليس من الثمر الذي تنتجه، وهكذا فإن المؤمن بهذا الجود والكرم يحتفظ بالوقت الذي أنفقه في الصلاة إلى الأبد.

أجل، إن من يرتاد المسجد خمس مرات في اليوم يتشكل لديه شعورٌ
بالجود والكرم حتى إنه يقدم على إنفاق كلِّ ما يملك في سبيل الله، وقد
قطع على نفسه عهداً بفعل ذلك خمس مرات في اليوم.. وإنا والحمد
لله نشهد اليوم آلافًا من الأفراد أغنياء وفقراء، شبابًا وشيوخًا يسعون وراء
بناء مجتمعٍ يحبه الله ﷻ.





الفصل السابع
صلاة الجمعة



(١)

أهمية صلاة الجمعة

إن صلاة الجمعة لا تختلف عن الصلوات الأخرى من منطلق كونها صلاة؛ أي إنها تشتمل أيضًا على قيام وركوع وسجود وقراءة للقرآن.. بعبارة أخرى: إن الإنسان عندما يصلي يحلّق بجناحيه في حالاتٍ من الصعود حتى يرتقي بمعراجه إلى ربه ﷻ، ويذهب خيالاً وفكرًا إلى المرشد الأكمل ﷺ الذي عاش قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، فيقف وراءه ويقتدي به.. وكما أننا نقسّم ساعات اليوم الأربع والعشرين إلى خمسة أجزاء نديرها بخمس صلوات فإننا نقسّم الشهر بالجمّع، ونصوغه في شكلٍ، ونشر عليه النور.. وكذلك نضبط ساعتنا الأسبوعية وفقًا للجمعة، وعندما تحين اللحظة نتوجّه إلى ربنا ﷻ بكلّ مشاعرنا ولطائفنا وقلوبنا؛ لأن يوم الجمعة هو خير أيام الله، وفي ذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ معدّدًا فضائل هذا اليوم: "إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الْأَيَّامِ، وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْأَضْحَى وَيَوْمِ الْفِطْرِ، فِيهِ خَمْسُ خِلَالٍ، خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللَّهُ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللَّهُ فِيهَا الْعَبْدُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، مَا مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضٍ، وَلَا رِيحٍ، وَلَا جِبَالٍ، وَلَا بَحْرٍ، إِلَّا وَهْنٌ يُشْفِقُنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ" (١٨٤).

(١٨٤) سنن ابن ماجه، الإقامة، ٧٩؛ مسند الإمام أحمد، ٤٣٠/٣.

وعندما يُكْمَلُ اليومُ في هذا العالم دورته يحدث نوعٌ من التحوّل في عالم المجرات، ويوم الجمعة في هذا العالم هو اليوم الذي هبط فيه الإنسان إلى الأرض كما ذكر سيّد المرسلين ﷺ، ولذلك حينما تتوافق أيام الجمع والسبت والأحد وغيرها في عالم البشر مع الأيام في عالم المجرات تنفك الشفرة وكأن أسنان القفل قد تلاقت ببعضها، عندها فقط يتمكّن الإنسان من الوصول بقلبه إلى العرش والفرش، لكن عندما يقع اختلاف بين هذه الأيام لا يستفيد الإنسان من الأسرار الوافدة من الفيض الأقدس.. من أجل ذلك لا يستفيد من هذه الأسرار اليهود والنصارى لاحتفائهم بيومي السبت والأحد، أما الأمة المحمدية فتحتفي بيوم الجمعة بناء على أهميته، وتظلّ تشوّف كلّ أسبوع إلى هذا اليوم، وستظل على ذلك حتى يوم القيامة إن شاء الله، وقد عبر النبي ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله:

"أَصْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ لَنَا تَبِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِي لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ" (١٨٥).

أجل، لا يمكن السفر بمركبة عاطلة، ويتعدّر كذلك قطع المسافات والوصول إلى الهدف والمقصود بنظامٍ فاسدٍ، لقد أتينا من بعدهم من حيث الوقت والزمان، ولكننا سبقناهم، ونجحنا في السباق، ولهذا فإن



صلاة الجمعة هي أشمل وأوسع صلاة بين الصلوات الأخرى، ومن ثم فعلى المؤمن أن يعرف قيمة هذه الصلاة وقدرها، وأن يسعى إلى أدائها مهما كلفه الثمن.

أجل، إن صلاة الجمعة يكتمل بها الأسبوع، وفيها يرتقي الإنسان إلى مكانة تقربه من ربه ﷻ، بفضلها يستفيد الإنسان من رحمة الله ﷻ؛ بتعبير آخر: بعد أداء الصلوات لمدة ستة أيام يرتقي العبد في يومٍ محدّد إلى نقطة معينة حتى ينال الجائزة، حيث يستفيد ذوو الشعور وأرباب العشق الإلهي من بركات وفيوضات يوم الجمعة، ولذلك فإن الجمعة هي تعبيرٌ عن وصول الإنسان إلى نقطة معينة ينهل فيها من ربه أشياء معينة نتيجة هذه الرحلة الأسبوعية، وقد عبر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله: "الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغَشَّ الْكَبَائِرُ" (١٨٦).

وكما لاحظنا فإن سيدنا رسول الله ﷺ يقسم اليوم والأسبوع والسنة إلى أقسام وأجزاء معينة، مبيّناً أن الصلوات التي تؤدّى في هذه الأجزاء تنير الأجزاء الأخرى التي تمرّ دون صلاة.

يقول ربنا ﷻ في كتابه الكريم موجهًا الأمر إلى المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الجمعة: ٩/٦٢)، وكأنه يقول: "إن الذي يدعوكم هو الله المعبود المطلق، المقصود بالاستحقاق، وإنه يريد بدعوته

لكم أن يرفع قدركم، ويقربكم منه"، وكما يوقع أصحاب العرس أسفل دعوة العرس فإنه يوقع تحت هذه الدعوة بقوله: "الله أكبر، الله أكبر...".
 والمقصود بكلمة "النداء" في الآية الأذان المحمدي الذي يرتفع من فوق المآذن خمس مرّات في اليوم حتى يبلغ عنان السماء.. أما المقصود بالذكر فهو الصلاة التي تبدأ بالخطبة، ولقد كان هذا الأذان يُرْفَع في عهد النبي ﷺ بعد ارتقاء الإمام المنبر، ولقد ظلّ هذا الإجراء معمولاً به في عهد سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر ؓ، ولكن مع زيادة أعداد المسلمين واتساع المدن تعذّر سماع الأذان، فأمر سيدنا عثمان ؓ بإلحاق أذان آخر إلى الأذان الأول حتى يسمع الناس، وتم إقرار هذا الأذان بالإجماع السكوتي، وأُبقِيَ على الأذان الأول تبرُّكاً واقتداء بالسنة.

ولقد فهم بعض الصحابة ؓ "السعي" في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بمعنى الإسراع والجري، إلا أن سيدنا عبد الله بن مسعود ؓ كان يقول: "لَوْ قَرَأْتُهَا ﴿فَاسْعَوْا﴾ لَسَعَيْتُ حَتَّى يَسْقُطَ رِدَائِي" (١٨٧)، من هنا أدرك الصحابة ؓ أن هذه الكلمة تعني السير في شوق إلى المسجد، إذ من الضروري الذهاب إلى المسجد في وقارٍ وسكينةٍ، ربما ترغبون في الإسراع من الداخل، ولكن لا بدّ أن تتحكّموا في مشاعركم وتذهبوا إلى المسجد في تَوَدَّةٍ وَجِدِّ ووقارٍ يليق بالمؤمن، فما أدركتم من الصلاة فصلّوا، وما فاتكم فأتّموا اتباعاً لقول الرسول الكريم ﷺ: "إِذَا أُقِيمَتِ

الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعُونَ، وَأَتُوهَا تَمْشُونَ، عَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتِمُوا^(١٨٨).

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم حينما يُنادى للصلاة يذهبون إليها في عشقٍ وشوق، وكان الأذان المحمدي ينعش قلوبهم، ويريحهم من خطوب الحياة الخانقة.. والأذان في الوقت ذاته هو شعار الإيمان، لأن المؤمن إذا تلقى دعوة من قبل الله أجابها دون تراخٍ، وهكذا يترجم القرآن لهذه الحالة الروحية.

وثمة أمر آخر يسترعي الانتباه في الآية وهو: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، إن أكثر ما يجذب الإنسان في الدنيا هو السعي وراء المزيد من الربح، غير أن التاجر من أجل الصلاة يدع تجارته التي هي أكثر الأعمال جذباً له، ويأتي إلى المسجد، ويترك الموظف مكتبه ويسرع إلى المسجد، ويغلق العامل حانوته مصغياً إلى الأذان المحمدي، ويذهب إلى المسجد...

وفي ختام الآية يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي إن من الخير لكم أن تذرُوا أعمالكم إرضاءً لربكم وتأميناً لسعادتكم الآخروية، وأن تتوجهوا لأداء صلاة الجمعة التي هي من أسمى النعم الإلهية على مآدبة الرب التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.. بمعنى آخر إذا شعرتم بعمقٍ بما تعنيه أوامر القرآن، وأحسستُم بالنشوة التي تُحدثها الصلاة في قلوبكم فلا حاجة إذًا لإخباركم بفضيلة الجمعة، فأنتم بها أعلم، بناء على ذلك ذروا البيع إذا نودي للصلاة، وأسرعوا إلى المسجد في جدٍّ ووقارٍ يليق بالمؤمن.

(١٨٨) صحيح البخاري، الجمعة، ١٨؛ صحيح مسلم، المساجد، ١٥١.

وفي الآية التالية يقول ربنا ﷺ: ﴿فَإِذَا فَضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة الجمعة: ١٠/٦٢)، وفي تفسير معنى هذا الفضل يقول سيدنا ابن عباس ؓ: "فانتشروا في الأرض لئيس لطلب الدنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله" (١٨٩).. وإذا تناولنا الآية بمعنى أشمل نقول: أدوا صلاتكم، وصفوا قلوبكم، وانتشروا في الأرض شاعرين بالمسؤولية الملقاة على عاتقكم، وانهلوا من أفضال ربكم الدنيوية والأخروية، واملؤوا حياتكم نورًا ويمنًا وبركة؛ لعلكم تفلحون وتستقيم حياتكم.

وفي نهاية السورة يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سورة الجمعة: ١١/٦٢)، وفي هذا إشارة إلى حادثة وقعت في عهد النبي ﷺ.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ بينما كان يخطب يوم الجمعة، إذ قدمت عير إلى المدينة فابتدرها أصحابه حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لو تابعتكم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي النار"، فنزلت هذه الآية (١٩٠)، وفي رواية أخرى يقول ﷺ في نفر الذين ظلوا في المسجد ولم يرحوه: "لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة من السماء" (١٩١)، والظاهر أن هذا التصرف من الصحابة ﷺ يرجع إلى عدم إدراكهم بعد لضرورة

(١٨٩) البغوي: معالم التنزيل، ٣٤٥/٤؛ السيوطي: الدر المنثور، ١٦٥/٨.

(١٩٠) البغوي: معالم التنزيل، ٣٤٥/٤؛ السيوطي: الدر المنثور، ١٦٥/٨.

(١٩١) أبو يعلى: المسند، ٤٦٨/٣؛ الثعلبي: الكشف والبيان، ٣١٧/٩.

الاستماع للنبي ﷺ وهو على المنبر، ولعدم علمهم بقدر كافٍ بمسألة آداب الخطبة والجمعة.

أجل، إنه لَأَمْرٌ جَلَلٌ أن ينصرف الناس عن النبي ﷺ وهو يخطب؛ ولذا عوتب الصحابة عتاباً شديداً، غير أن ثبات بعض الصحابة وعدم انصرافهم عنه ﷺ لإدراكهم دقة الأمر قد حال دون أن يمسه عذاب الله، ولذلك روي أن الصحابة ﷺ بعد ذلك كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ وكأن أرجلهم مقيدةٌ بالسلاسل، وكانوا يجلسون للخطبة جلوساً يشبه صورة الصلاة، حتى إن سعيد بن جبير ﷺ يقول: "كانت الخطبة بِمَنْزِلَةِ الرُّكْعَتَيْنِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ" (١٩٢).

حاصل القول: إن يوم الجمعة هو سيد الأيام، وسيظل ثابتاً محافظاً على مكانته بين بقية أيام الأسبوع التي تتخذ وضعيتها وفقاً له، فأيام العيد وعرفة وغيرها تتغير دائماً وتترامن مع أوقات مختلفة، ولهذا يولي المؤمنون أهمية كبرى بالجمعة أكثر من الأعياد، غير أن هناك من يجد صعوبة في حضور صلاة الجمعة مرّةً واحدةً في الأسبوع ولا يحضر إلى الجامع ولا الجماعة إلا من العيد إلى العيد من أجل اللهو والتسلية، ولكن أين الأعياد من صلاة الجمعة؟! فقد كان الصحابة ﷺ يعطون يوم الجمعة من الأهمية ما يتجاوز مائة ضعف الأهمية التي يولونها للأعياد، لأن رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوُنًا بِهَا، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ" (١٩٣)؛ أي إن عشق العبادة يموت في قلب ذلك الإنسان، ويُحرم من

(١٩٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١١٤/١٨.

(١٩٣) سنن أبي داود، الصلاة، ٢٠٩؛ سنن النسائي، الجمعة، ٢.

النشوة التي تُحدثها الصلاة في بقية أيام الأسبوع، ومثل هذا الشخص لا يحب الله تعالى، ولا يقدر رسولَ الله ﷺ، وبالتالي يتعذر عليه أن يتبوأ مكانة خلفه ﷺ، ويأتي أمام الله تعالى وكأنه مجرور بحبل في عنقه.

وفي حديث آخر ينذر النبي ﷺ الذين لا يحضرون صلاة الجمعة بقوله: "لَيَنْتَهَيْنَ أَقْوَامٌ عَنْ وُدِّهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ" (١٩٤).

أجل، إن صلاة الجمعة تتمتع بهذا القدر من الأهمية، وما سقناه من أحاديث يشير إلى الحساسية التي كان يبديها فخر الكائنات ﷺ تجاهها، أو بالأحرى تُعبّر عن عِظَمِ وأهمية ما أمره الله ﷻ بتعليمه وتبليغه في هذا الشأن.





(٢)

صلاة الجمعة عبادة شمولية

يوم الجمعة هو اليوم الذي يستفيد فيه الجميع من واردات الحق تعالى من خلال التوجه إليه، وكان يسمى هذا اليوم في الجاهلية بـ"عزوبة"، والجمعة اجتماع؛ أي استعداد للعرض أمام الله، وتهيؤ للاستجواب، فيوم الجمعة هو يوم المثل أمام الله تعالى لإجراء محاسبة جماعية بعد أداء الصلوات الخمس اليومية، وهو يوم الاعتراف بإذعاننا لأوامر الحق ﷻ.

ولا شك أننا عندما نهرع لتلبية هذه الدعوة منصرفين عما نعتبره مصدر كسبنا وعيشنا فإننا نفكر في عظم الذروة التي سنصل إليها من جزاء ذلك؛ لأن ملائكة السماء يشاركون جماعة الأرض في أداء صلاة الجمعة، وحينها ترتفع أدعية الجماعة مع أدعية الملائكة إلى الله ﷻ، ومهما كانت أدعيتنا قاصرة فإننا نرجو أن تحظى أدعيتنا بالقبول في زمرة هذه الجماعة الطاهرة.

أجل، الجمعة ليست عبادةً فرديةً، وإنما هي توجّه قلبي جماعي إلى الله تعالى، وكأن العبد لا يستطيع بمفرده أن يؤدي شكر نعم الله تعالى عليه، فيقول: "اللهم إنني لا أستطيع ولا أقوى وحدي على شكر النعم التي أسبغتها علينا وبيئتها لنا قائلاً: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (سورة

التَّخْلِ: ١٨/١٦)، ولهذا فإننا نعرض عبوديتنا عليك وشكرنا لك في صورة جماعية، فلا تلتفت رباه إلى صوتي الضعيف، ولكن انظر إلى وقوف هذه الجماعة وقولها بصوتٍ جهوريٍّ أجشّ: الله أكبر، وإلى ركوعها قائلةً: الله أكبر، وإلى سجودها قائلةً: الله أكبر، وإلى تسبيحها في السجود قائلةً: سبحان ربي الأعلى.. اللهم إنني عزمت على أن أؤدّي شكر نعمك التي لا تُحصى بصوتِ هذه الجماعة الجهوري.

من جانب آخر فإن الجمعة هي مرآة وانعكاس للأسماء الإلهية، وعلى ذلك فهي عبارة عن إجراءٍ إلهيٍّ يتحقّق من خلاله فهرسة كلّ المخلوقات، وهذا يعني تكثيف الشيء وضغطه، فإذا حان وقته اتسع وانتشر، فيؤدّي وظائف تفوق أضعاف وظيفته السابقة، وعلى ذلك فالجمعة تحمل معنى جامعًا لكلّ الأيام، وكما تقسم الجمعة بين الأسابيع فإنها تقسم الشهور والسنين، وبذلك تنشر النور طول السنة وعلى مدى العمر وعلى مرّ الزمن، وفي الجمعة أيضًا نشعر بنشوة الملائكة القائمين الراكعين الساجدين طوال حياتهم.



(٣)

أمور يجب مراعاتها في الجمعة

ونظرًا لأهمية صلاة الجمعة وُضعت بعض الشروط التي لا تُقبل صلاة الجمعة بدونها؛ أولها كما ذكرنا سابقًا: لا بد من أداء المسلم صلاة الجمعة في جماعة وليس منفردًا؛ حيث إن صلاة الجمعة تؤدى مع الجماعة، وخطبتها يُستمع إليها مع الجماعة.

أجل، إن الجمعة هي صلاة الجماعة، ولذلك فإننا عند الذهاب إليها نلبس أجمل ثيابنا وأطهرها، ونتطيب بأزكى عطورنا وأجملها، ونقدمها إلى ربنا ونحن على تلك الهيئة.. ويوم الجمعة هو آخر الأيام الستة التي خُلِق فيها الكون، والأيام في العالم الكبير تتمثل في أطوارٍ تمتد من خلق السماوات والأرض حتى اللحظة التي تكون فيها الأرض مهياًً لدوام الحياة، وتسمى هذه الأطوار عند الله بالأيام الستة.. يقول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (سورة الأعراف: ٥٤/٧).

وفي الحديث يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: "خَلَقَ اللَّهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ

مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ،
فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ" (١٩٥).

ولقد أخطأ اليهود في فهم هذه المسألة، فأسندوا لله التعب قائلين: "إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ففرغ من الخلق يوم الجمعة، واستراح يوم السبت"، أما المسلمون فلم يقفوا في مثل هذه الهاوية بفضل توجيهات الرسول الأكرم ﷺ.

ووقت الجمعة هو وقت الزوال، أي الوقت الذي بلغ فيه البشر رشدهم، وقد جعل النبي ﷺ هذه الصلاة في وقت الزوال إذعاناً لأمر الله تعالى، فالتوجه إلى الله تعالى في هذا الوقت يُعدّ وسيلةً إلى رؤيته، ويصوّر لنا النبي ﷺ ذلك فيقول: "إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا" (١٩٦).

وثمة شرط آخر، وهو تخصيص صلاة الجمعة بمكان معيّن، لا كباقي الصلوات، يقول النبي ﷺ في ذلك: "وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ" (١٩٧)، أما الجمعة فليست هكذا، فلا يصح أن يغرز إنسانٌ عصاً على رأس جبلٍ يتخذها سترةً له ويصلي الجمعة، فالجمعة لا تؤدّى إلا بشروطٍ معينة، كأن تكون في مسجدٍ وجماعة.

(١٩٥) صحيح مسلم، صفات المنافقين، ٢٧؛ مسند الإمام أحمد، ٣٢٧/٢.

(١٩٦) صحيح البخاري، الأذان، ١٢٩، الرقاق، ٥٢؛ صحيح مسلم، الزهد، ١٦.

(١٩٧) صحيح البخاري، التيمم، ٤١؛ صحيح مسلم، المساجد، ٣، ٤، ٥.



فضلاً عن ذلك نبه النبي ﷺ على أمورٍ أخرى لا بدّ من الإتيان بها يوم الجمعة.. فمثلاً ذات يومٍ شديد الحرارة والنبي ﷺ يخطب الجمعة امتلاً المسجد برائحة عَرِقِ المصلّين الذين كانوا يلبسون الصوف، وقد تركوا أعمالهم الشاقّة وجاءوا إلى المسجد للصلاة، فأوصى النبي ﷺ الصحابة ﷺ بالاغتسال والتطيّب وارتداء أجمل الثياب عند قدومهم إلى المسجد، ونبه على ذلك في حديث له قائلاً: "الغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَأَنْ يَسْتَنَّ، وَأَنْ يَمَسَّ طَيْبًا إِنْ وَجَدَ"^(١٩٨)، وقد تناول الفقهاء هذه المسألة باستفاضة؛ فأخذ بعضهم كلمة "واجب" الواردة في الحديث كما هي، ونصّوا على وجوب الغسل عند القدوم إلى المسجد، وارتأى بعضهم أن الأمر ليس للوجوب وإنما للندب.

وجاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ، بَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَادَاهُ عُمَرُ: أَيُّهُ سَاعَةٌ هَذِهِ؟ قَالَ: إِنِّي سُغِلْتُ، فَلَمْ أَنْقَلِبْ إِلَى أَهْلِي حَتَّى سَمِعْتُ التَّأْذِينَ، فَلَمْ أَزِدْ أَنْ تَوَضَّأْتُ، فَقَالَ: وَالْوُضُوءُ أَيْضًا، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ بِالْغُسْلِ^(١٩٩).

كان الصحابي ﷺ يعلم جيّداً أن الغسل يوم الجمعة ليس بفرض، وليس من شروط الجمعة، ونظراً لأنه كان يدرك أن قوله ﷺ لا يحمل معنى الإلزام فقد عدّ هذا الأمر فضيلةً، ولذلك لم يزد على الفرض وهو الوضوء، لكن الصحابة ﷺ لم يكونوا ليَدْعُوا أحاهم هكذا، بل كانوا

(١٩٨) صحيح البخاري، الجمعة، ٢-٥، صحيح مسلم، الجمعة، ١-١٢.

(١٩٩) صحيح البخاري، الجمعة، ٢؛ صحيح مسلم، الجمعة، ٣-٤.

ينذرونه وينبهونه على أيّ تقصيرٍ يبدر منه إزاء أدنى الشريعة؛ لم يكن بينهم استياءٌ أو امتعاض، ولذا كان الواحد منهم يكشف أخاه بعييه وينذره بارتياح وبلا خوف أو خجل، لأنهم كانوا على الفطرة، وعلى استعدادٍ لتلقّي أيّ انتقادٍ من إخوانهم.. ولا شك أن هذه المسألة يلزم أن تكون طبيعية، بعيدة عن الرياء والسمعة، وأعتقد أن مجتمع اليوم لم يعد قادرًا على تحمُّل مثل هذا، وكأنّه بات من غير الممكن أن يصارح أحدٌ أخاه بعييه، لأن الجميع لا يرى نفسه مذنبًا ألبتة، ولهذا إن واجهت أحدًا من الناس بشيءٍ ولو قليلًا تمرّد وأبدى ردّ فعلٍ معاكسًا.. ربما يسري هذا الأمر علينا أيضًا، فرغم أننا ذكرنا مرارًا وتكرارًا أننا على استعدادٍ لتقبّل أيّ نقدٍ يُوجّه إلينا، فإننا أحيانًا ما نتمرّد، ونأنف من قبول ذلك.

والعصر الحالي هو عصر الأناية وحبّ الذات، وكأنه لم يعد بالإمكان مصارحة أحدٍ بعييه.. بل ويُخَيَّلُ إليّ أن فخر الكائنات ﷺ لو صعد المنبر وواجهنا بعيوبنا لانزعجنا من هذه الكلمات التي تلامس جروحنا، فالمسألة صعبة للغاية، فيا ليتنا نتخذ أصدقاء نطلب منهم أن يكشفونا بعيوبنا دون خجل! وتكون لدينا الصلاحية ذاتها لمصارحتهم بعيوبهم! ويا ليتنا نستطيع التحكّم بأنفسنا كالصحابة! ولكن هيهات! لقد كان الخليفةُ يسأل الرجل عن الغسل الذي أمر به النبي ﷺ من أجل الجمعة، ولا يكفي بمجيئه إلى المسجد بوضوئه.. وأحيانًا كان أحد الرعية يبتدر الخليفة بقوله: "من أين لك هذا البُرد الذي ائترزت به، وقد نالك بُرد واحد بكبّية المسلمين، وأنت رجل طوال لا يكفيك بردٌ واحد؟!"، ومع ذلك لم يكن أحد ينزعج من محاسبة أخيه له، فكان الخليفة يوضح من

أين جاء بهذا البرد بشكلٍ معقولٍ، فيزيل الشكَّ والشبهة من قلوب رعيته، وكان الصحابي أيضًا يتقبل خطأه، ويؤدي أسبابه المشروعة ويشرحها.



(٤)

أول صلاة جمعة

إن الالتقاء بالناس والاختلاط بهم والفرح لأفراحهم والحزن لأتراحهم هو مقتضى التحضر، ولذلك كان الأنصار بالمدينة المنورة قبل هجرة المهاجرين إليها يقولون فيما بينهم: إن اليهود والنصارى يجتمعون ببعضهم البعض كل سبعة أيام، فتعالوا بنا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله ونعبده ونشكره.. وبعد ذلك اجتمعوا في اليوم المحدد في منزل أسعد بن زرارة رضي الله عنه، ولذلك روي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك - وكان قائد أبيه بعد ما ذهب بصره - عن أبيه كعب بن مالك ذي السيف القاطع واللسان البليغ، أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة، قال: "لأنه أول من جمّع بنا في هزم النبيت من حرة بني بياضة في نقيع، يُقال له: نقيع الخضّات"، قلت: كم أنتم يومئذ، قال: "أربعون" (٢٠٠). بعد ذلك جاء الأمر كتابياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبدأ مصعب بن عمير رضي الله عنه يصلي بالناس الجمعة.

نفهم من كل هذا أن التقاء المسلمين ببعضهم البعض ولو يوماً واحداً في الأسبوع يعبدون الله فيه معاً، ويثون فيه همومهم ومشاكلهم ضرورة ملحة ومسألة اجتماعية وضرورية للغاية، وكيف لا؟! وقد أدرك

(٢٠٠) سنن أبي داود، الصلاة، ٢٠٩؛ سنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، ٧٨.

المؤمنون أهمية هذا الأمر، وآمنوا بضرورة الاجتماع في عهدٍ خفقت فيه راية الإسلام حديثاً، فكانوا يصلّون الجمعة رغم عدم تلقيهم أمراً بعد بهذا الخصوص.

وبحسب قول ابن حجر الهيتمي: "فقد فُرِضت صلاة الجمعة وكُلِّف بها رسول الله ﷺ وهو لا يزال في مكة"^(٢٠١)، ولا بد أن لدى هذا الإمام الجليل سنداً قد اعتمد عليه في ذلك، ولكن ليس من الممكن فهم معنى هذا التكليف من الله تعالى في زمان ومكان لا تتوافر فيه الشروط لأداء الجمعة؛ فمن البدهي أن النبي ﷺ لن يستطيع أداء صلاة الجمعة في تلك الفترة التي لم تنتهياً فيها الظروف، ولكن ما نعرفه في هذا الخصوص أن النبي ﷺ لم يصل الجمعة ولو مرة واحدة في مكة، فالجمعة صلاةً جماعيةً، تتطلب في البداية إماماً عاشقاً للحق قائماً بأعمال الخلق، وجماعةً من خلفه تطيعه وتُدعن للحق.

ومن ثم يكون من الراجح أن النبي ﷺ لم يُكَلَّف بصلاة الجمعة في مكة لعدم توافر هذه الشروط، لكن عندما أُذِن لرسول الله ﷺ بالهجرة وسلك طريقه إلى المدينة ووصل إلى "قبا" أولاً، وبقي فيها أربعة أو خمسة أيام بنى فيها مسجد قبا، ثم رحل عنها يوم الجمعة، فلما وصل إلى وادي بني سليم بن عوف نزل عليه جبريل بالأمر، فصلوا الجمعة هنالك؛ لأن رسول الله ﷺ قد وجد أتباعاً له الآن، وبات بإمكانه الإعلان عن صلاة الجمعة التي هي شعيرة من شعائر الإسلام، كما أن المدينة التي سيؤسّسها تدخل ضمن حدود دولته، وسيصير باستطاعته

(٢٠١) انظر: ابن حجر الهيتمي: تحفة المحتاج، ٤٠٥/٢.

صكّ العملة، وطبع الطغراء، وسيصبح هو الإمام، وستكون له جماعة ينصتون له ويستمعون إلى أوامره.

ولذلك كان أول عملٍ قام به النبي ﷺ وصحابته ﷺ عند دخولهم المدينة في أمانٍ وسعادةٍ وسرورٍ استبشارًا بيوم الجمعة هو شراء أرضٍ وإقامة مسجدٍ عليها، بعد ذلك كانت صلاة الجمعة تقام في هذا المكان، وسواءً أطلقنا على ذلك المكان اليوم المسجد النبوي أو الروضة الشريفة فإننا لا نستطيع مطلقًا التعبير عن الماهية الحقيقية لهذا المكان بألفاظٍ أخرى؛ لأن تراب المكان الذي يرقد فيه النبي ﷺ لا يعدله أيُّ ترابٍ في العالم، فنحن لا ندرى أمن الجنة هو أم خُلِقَ على ماهية خاصّة من نور الله.. يقول النبي ﷺ: "لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَسْجِدِي"^(٢٠٢)؛ وذلك لأن المسجد النبوي بناه سيد البشر سيدنا رسول الله ﷺ، فكان ﷺ يشارك صحابته من أمثال بلال وعمار ﷺ فيخلط الطين، ويحمل الحجارة على ظهره، ويكسر الصخور بمعوله، وبذلك وُضِعَتْ قواعد المسجد على الخير، وغدت الركعة الواحدة فيه تعادل ألف ركعةٍ فيما سواه.



(٥)

وقت الإجابة المنشود يوم الجمعة

الصلاة هي شراع سفينة الدين، مثل البوصلة الدالة على الجهة المنشودة؛ بعبارة أخرى: إن الصلاة ترقى بالإنسان إلى المعراج، وهي حبلٌ متينٌ أحد طرفيه بيد الإنسان، والآخر بيد الله، أما زبدة الصلاة التي تحوز كل هذه الأوصاف فهي صلاة الجمعة التي تعبر عن انفعالات الضمير المجتمعي ومشاعره؛ ولذلك لا بدّ من إدراكها بقلبٍ يقظٍ، يقول رسول الله ﷺ عن يوم الجمعة: "فِيهِ سَاعَةٌ، لَا يُؤَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ" (٢٠٣)، وقد اختلفت آراء الصحابة والتابعين ومن بعدهم الفقهاء العظام في تحديد وقت هذه الساعة، غير أنني أتصور أنها كليلة القدر تمامًا، فكما يتغيّر وقت ليلة القدر من رمضان إلى رمضان آخر فكذلك هذه الساعة يتغير وقتها يوم الجمعة، إلا أن الفوز بهذه الساعة منوطٌ بمعايشة يوم الجمعة كليًا، والتوجّه إلى الله تعالى تمام التوجه.

ولذلك كان النبي ﷺ يقضي هذا اليوم مع صحابته بوعيٍ وشعورٍ تامٍّ وكأنه يقوم بمعراجٍ جماعيٍّ، فأملنا في الحق تعالى أن توافّق أذعيتنا هذه الساعة ويكتب لها حسن القبول.

(٢٠٣) صحيح البخاري، الجمعة، ٣٧، الطلاق، ٢٤؛ صحيح مسلم، الجمعة، ١٣-١٤.

"يَذْكُرُ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وَجَاهَ الْمُنْبَرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا:

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلَكَتِ الْمَوَاشِي، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُعِثُّنَا.

قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا".

قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً وَلَا شَيْئًا وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ، وَلَا دَارٍ قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ الثُّرَيْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمَسِّكُهَا.

قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ حَوِّالِنَا، وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْأَكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْأَجَامِ وَالظَّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ".
قَالَ: فَانْقَطَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ" (٢٠٤).

أجل، رفع رسول الله ﷺ يديه داعيًا، فاستجاب الله دعاءه، ونحن كذلك إذا أصبنا هذه الساعة ودعونا الله فيستجيب الله دعاءنا أيضًا.



الفصل الثامن
صلاة النوافل



(١)

فضل صلاة النوافل

أ. تكمّل الفروض

شُرعت صلاة النوافل جبرًا للخلل الحاصل في كمال الفرض، وهذا يعني أنها تؤدّى لجبر أي نقصٍ يعتري الفروض، ومن ثمّ فإنّ أداءنا للصلوات الخمس المفروضة والسنن الرواتب التابعة لها؛ يداوي كل أنواع الجراح الحاصلة في حياتنا الروحية والمعنوية، ويكفّر ذنوبنا، ويساعدنا في دخول الجنة وذلك إذا اعتبرنا تلك النوافل تكميلًا لما نقص من الفريضة، ويعبر النبي ﷺ عن هذه الحقيقة في الحديث الذي رواه حُرَيْثُ بن قَبِيصَةَ رضي الله عنه حيث قال: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ قُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَجَلَسْتُ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقُلْتُ إِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ عز وجل أَنْ يُسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَحَدَّثَنِي بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ: انظُرُوا، هَلْ لِعِبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ" (٢٠٥).

(٢٠٥) سنن الترمذي، الصلاة، ٣٠٥؛ سنن النسائي، الصلاة، ٩.

ب. النوافل وسيلةً للقرب من الله

ومن فضائل النوافل أيضًا أنها تُعدّ وسيلةً للقرب من الله ﷻ، والفوز بالقرب من الحق تعالى يعني الدخول ضمن دائرة محبته، ويعبر النبي ﷺ عن هذه الحقيقة فيقول في الحديث القدسي: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" (٢٠٦).

أجل، إن العبد يتقرب من الله بالنوافل، ويحظى بمحبته، وإذا أحب الله عبدًا حبب فيه الآخرين، ففي الحديث الشريف: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيْلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ فَلَانًا فَأَحْبَبْتُهُ، فَيَحْبِبُهُ جَبْرِيْلُ، ثُمَّ ينادي في السَّمَاءِ فيقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحْبِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضِّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيْلَ فيقول: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيْلُ، ثُمَّ ينادي في أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوَضِّعُ لَهُ الْبُغْضَاءَ فِي الْأَرْضِ" (٢٠٧).

وهذا يعني أن العالم الإسلامي الذي يبلغ تعداداه اليوم ما يزيد على مليار ونصف إن لم يكن قد تلقى التفاتاً وتلطفاً ورعايةً من الله تعالى

(٢٠٦) صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨؛ مسند الإمام أحمد، ٢٥٦/٦.

(٢٠٧) صحيح البخاري، بدء الخلق، ٦، الأدب، ٤١؛ صحيح مسلم، البر، ١٥٧.

فهذا يرجع إلى أنه لم يستطع أن يكون محظياً بحبه ﷺ.. إن أملنا جميعاً أن يشرف الله تعالى كل من يأتي إلى المسجد ويضع جبهته على الأرض بقربه الإلهي، ولكن غالباً ما يكون القادم إلى المسجد في وادٍ والقرآن الكريم والتوجه الصادق في وادٍ آخر، فيأتي المسجد غير مدرِكٍ معناه، ومثل هذا الوضع لا يتناسب ألبيته مع المسجد، فالمسجد لا يؤتى إليه إلا بعقلٍ يقظٍ، وقلبٍ خاشعٍ، وعينٍ دامعةٍ، فلا يصح أن تختلط النوايا الأخرى بالوقت المخصص لله تعالى ولا بالعبادات التي تؤدى فيه، فإن لحظةً من وقتٍ تُستغل على هذا النحو تفضل حياةً تدوم آلاف السنين.

ج. ترفع الدرجات

النوافل ترفع درجات العبد؛ على اعتبار أنها تكفر بعض ذنوبه، ولهذا فإن لكل نافلة قيمة خاصة بها، وفي مثل هذا يقول النبي ﷺ فيما يتعلق بصلاة الضحى: "يُضِيحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى" (٢٠٨).

أجل، يحتوي جسم الإنسان على مئات من المفاصل، ولا شك أن عمل هذه المفاصل بانتظامٍ نعمةٌ، وانحناء الإنسان وقيامه بواسطتها بارتياحٍ نعمةٌ أخرى، فلا يخفى عليكم مدى صعوبة وألم القيام والانحناء بالنسبة لشخص مبتلى بمرض الديسك مثلاً، وأعتقد أنه لا داعي لأن أقول:

كم أن القيام والقعود بارتياح نعمة عظيمة في نظر من يعانون من مرض الروماتيزم أو الذين يتلَوون وجعًا بسبب خصرهم وسيقانهم.. تخيلوا ماذا سيحدث لو كانت مفاصل الأصابع في أيدينا تتكوّن من بنية عظمية لا تتحرّك؟ والحال أن هناك العديد من مثل هذه المفاصل في أجسادنا.

نعم، إن النِّعمَ نغمرنا من رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا، وإن كنا لم نكسبها بذاتيتنا ولم توهب لنا بناءً على لياقتنا وجدارتنا، ولذا فإن كلّ نعمة تستحقّ الشكر عليها، فمهما حاولنا فلن نستطيع أن نوّدي شكر نعمة فتح أعيننا وإغماضها فقط، وإني كلما تذكّرت ذلك الصديق الذي جاءني وجلس بجانب لساعات لا يستطيع أن يحرك جفنيه لشلل أصاب أعصاب عينيه ترتعد فرائصي وأشعر بعظمة نعمة القدرة على فتح العين وإغماضها، ولقد قال لي هذا الصديق إنه لا يستطيع إغماض عينيه حتى عند نومه إلا أن يضع يديه عليهما.

وماذا عن أعضاء الجسم الأخرى! العين نعمة، والأذن نعمة، والأنف نعمة، وغير ذلك الكثير، ولقد ركّب ربنا ﷻ في أجسامنا هذه الأعضاء التي تتشكّل من اللحم والعظم، وعهد إليها بوظائف عظيمة لإبراز قوته وقدرته، فعلينا أن نشكر الله على أفضاله علينا كلّ لحظة، بل يجب أن نشكره مرّتين عند كلّ نفّس نستقبله ونُخرجه كما يقول الشاعر سعدي الشيرازي* (٢٠٩)؛ لأنّ التنفّس يشكّل حياتنا، فبالشهيق نستقبل الأكسجين الذي ينظّف الرئتين، وبالزفير نُخرج ثاني أكسيد الكربون، ومن خلاله ننظّف الجسد من الغازات السامة، فلو لم نستطع إخراج الغازات

(٢٠٩) انظر: سعدي الشيرازي: بستان وكستان، ص ٣٠٩.

السامة من أجسادنا لتسّم جسدنا ولقينا حتفنا، وكذلك الحال لو لم نظّف الرئتين بالأكسجين الذي نستقبله أثناء عمليّة التنفّس.

بمعنى أن الله تعالى يهبنا الحياة مرتين عند كل نفس نتنّفسه، وليس هذا يستوجب شكر ربّنا ﷺ الذي يهبنا الحياة في كلّ مرّة وكأننا على منصّة الإعدام؟ وما هي الصلاة التي صاغها ربنا ﷺ ووضعها في قلبٍ معيّن تمنحنا القدرة على أداء مثل هذا الشكر.

ففي الحديث الشريف يبيّن رسول الله ﷺ فضل قيام الليل فيقول: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟" (٢١٠)؛ أي إن الرحمة الإلهية تنزل، فتعرف كنزاً في قلوبنا، وتتجلى في أرواحنا، وتنظر إلى وجوهنا وإن لم تكن مستحقين لها، وتداعب قلوبنا وإن لم تكن جديرين بها، فيقبل الله دعاء الداعي، ويعطي كلّ سائلٍ سُؤله، ويغفر لكلّ مستغفرٍ.

ولقد ظلّ النبي ﷺ طوال حياته يطبق ما يقول، فكان يقوم الليل، ويتوجّه إلى ربّه، ويطلب في صلاته كثيراً، فتذكر لنا أمنا السيدة عائشة ؓ عن تجربة عاشتها بهذا الخصوص فتقول: كُنْتُ نَائِمَةً إِلَى جَنْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَفَقَدْتُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى قَدَمَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَهُوَ يَقُولُ: "أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَنْثَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ" (٢١١).

(٢١٠) صحيح البخاري، التهجد، ١٤؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٦٨-١٧٠.

(٢١١) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢، سنن الترمذي، الدعوات، ٧٦.

أجل، بحسب كلام السيدة عائشة رضي الله عنها ومشاهداتها كان النبي صلى الله عليه وسلم في عبادةٍ دائمةٍ لربّه حتى الصباح.. إذا أنت ستسافر إلى عالمك نهاراً، وإلى ربك ليلاً، وتشعر به فقط، وتفكر فيه فحسب، وتتشي بصنعته التي لا مثيل لها، حينها ستدرك مدى ضعفك وتأثرك من قرصة بعوضةٍ أو من لدغة عقربٍ، ومدى قلة الإرادة في جسدك العاجز المدعور حتى من برقٍ في السماء.. فكّر فيما تحتاجه بدءاً من ذرات الهواء اللازمة لعملية التنفس إلى المياه المتدفقة، ومنها إلى الثمار التي تقدّمها يد القدرة عن طريق الأشجار، فكّر في أنك غير قادر على تأمين حتى واحد في الألف من كل هذا بقدرتك الذاتية، ثم أوكل له صلى الله عليه وسلم كل حاجتك؛ لأن دائرة الحاجة لا نهائية، ودائرة القوة ضيقة للغاية، فالعجز والفقْر غير متاهيين، والأعداء والخصوم كثيرون.. فأنقذ أيها الكائن الذي يحمل هذا القدر من الأعباء الثقيلة إلى الفرمان السبحاني: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٤/٢٥)، وانطلق من فوق فراشك منتشياً، وقف في حضرة الله مستسلماً خاضعاً، واعترف بعظمته سبحانه أمام صغرك، وقل: "إن لم تعطِ فلا سبيل لي إلى الأخذ، وإن لم تُحسن فلا قبَل لي أن أملك، وإن لم تتفضّل فليس بوسعي أن أهيمن على هذا الكون الواسع وأجري عليه حكمي، فكلُّ هذا منك، الملك كله لك، والشكر والمنة متوجّهان إليك".

وهكذا فإنك عندما تطرق بابه سيأخذك صلى الله عليه وسلم إلى جنباه، ويستقبلك كضيفٍ مهمٍّ، ويتفضّل عليك بإنعامه وإحسانه، وحول ذلك يرف لنا النبي صلى الله عليه وسلم هذه البشري فيقول: "يُحْشَرُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،

فَيَنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: أَيُّنَ الدِّينِ كَانَتْ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ، فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيلٌ، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بَسَائِرِ النَّاسِ إِلَى الْحِسَابِ" (٢١٢).

بناءً على ذلك ينبغي للمؤمن إذا غفل الناس وخلا كل حبيبٍ بحبيبه أن يهرول إلى ربه ويقف في حضرته، ويدقّ بابه في ظلمات الليل ويقول: "اللهم إني قضيتُ نهاري في الركض وراء أشياء أخرى، أما الآن فجئتُ أطرق بابك، الكلّ يرنو بنظره إلى ما سواك، ويهرول وراء أشياء أخرى، أما أنا فأتتبع أثرك، وأتلوئى من أجل الوصول إليك" .. ثم يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء الذي كان يردّه النبي ﷺ عندما يقوم بالليل: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قِيمَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِزْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ" (٢١٣)؛ وذلك لأن شرف المؤمن يكمن في قيام الليل، وفي الوقوف بين يدي الله في خضوع واستسلام، وفي بتِّ همومه إلى ربه، وفي استغناؤه عن الأغيار.

(٢١٢) البيهقي: شعب الإيمان، ٣/١٦٩.

(٢١٣) صحيح البخاري، التهجد، ١؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٩٩.



(٢)

بعض صلوات النوافل

أ. صلاة التهجد

التهجد هو إحياء الليل بالصلاة، والليل عبارة عن شريحة زمنية تنفرج فيها أبواب عالم الملكوت، وتنتفح فيها العديد من النوافذ السماوية، وتُشاهد فيها العوالم الأخروية.. والتهجد كما يقول بديع الزمان سعيد النورسي*: "ضياءً لليل القبر ولظلمات عالم البرزخ"^(٢١٤)، وعبادة الليل تتضمن من ناحيةٍ ما معنى الخلوة والانزواء والتوجه والتبتل، والقرآن الكريم يقول مشيراً إلى هذه المسألة المهمة: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (سورة المزمل: ٨/٧٣) أي: اقطع علاقتك بمعنى ما بكل ما سوى الله تعالى، وسلم نفسك له تماماً، وانشغل فقط بمعرفته ومحبته والأذواق الروحانية المتعلقة به، وتجلياته، وهذا لا يتحقق إلا بتهيئة الإنسان نفسه لهذا الأمر، وتركه لنومه الهنيء وفراشه الوثير.

وثمة مسألتان مهمتان جليتان في سورة "المزمل" التي اقتبسنا منها الآية السابقة؛ أولاهما: ميل مفخرة الإنسانية ﷺ إلى الانزواء انطلاقاً من سؤقٍ إلهي له، وثانيتها: استعداده الروحي للقيام بوظيفة النبوة في المستقبل.

(٢١٤) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة، ص ٣٧.

ولمزيد من التفصيل نقول: كان السوق الإلهي وراء كل عمل يقوم به الفضلاء والعظماء، وفي مقدمتهم سيدنا رسول الله ﷺ، وكما يسري هذا الوضع على جميع الأنبياء والمرسلين فكذلك ينطبق على جميع الأصفياء، فمثلاً وهب الإمام الغزالي نفسه لدراسة العلوم الإسلامية النفيسة في فترةٍ معيّنة، وأمضى عمره في المدارس والتكايا، وفي النهاية فقد حقق غاية حياته بمرجعٍ فياض وهو كتاب "إحياء علوم الدين"، وكذلك الإمام الرباني طاف أعوامًا بأرجاءٍ مختلفةٍ من الهند، فدرس وفكر، ومارس الرياضة الروحية، وانفتح على الآفاق الأخرى، وقام بأنشطة جادة لترسيخ معتقدات المسلمين، وأسس منهجًا فكريًا جديدًا.

ولم تختلف حياة بديع الزمان سعيد النورسي* عن هؤلاء العظام، فكما تحدّث هو عن نفسه -من باب التحدّث بالنعمة- فقد قضى السنوات الأولى من عمره في التكايا والمدارس، وجال بعقله الفريد وذكائه المتّقد في النصوص التي تُدرّس في هذه المدارس، واشتغل بالعلوم الدينية والطبيعية، ونشأ متجرّعًا روح التكية، حتى جاء اليوم الذي وجد نفسه فيه في خدمة الإيمان بالبيان والبرهان والعرفان؛ بمعنى أنه عجن المعلومات التي تبدو منفصمةً عن بعضها البعض في عصره، وغذّاه بالتفكير، وجعلها معرفةً محضةً، وقد انطلق للدفاع عن وطنه بحسب ما تقتضي الظروف، وحارب على الجبهة، وفي الوقت ذاته كان يدرّس طلابه، وقضى جلّ عمره بين السجون والمحاكم والمنافي، فعاش منساقًا لإرادةٍ إلهيةٍ عليا.

وهكذا كان رسول الله ﷺ أيضاً؛ فلقد حاول خلال هذه الفترة من الاستعداد الروحي تعلّم لغة العالم اللاهوتي، وأجرى حواراً مع عالم البرزخ، وفتّش عن المنافذ التي يمكن من خلالها النفوذ إلى ما وراء الأشياء عن طريق المراقبة الداخلية والمشاهدة والرياضة الروحية، وبعد هذا الاستعداد الطويل فقد تمّ تمييزه للقيام بوظيفة النبوة.

فلا يتناسب أن ينام إنسانٌ كُلفَ بمثل هذه الوظيفة السامية غير العادية طوال الليل مع المسؤولية التي تستلزمها وظيفته، إذ لا بدّ أن يحرص الشخصُ المكلفُ بهذه الوظيفة على القيام ليلاً والتعبّد لله تعالى؛ حتى تكون أطوارُه أمام خالقه موافقةً للوظيفة والمهمّة التي أوكلت إليه.

والقرآن الكريم بصدد الإشارة إلى كلّ هذا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿۱﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿۲﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿۳﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿۴﴾

(سورة المزمل: ١-٤).

وذلك لأنّ مثل هذه المهمّة تتطلّب ماهيةً تفوق الماهية الإنسانية العادية، ويجب أن تجري حياة هؤلاء دوّمًا في إطار هذا التميّز والخصوصيّة، وإذا كان لا بدّ من شيءٍ يُقال للعاديين من أمثالنا فهو: ارفدوا على نية القيام لصلاة الفجر بعد أداء صلاة العشاء والوتر، عندها تغدو أنفاسكم أثناء النوم بمثابة العبادة.. أما بالنسبة للنبي ﷺ فالله تعالى يقول له: ﴿قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة المزمل: ٢/٧٣)؛ لأنّ المهمّة التي كُلفَ بها تستلزم أن يكون هكذا.

وبعد ذلك يقول ﷺ: ﴿نُصِفَهُ أَوْ أَنْقُضَ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (سورة المُرْمَل: ٣/٧٣-٤)، والليل يُحسب على النحو التالي: فمثلاً إذا كانت الشمس تغرب في السادسة مساءً، وتشرق في الساعة السادسة صباحاً، فهذا يشير إلى أن مجموع الليل ١٢ ساعة، وعلى ذلك يكون نصف الليل ست ساعات، فإذا أنقصنا منه قليلاً يكون ٤-٥ ساعات، والزيادة عليه تكون ٧، وقد واظب النبي ﷺ على هذه الحياة التعبدية منذ اليوم الأول الذي تلقى فيه أطياف الوحي حتى آخر حياته السنوية، فكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه^(٢١٥)، فإن حدث له عذرٌ، وفاته عبادته ليلاً قضاها نهاراً.

أما بالنسبة للترتيل الوارد في قول الله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (سورة المُرْمَل: ٤/٧٣) فيعني إعطاء كلِّ حرفٍ من القرآن حقه ومستحقه، واستشعاره بأفق القلب والروح؛ كما عبر عنه بديع الزمان سعيد النورسي: "القيام بتلاوة القرآن الكريم كأن الآيات تنزل مجدداً، والإصغاء إليه بهذا الشعور بخشوعٍ كامل، والاستماع إلى ما فيه من الخطاب الإلهي للسمو إلى نيلٍ مقامٍ رفيعٍ وحالةٍ روحيةٍ سامية، وكأن القارئ يسمعه من الرسول الأكرم ﷺ، بل شدَّ السمع إليه كأنه يسمعه من جبريل عليه السلام، بل من المتكلم الأزلي ﷻ، ثم القيام بتبليغ القرآن الكريم وتلاوته للآخرين تبياناً لحكمةٍ من حكم نزوله"^(٢١٦)، بعبارة أخرى: فالترتيل هو أن يقرأ العبد القرآن الكريم على نحو يتجاوز فكره وتصوره وتخيُّله،

(٢١٥) انظر: صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٤٤؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٣٤٨.

(٢١٦) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب التاسع والعشرون، ص ٤٩٢.

وأن يستشعره بوجوده، ويتصوّر نفسه سابقاً في العوالم الأخروية.. وكلما تلفّظ العبد بكلّ كلمة في الآية التي يقرؤها شعر بنفس المتعة التي يشعر بها الإنسان الظامئ عندما يتجرّع الماء، لكن هذه مسألة مستوّى، قد لا تتيسّر للجميع.

وقراءة القرآن على النحو الذي تقرأه الأكثرية من الناس اليوم ليس بترتيل، فليس بالإمكان أن تحصل الخشية في قلب الإنسان بمثل هذه القراءة التي لا توجي للعبد بأشياء جديدة، ولا تنشّط فكره وشعوره وحركته وعمله، وعليه لا بدّ من أجل إعطاء القرآن حقّه أن نقرأه وكأنه ينزل علينا، مع تجرّدنا بالطبع عن فكرة النبوة.

وثمة حديث يرويه سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يسلّط الضوء على هذا الموضوع، يقول فيه: "كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذَا رَأَى رُؤْيَا، قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَمَنِّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقْضَاهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَةٌ كَطَيِّ الْبَيْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَيْ الْبَيْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ لِي: لَمْ تُرْعَ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَصْتُهَا حَفْصَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ" (٢١٧).

وبدهي أن الحديث هنا يشير إلى سبيل النجاة من هول عالم البرزخ؛ وهو إحياء الليل. أجل، إن حياة القلوب مرهونة بإحياء الليل من ناحية ما.. وما أجمل ما قاله السيد إبراهيم حقي* -صاحب القول الفصل في العديد من المجالات- الذي أدرك هذه الحقيقة مبكرًا في حياته، ولفت أنظار الجميع إليه بثقافته الموسوعية العميقة:

يا عينُ ساهري الليل ولا تهجعي
وفي هاتيك الليالي مع الكواكب اسبحي والمَعِي
وآياتٌ على صفحة سمائنا ارتسمت فتأملي
وابحثي عن خالقها وعليه ضيفه فانزلي
بالنهار تختلطين بالأغيار وتغفلين عن الله
انفضي عنك الغفلة في الليالي، واستحي من العاشقين لله
كلي قليلًا، ونامي قليلًا، تبُلغي الدهشة والأسرار حدَّ الفناء
انزلي ضيفه عليه في الليالي ساعيةً إلى البقاء
فلا يتناسب النوم مع العبد الحقير أبدًا
فلا تنامي وقومي الليالي واسألي الرحمن من رحمته مددًا
فإذا كنتِ تحبِّين القيوم سبحانه فلا تنامي في الليالي
حتى تنالي حياةً أبديةً بذكرك الحيِّ سبحانه في الليالي
لا تنامي.. فالعاشقون لا ينامون
وفي جوف الليل، وبعين قلبك فلتشهدني الحبيب حيث يكون
القلب بيت الله، طهره مما سواه، وليكن من غيره خالي
حتى ينزل الرحمن إلى قصره في جنح الليالي

كلي قليلاً، ونامي قليلاً، تبخغي الدهشة والأسرار حدَّ الفناء
انزلي ضيفاً عليه في الليالي ساعيةً إلى البقاء
كوني مع الله دومًا في الليل والنهار بالكليّة
وفي الليالي احترقي بنيران العشق الخفية

إن الاطلاع على الجهة الملكوتية للأشياء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإرشاد
الإنسانية، وهذا ما يمكن استنباطه من الحديث القدسي الجليل الذي
يقول فيه ربنا ﷺ: "وَأَنْ تَقْرَبَ إِلَيَّ بِشَبْرٍ تَقْرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقْرَبَ إِلَيَّ
ذِرَاعًا تَقْرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْسِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"^(٢١٨).

أجل، لقد جاء سيد الأنبياء ﷺ برسالةٍ فيها الخلاص لجميع الإنسانية،
وعزم بإرادته على التقرب من مولاه ﷺ، فانطلق من سعة رحمته وعظمته
في سبيل القرب إليه ﷺ، ولكن ثمة أمرٌ لا بد من الالتفات إليه هنا وهو
أن رسول الله ﷺ الذي كان يبحث عن سبيل لخلاص الإنسانية كان ينشد
ذلك السبيل في الانفتاح على العوالم الأخرى والاطلاع على الجانب
الملكوتي في الأشياء، ومن أجل ذلك كان ينطلق في رحلةٍ ليليةٍ كل ليلة،
ويقوم بما ينبغي أن يقوم به كما في كل أموره. أجل، ما دام حملُهُ أثقل
وأعظم من الجميع كان ينبغي له أن يقوم برحلةٍ إسراءٍ خاصةٍ كل ليلة،
وأن يتلو القرآن مستشعرًا به حتى يصل إلى درجة التشبّع.

لقد كان حملُهُ ثقیلاً جدًّا، ولطالما أكد القرآن الكريم على هذا بقوله:
﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (سورة المزمل: ٥/٧٣)، وليس ثمة شبهةٍ في أن
المقصود من الثقل هنا هو مهمّة الرسالة.. لقد كان الله تعالى يأمره

بالتبليغ فقط، سواء فهم المخاطبون أم لم يفهموا، فنسبة التأثير في هذه المهمة تكون دائماً على قدر قوة الصلة مع الله تعالى.

والقرآن الكريم يبين الحكمة من قيام الليل فيقول: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ * ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (سورة المزمل: ٧٣/٦-٧).
 أجل، إن الليل بكل هذه الخصائص الساحرة مناخ مهم جداً لأن يحافظ الإنسان على استقامته وتوازنه، ويسمع ما يقوله، ويستشعر ما يعيشه، فهو بمثابة خُلجان من الخلوات التي تطلّ منها القلوب على الله تعالى.. فالإنسان يشغل نهاراً بأعمالٍ متنوّعةٍ، ويتجول في عالم مشاعره الإنسانية، ويعيش تحت تأثيرها، ومثل هذا الأمر وإن كان لا ينطبق على مفخرة الإنسانية ﷺ بالمعنى الذي نفهمه خاصّةً، فإنه يسري على أمثالنا من الناس العاديين، بناءً على ذلك فإنني أعتقد أنه من الأنسب تفسير الآية هنا على النحو التالي: إن الله تعالى يقول لنا في شخص النبي ﷺ: إنكم تشغلون بهذا وذاك في النهار، فتنتابكم الغفلة، ولا تبصرون في أعماقكم الداخلية، ولا تقيمون صلةً مع العوالم الأخروية، ولا تستطيعون؛ لأن الليل هو الأساس في هذا الأمر، فالليل هو شريحةٌ زمنيّةٌ مباركةٌ ينعزل فيها العبد عن الناس، ويتوجّه إلى الله وقلبه مستعزّ بنار الهجران، ويضع جبهته على السجادة ويذرف دموعه.. فالله تعالى وحده الأعلم بما تبثّه صدوركم، وعلى هذا الأساس تتخذون موقفاً يتوافق مع علمه لكم ومشاهدته إياكم.

حياة الليل عند وارثي دعوة النبوة

خُتِمَت النبوة بسيدنا رسول الله ﷺ، إلا أن دعوته ستظلُّ إلى الأبد؛ بفضل مَنْ؟ بفضل وارثي دعوة النبوة.. غير أنه لا بد من أجل أداء المهمة التي أنيط بها الأنبياء أن يجتاز العبدُ الجسرَ الذي عبروه هم، فهذا أمرٌ واجبٌ وضروريٌّ.

وحتى يمكن لورثة دعوة النبوة حمل هذه المهمة الثقيلة التي تدور في فلك البيانات والتصريحات النبوية الجليلة، وحتى يستطيع المذبذبون الذين يخضعون تحت تأثير مطامعهم ونزواتهم وأحقادهم وضغائنهم الانسلاخ من هذه الطباع السلبية والتصدي للابتلاءات في شتى الميادين، وحتى لا يخسروا في موضعٍ هو أدمى للكسب؛ فإنه لا بد من إحياء الليل وطرق أبواب عالم الملكوت.

أجل، إن دعوة القُديسين هذه قد مثَّلتها الأنبياء ﷺ، ومنذ قديم الزمان والله تعالى يصطفي دائماً جديداً أظهاراً لتمثيلها مجدداً، وليس أرواحاً ميتةً بالية؛ فالله لا يصطفي فاقد الأهلية والصلاحية مهما ادعى أو قدّم نفسه على أنه كامل الأهلية والجدارة، فهناك فرق شاسع بين الواقع وبين ما يبدو واقعاً.. وكذلك أناط الله تعالى هذه المهمة بأبطال القلب والروح، وأبعدها عن الذين يفتقرون إلى الفكر والعمل.

أما بالنسبة للذين يفتقرون إلى الروح والقلب فقد ذهب الله بهم، وأتى بخلقٍ جديدٍ لا يسأمون من التفكير مع كلِّ طرفة عينٍ في إرشاد الإنسانية، فجعلوا هذا الأمر غايتهم في ليلهم ونهارهم، أو كما قال الله

تعالى عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٥٤/٥)، ويقول في موضع آخر: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سورة فاطر: ١٦/٣٥).

بناء على ذلك يجب على وارثي دعوة النبوة أن يؤدّوا عبادة الليل كما كان يؤدّيها المرشد الأكمل وأسوة الكل سيدنا ونبينا محمد ﷺ، وأن يقولوا بوجدانهم كما يقول إبراهيم حقي:

بالنهار تختلطين يا عين بالأغيار وعن الله تغفلين

انفضي عنك الغفلة في الليالي، واستحي من العاشقين

فإن فاته الليل يعتبر اليوم كلّهُ ضائعاً، وينكس رأسه ويطأطئ مثل القطط التي أوقعت اللبن، كما فعل سيدنا آدم عليه السلام منذ اللحظة التي اعتقد فيها أنه ارتكب المعصية، ويقول: "لم أستطع القيام وإحياء الليل! فها أنا ذا أحمل على عاتقي ليلةً ميتةً!"، فإن فاتته ليالٍ أخرى فعليه أن يضع في باله أنه سيموت هو أيضاً، ويصير يوماً ما في عداد الأموات، ورغم أن هذا الأمر يبدو مرعباً فلا ينبغي لأحدٍ أن يستكثر هذه الكلمات التي أحاطب بها خدام القرآن، لا سيما وأن الله تعالى قد ذكر مثلها لأحبّ عباده إليه.

وما زلت أتذكر كلمات تلك العجوز في بلدة "بارالا" التي التقيتها بها عندما ذهبنا لزيارة بيت الأستاذ النورسي رحمه الله، قالت: "آه عليك يا سيدي

الأستاذ! آه عليك يا سيدي الأستاذ! لقد كنا نسمعه وهو يُصدِرُ طينياً كطنين النحل فوق شجرة الدُّلبِ هذه، ولم نره ينام حتى الصباح".

مسألة أخيرة: وهي أنه قد ثبت بآلاف التجارب أن الذين يُحيون ليلهم يركضون كالجياذ في نهارهم، وهناك كثير من الأشخاص الذين أعرفهم يحافظون على هذه الخصلة حتى الآن، فواصلوا حياتهم على هذه الشاكلة، ولم يغيروا خط سيرهم، فمنذ سنوات وهم لا يرفعون رؤوسهم ألبتة عن هذه العتبة، ولا يهتمون إحياء ليلهم، وبالطبع لم يتوانوا عن خدمة أمّتهم.

وعلى النقيض تماماً فإن الذين لا يثبتون على عبادتهم ليلاً ويتذبذبون يفعلون الشيء نفسه عند القيام بالخدمة، ومع أنه يبدو منهم أحياناً أنهم يركضون في المقدمة من أجل الخدمة فإنه إذا واجهتهم صعوبة أو مشقة تراجعوا على الفور. أجل، إن هؤلاء لا يستطيعون أن يتحمّلوا أدنى ضغطٍ أو مشقة أو معاناة، أما الآخرون فمنذ عرفتهم وهم يفيضون بالليل كالأنهار، ويركضون ركض الجواد الأصيل بالنهار.

ب. صلاة الحاجة

صلاة الحاجة من العبادات المشروعة في السنة الصحيحة، شأنها شأن صلاة الجنابة والاستسقاء والكسوف والخسوف، فإذا أهدمَّ العبدُ شيءً وكانت له عند الله أو عند أحدٍ من خلقه حاجةٌ توضأً وصلّى ركعتين، ثم يدعو بالمأثور ويسأل الله ﷻ حاجته، وقد وردت روايتان مختلفتان لصيغة دعاء صلاة الحاجة، نوردهما على سبيل التبرُّك والاستفادة دون إهمالٍ لواحدةٍ منهما:

الصيغة الأولى: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ، أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيُشْنِ عَلَى اللَّهِ، وَلِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لِيَقُلْ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمِ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، لَا تَدْعُ لِي ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَّجْتَهُ، وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلَّا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ" (٢١٩).

الصيغة الثانية: ورد أن رجلاً ضَرِيرَ البَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهُ أَنْ يُعَافِيَنِي، قَالَ: "إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"، قَالَ: فَادْعُهُ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِي، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِي" (٢٢٠).

واحتياجات الإنسان تختلف حسب أفقه ومستواه، ولكن لا فرق في أن تكون الحوائج التي يسألها العبد في صلاة الحاجة هذه أو تلك؛ فمثلاً قد يصلي الإنسان صلاة الحاجة حتى يكون محصولة وفيراً، وقد يصليها شخصٌ -بعيداً عن صلاة الاستسقاء- حتى يهطل المطر، فيعم الخير على الجميع، وقد يصليها آخر من أجل صلاح أبنائه، ويدعو الله فيها أن يلهم أولاده الصواب والرشاد.. فكلّ هذه الطلبات تتناسب تناسباً طردياً مع همّة الشخص، فلا ينبغي أن نستخف بها.

(٢١٩) سنن الترمذي، الوتر، ١٧؛ سنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٨٩.

(٢٢٠) سنن الترمذي، الدعوات، ١١٩؛ سنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٨٩.

فمن الخير أن يسأل العبد ربّه الزوجة الصالحة والولد الصالح، أو يسأله مستقبلاً مُشْرِقاً لأولاده، بل ينبغي له أن يفعل ذلك، وهذا يختلف تبعاً لهمة كل إنسان، ففي الحديث الشريف: "لَيْسَ أَلْأَحَدُكُمْ رَبُّهُ حَاجَتُهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمَلِخَ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شَيْءٌ نَعْلَهُ إِذَا انْقَطَعَ"^(٢٢١)؛ أي يستحب للعبد أن يسأل الله كل شيء عظيمًا كان أو حقيرًا.

إلا أن همم الأنبياء كانت عاليةً، فمثلاً كانوا إذا رفعوا أكف الصراعة إلى الله يقولون: "اللهم لِيُنِ قلوبَ الناس حتى يؤمنوا بك"، ورغم أن هذه العبارة لم ترد بلفظها في أدعية الأنبياء فثمة عبارات مماثلة لها وأعمق، ومن ذلك: "اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"^(٢٢٢).

ولكل إنسان حاجة تختلف تبعاً لهمته ولمستواه، فبعض الأشخاص يهتبون حياتهم لرفع راية الدين الحنيف على وجه البسيطة، وكل يوم لا تتحقق لهم فيه هذه الغاية يكون مأتمًا وعويلاً، فلا يأكلون ولا يشربون إلا ما يسد الرمق، ربما تكون بينهم وبين أبنائهم علاقة معينة، ولكنهم في مراقبة دائمة لله ﷻ.

ولمزيد من التفصيل نقول: من الناس من يؤدي صلاة الحاجة من أجل طلب دنوي صغير، ومنهم من يصليها حتى يتنشر الدين المين في كل بقاع الأرض، ومنهم من يصليها حتى تلين قلوب العصاة والكافرين، وتنشر صدور أعتى العصاة والمتمردين إلى الإيمان.. ولكن ينبغي لمن يتبنون فكرة معتنة عن الذات الإلهية، ويعرفون القرآن ونبي القرآن

(٢٢١) سنن الترمذي، الدعوات، ١٤٠.

(٢٢٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٥٢.

ولو بقدرٍ معيّنٍ ألا يطلبوا من الله صغائر الأشياء، بل يجب أن تكون همّتهم عاليةً، وأن يلحّوا في طلب الأشياء السامية؛ لأنه من السذاجة طلب الحديد والنحاس في مكانٍ يُطلب فيه الذهب والفضة.

فضلاً عن ذلك قد تُؤدّي صلاة الحاجة لتقوية الإيمان ومنع القلب من الانزلاق؛ لأن هذه كلها أسسٌ مهمّةٌ للشعور بالأشياء السامية، وإلا كيف يمكن أن يحمل الإنسان مشاعر سامية إزاء الإنسانية بدون قوة الإيمان وثبات القلب واستقامته؟ إذًا ينبغي للإنسان أن يكون ذا أفقٍ معرفيٍّ مهمٍّ، وأن يتحلّى بالعشق والشوق الإلهي، وأن يحمل مشاعر المهابة والخشية من الله، ومن أجل هذا كلّه يستحبّ للمرء أن يؤدّي صلاة الحاجة، ويتضرّع إلى الله بالدعاء.

كيفية صلاة الحاجة

ورد في الأحاديث الشريفة أن صلاة الحاجة عبارةٌ عن ركعتين أو أربع ركعات^(٢٢٣)، ومع أن هذه الأحاديث لم تصرّح بالسور التي يستحبّ قراءتها في هذه الصلاة فإن بعض العلماء ذكروا أن هذه الصلاة يُقرأ فيها ما يُقرأ في صلاة تقوية الحفظ، مثل سور: السجدة، والدهر، ويس، إلا أن هذا الرأي لا يُعتد به كثيراً، وربما هناك آيات تذكّر بسعة رحمة الله تعالى لا بدّ من قراءتها، مثل:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (سورة غافر: ٤٠/٧).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿سورة التوبة: ١٢٨/٩-١٢٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦/٢).

فهذه الآيات تذكّر من جانب بسعة رحمة الله تعالى، ومن جانب آخر تلتين القلوب، وتعمل على التركيز.

لكن ينبغي بعد الصلاة الشناء على الله تعالى أولاً بمثل العبارات التالية: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مُبَدِّلَ لِمَا حَكَمْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ.

فعلى العبد أن يدعو بهذه الأدعية تعظيمًا لله تعالى، إلا أن الرسول ﷺ ترك المسألة على إطلاقها، فيمكن للعبد مثلاً أن يقرأ الآيات الثلاث الأولى من سورة الفاتحة؛ أي يبدأ بما يفيد تمجيد الله تعالى والشناء عليه بما هو أهله، ويصلي على النبي ﷺ، ثم يعدّد ما يندرج ضمن هذه الصلوات من الدعاء للخلفاء الراشدين، وأهل البيت الميامين، والأنبياء العظام عليهم سلام الله أجمعين، والملائكة المقربين، والأولياء السابقين.

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُقَالَ فِي خَتَامِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيمَاتِ: "بَعْدَ ذَرَاتِ الكَائِنَاتِ وَمُرَكَّبَاتِهَا"، أَوْ "مِلءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلءَ الأَرْضِ وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ"، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا أَشْيَاءٌ مَحْدُودَةٌ، وَلِذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ تَعْبِيرًا عَنِ الْمَطْلُوقِ بِاللَّمَّاحِدِ: "بَعْدَ عِلْمِكَ وَبَعْدَ مَعْلُومَاتِكَ".

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَدْعُو الْعَبْدُ لِلأُمَّةِ المَحْمُودِيَّةِ، وَعِنْدَ الدُّعَاءِ يَقُولُ: "رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"، أَوْ يَدْعُو بِالدُّعَاءِ الَّذِي كَانَ يَلْهَجُ بِهِ "الأَبْدَالُ" (٢٢٤) صَبَاحَ مَسَاءً، وَهُوَ: "اللَّهُمَّ ارْحَمْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ".

وهذه كلها أمور لا بد منها كمقدمة للدعاء الأساسي، بعدها يتضرع العبد بدعاء الحاجة: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَسْأَلُكَ مَوْجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمِ مَغْفِرَتِكَ وَالْعِصْمَةَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، لَا تَدْعُ لَنَا ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَجْتَهُ وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلَّا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ مُفَرِّجَ الْهَمِّ كَاشِفَ الْغَمِّ مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ

(٢٢٤) الأبدال: هم العباد الزهاد السناك، وهم ففة من الأولياء الصالحين، قال عنهم النبي ﷺ: "الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يُسَمَّى بِهِمُ الْغَيْثُ، وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَيُنْصَرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمُ الْعَذَابُ". (مسند الإمام أحمد، ١/٥٥٠)

إِذَا دَعَاكَ، رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، فَارْحَمْنَا فِي حَاجَتِنَا هَذِهِ بِقَضَائِهَا وَنَجَاحِهَا رَحْمَةً تُغْنِينَا بِهَا عَنْ رَحْمَةٍ مَن سِوَاكَ".

بعد ذلك يسأل العبدُ ربَّه ما شاء، فمثلاً بالنسبة للإنسان الذي يتمتع بعلوِّ الهمة يقول: "اللَّهُمَّ أَعْلِ كَلِمَةَ اللَّهِ وَكَلِمَةَ الْحَقِّ وَدِينَ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ، وَأَشْرَحْ ضُدُورَنَا وَضُدُورَ عِبَادِكَ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ وَالْقُرْآنِ وَالْخِدْمَةِ فِي سَبِيلِكَ".

وانطلاقاً من قول النبي ﷺ بأن الله إذا أحبَّ عبداً وضع له القبول في الأرض^(٢٢٥)؛ فإنه يُستحبُّ للعبد أن يقول: "اللهم ضَعْ لَنَا الْوُدَّ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"، فهذه الكلمات يوضع لنا حسن القبول، وتُفتح لنا القلوب، وتُهيئنا للأسباب لخدمة الدين بصدق وإخلاص.

وثمة ملمحٌ لطيفٌ في الدعاء وهو: إننا إذا دعونا للأمة المحمدية عند دعائنا لأنفسنا استجلبنا رحمة الله تعالى لنا، حيث ينظر لنا ربنا على أننا عباد له نفكر في مساعدة عبيده الآخرين، وهذا أمرٌ مهمٌ للغاية.



الفصل التاسع
الأدعية التي تُذكر
في ثنایا الصلاة



وفيما يلي مجموعة من الأدعية التي رويت عن سيدنا رسول الله ﷺ،
والتي تتخلل أجزاء الصلاة:

١ - أدعية الركوع

سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ^(٢٢٦).. سُبْحَانَ ذِي الْجَبْرُوتِ وَالْمَلَكَوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ
وَالْعَظَمَةِ^(٢٢٧).. سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي^(٢٢٨).. سُبُوحٌ
قُدُوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ^(٢٢٩).. اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ
أَسْلَمْتُ أَنْتَ رَبِّي خَشَعَ سَمْعِي وَبَصْرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصْبِي وَمَا
اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢٣٠).

٢ - أدعية الاستواء من الركوع

رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ^(٢٣١).. رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا
فِيهِ^(٢٣٢).. رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ

(٢٢٦) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ سنن الترمذي، الصلاة، ١٩٤.

(٢٢٧) سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٧.

(٢٢٨) صحيح البخاري، الأذان، ١٢٣؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٧.

(٢٢٩) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٣، سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٧.

(٢٣٠) مسند الإمام أحمد، ٢/٢٣٨.

(٢٣١) سنن النسائي، الافتتاح، ١٠٤؛ مسند الإمام أحمد، ٢/٢٦٨.

(٢٣٢) صحيح البخاري، الأذان، ٥١؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٢٨.

مَا شِئْتُ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ (٢٣٣) .. أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ (٢٣٤) .. اللَّهُمَّ طَهِّرْني بِالثَّلْجِ وَالْبَرْدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْني مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنْفَى الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ (٢٣٥).

٣- أدعية السجود

سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى (٢٣٦) .. سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي (٢٣٧) .. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمَعَاْفَاتِكَ مِنْ عِقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ (٢٣٨) .. اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ أَمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ فَصَوَّرَهُ، فَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَدَمِي وَلَحْمِي وَعَظْمِي وَعَصْبِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٣٩) .. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةَ وَجِلِّهِ، أَوْلَاهُ وَآخِرَهُ، سِرَّهُ وَعَلايَتَهُ، سُبْحَانَ ذِي الْجَبُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ (٢٤٠).

- (٢٣٣) صحيح البخاري، الأذان، ١٢٦؛ صحيح مسلم، المساجد، ١٤٩.
 (٢٣٤) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٣٢.
 (٢٣٥) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٠٥؛ سنن أبي داود، الطهارة، ١٤٣.
 (٢٣٦) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٧٩.
 (٢٣٧) صحيح البخاري، الأذان، ١٢٣، صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٧.
 (٢٣٨) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٧٦.
 (٢٣٩) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٦؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٧.
 (٢٤٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٣؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٧.

٤- أدعية ما بين السجدين

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَاجْبُرْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي
وَارْفَعْنِي^(٢٤١).. اللَّهُمَّ هَبْ لِي قَلْبًا تَقِيًّا نَقِيًّا مِنَ الشَّرِّ بَرِيًّا لَا كَافِرًا وَلَا
شَقِيًّا.. رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَتَجَاوَزْ عَمَّا تَعَلَّمَ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ^(٢٤٢).

٥- أدعية التشهد

اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ
لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ^(٢٤٣).. اللَّهُمَّ اغْفِرْ
لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ
أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ
بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ
فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ^(٢٤٤).. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَأَعُوذُ
بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ
فِتْنَةِ الْمَحْيَا، وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَعْرَمِ^(٢٤٥).

٦- الآيات الكريمة التي تُقرأ بنية الدعاء في كل أجزاء الصلاة

دعاء آدم ﷺ:

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(سورة الأعراف: ٢٣/٧) ..

- (٢٤١) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١١٨.
(٢٤٢) سنن الترمذي، الصلاة، ٢١١؛ سنن ابن ماجه، الإقامة، ٢٣.
(٢٤٣) البيهقي: فضائل الأوقات، ص ٢٧.
(٢٤٤) ابن أبي شيبة: المصنف، ٤٢٠/٣.
(٢٤٥) صحيح البخاري، الأذان، ١٤٩؛ صحيح مسلم، الذكر، ٤٧.

دعاء يونس عليه السلام:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٢١/٨٧) ..

دعاء أيوب عليه السلام:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٢١/٨٣) ..

دعاء موسى عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة

القصص: ٢٨/١٦) ..

دعاء الرّيسين:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٣/١٤٧) ..

دعاء المتقين:

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (سورة آل عمران: ٣/١٦) ..

دعاء أصحاب الكهف:

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (سورة الكهف: ١٨/١٠) ..

دعاء لاستقامة القلب:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ﴾ (سورة آل عمران: ٨/٣) ..

٧- أدعية أخرى مروية عن سيدنا رسول الله ﷺ

يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِيْ شَأْنِيْ كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِيْ إِلَى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ^(٢٤٦).. اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيْمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِيْنَ^(٢٤٧).. اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجْزِنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ^(٢٤٨).. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِيْ وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِيْ عِلْمًا وَلَا تُزِغْ قَلْبِيْ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِيْ وَهَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ^(٢٤٩).

- (٢٤٦) النسائي: السنن الكبرى، ١٤٧/٦؛ البزار: المسند، ٤٩/١٣.
(٢٤٧) مسند الإمام أحمد، ٤٢٤/٣؛ النسائي: السنن الكبرى، ١٥٦/٦.
(٢٤٨) مسند الإمام أحمد، ١٨١/٤؛ الطبراني: المعجم الكبير، ٣٣/٢.
(٢٤٩) سنن أبي داود، الأدب، ٩٩؛ النسائي: السنن الكبرى، ٢١٦/٦.



نبذة عن بعض الأعلام

إبراهيم حقي (١٧٠٣-١٧٨٠م): عالم تركي جليل وزاهد متصوّف، ولد في أرضروم في بلدة "حصن قلعة"، عاش في القرن الثاني عشر الهجري، قضى أواخر عمره في "تيللو" جنوب شرقي تركيا، أشهر مؤلفاته "معرفت نامه (Marifetname)".

"ألّوازلي محمد لطفي أفندي" (١٨٦٨-١٩٥٦م): عالمٌ زاهدٌ وشاعرٌ، ولد في محافظة "أرضروم" شرقي تركيا، حصل على الإجازة العلمية من كبار علماء عصره، وبعد أن عُيّن إمامًا وخطيبًا انتسب لشيخ النقشبندية محمد بيبي كفراوي، عُرف بين الناس بـ"إمام ألّواز"، واشتهر بلقب "سيدي أفا"، نظم أشعارًا بالعربية والفارسية والتركية، نُشرت فيما بعد تحت عنوان "خلاصة الحقائق".

مُلا جامي (١٤١٤-١٤٩٢م): هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، نور الدين، مفسر فاضل، ولد في جام (في بلاد ما وراء النهر) وتوفي في هراة. له مؤلفات تقارب المائة. وله كتاب في النحو، صنّفه شرحًا لكتاب "الكافية لابن الحاجب" لخص فيه ما في شروح الكافية على أحسن الوجوه وأكملها مع زيادات من عنده سماه "الفوائد الضيائية".

"يونس أمره (Yunus Emre)" (١٢٣٨-١٣٢١م): هو قاضٍ وشاعر وصوفي تركي، من أشهر شعراء التصوف في الأناضول، وُلد في قرية تسمى "صاري كوي"، درس العلوم الفلسفية وتعلّم العربية والفارسية، خدم في تكية "طابتوك أمره" في منطقة "صقاريا"، ثم ساح في الأناضول، له مؤلفات: "رسالة النصحية" و"الديوان".

"كدائي" (١٨٢٦-١٨٩٩م): ولد الشاعر كدائي في مدينة "توكات" التركية، وكان اسمه الحقيقي أحمد ولكن اشتهر بـ"كدائي البشيكناشي" لأنه عاش فترة طويلة في مدينة إسطنبول في منطقة "بشيكناش"، واشتغل في الشعر والموسيقى وانضم إلى فريق الموسيقى التابع للقصر العثماني في فترة حكم السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م)، ودفن في جبانة "فراجة أحمد" في مدينة إسطنبول.

"محمد قِرْفَنجِي (Mehmed Kırkıncı)" (١٩٢٨-٢٠١٦م): كاتب وعالم ديني تركي، وهو من طلاب الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمته الله.

محمد شلبي (السلطان) (١٣٨٦-١٤٢١م): السلطان الغازي چلبلي مُحَمَّد خان الأول بن بايزيد بن مُراد العثماني ويُعرف اختصارًا باسم مُحَمَّد الأول أو مُحَمَّد شلبي وكلمة "شلبي" كلمة تركيَّة تُفيد معنى الظرف والظرافة أو الحُسن والجمال. تولَّى مُحَمَّد شلبي عرش الدولة العُثمانيَّة -بعد فترة صراعٍ بينه وبين إخوته دامت نحو ١١ سنة عُرفت باسم "عهد الفترة" وهي فترة عقيمة في التاريخ العثماني- في تاريخ (١٤١٣م) إلى (١٤٢١م). وكانت مُدَّة حُكمه كُلُّها حُرُوبًا داخليةً لإرجاع الإمارات التي استقلَّت في مُدَّة الفوضى التي أعقبت موت السلطان بايزيد في الأسر.. دام مُلك هذا السلطان حوالي ٨ سنوات أعاد لِلسُلطنة خِلالها الرونق الذي كادت تخسره بحرب تيمورلنك، وكان شجاعًا محبوبًا ذا سياسة.

"مراد خداوندكار (Hüdavendigâr)" (السلطان) (١٣٢٦-١٣٨٩م): الملكُ العادل أبو الفتح غازي سلطان مُراد خان الأول بن أورخان بن عُثمان، ويُعرف اختصارًا باسم مُراد الأول أو مُراد خُداوندگار. و"خُداوندگار" كلمة فارسيَّة يُقصد بها الإشارة إلى حاملها بأنَّه حاكمٌ بأمر الله أو بفضل الله. هو ثالث سلاطين آل عُثمان وأوَّل من تلقَّب بلقب سُلطانٍ بينهم، بعد أن كان والده أورخان وجده عُثمان يحملان لقب "أمير" أو "بك" فقط، والدته هي "نيلوفر خاتون" ابنة صاحب "بني حصار" البيزنطي،

فهو بهذا أوّل سلطانٍ عُثمانيّ صاحب جذورٍ تركمانيّة-بيزنطيّة. تولّى الحُكم بعد وفاة أبيه السلطان أورخان سنة (١٣٦٠م)، وكان عُمره ٣٦ عامًا وقتها، واستمرّ حُكمه ٣١ سنة تمكّن خلالها من توسيع نطاق إمارته حتّى أصبحت قوّة إقليميّة كبيرة، كانت باكورة أعماله فتح مدينة "أدرنة" في "تراقيا" ونقل مركز العاصمة إليها من "بورصة"، ثمّ تابع فتوحاته وتوسّعاته في جنوب شرق أوروبا، فضمّ الكثير من البلاد إلى مُمتلكاته وإلى ديار الإسلام، وأجبر أمراء الصرب والبلغار وحتّى الإمبراطور البيزنطي "يوحنا الخامس" على الخُضوع له ودفع جزية سنويّة للدولة العثمانيّة.. ولَمَّا بلغت الأخيرة مبلغًا كبيرًا من القوّة والازدهار خضعت لها الإمارات التُركمانيّة في الأناضول بعد أن تبين لها عدم جدوى مُقاومتها وصحّة مُحالفتها، كان مُراد الأوّل أوّل سلطانٍ عُثمانيّ يموت في أرض المعركة، والوحيد من سلاطين بني عُثمان الذي قُتل في الحرب، وأُضيف إلى ألقابه بعد وفاته لقب "السُلطان الشهيد".

نسيمي (١٣٦٩-١٤١٧م): عماد الدين نسيمي هو شاعر صوفي أذربيجاني أو تركماني، وقيل إنّه ولد في بغداد، نَظَم الشعر باللغتين التركية والفارسية، وكان من أتباع مذهب "فضل الله الاسترآبادي" المعروف بالحروفية. له ديوانان واحد نظمه بالفارسية والآخر نظمه بالتركية، واختلف في سنة وفاته، ويُقال أنه هرب بعد مقتل الاسترآبادي سنة (٧٩٦هـ) إلى حلب فقتل بها. ويقال صُلب في شيراز سنة (٨٣٧هـ).

سعدي الشيرازي (٦٠٦-٦٩١هـ): هو مشرف الدين بن مصلح الدين، شاعر وصوفي فارسي، من شعراء الصوفية الكبار، ومن أرقّهم تعبيرًا، ولد في مدينة "شيراز"، وقدم بغداد استكمالًا لدراساته في علوم الدين في المدرسة النظامية، وكان من مريدي الشيخ عبد القادر الكيلاني. من أشهر آثاره: "كُلستان (روضة الورد)" و"البستان".

سعيد النورسي (١٨٧٦-١٩٦٠م): المعروف بـ"بديع الزمان النورسي"، وهو عالم مسلم كردي، أحد أبرز علماء الإصلاح الديني والاجتماعي في عصره، ولد في قرية "نورس" الواقعة شرقي الأناضول في تركيا، لقد مرت حياة بديع الزمان سعيد النورسي بمرحلتين: مرحلة "سعيد القديم" وتمتد هذه المرحلة من ولادته ولغاية إقامته الجبرية في "بارلا" سنة (١٩٢٦م)، ففي هذه المرحلة نلاحظ أن سعيد القديم حاول خدمة الإسلام بالدخول في عالم السياسة، ومرحلة "سعيد الجديد" وفي هذه المرحلة الثانية من حياته نرى أن سعيد الجديد قد طلق الحياة السياسية تحت شعاره المعروف "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة"، وأخذ على عاتقه مسألة "إنقاذ الإيمان".

عليّ القاري (ت: ١٦٠٦م): أبو الحسن نور الدين علي بن سلطان محمد القاري، الهروي المكي، المعروف بـ"ملاً علي القاري" هو فقيه حنفي ماتريدي صوفي، من علماء أهل السنة والجماعة، وولد في هراة، وتعلّم القرآن الكريم وحفظه، وتلقّى مبادئ العلوم وحضر حلقات العلماء في بلاده وصلّى بالناس إماماً، فلقب بالقاري، وانتقل إلى مكة المكرمة في شبابه، وألّف ما بين عامي (١٠٠٣هـ) إلى (١٠١٤هـ) أكثر من ١٤٨ رسالة وكتائباً. ومن أهم مؤلفاته: تفسير الملا علي القاري المسمى (أنوار القرآن وأسرار الفرقان)؛ الأثمار الجنية في أسماء الحنفية؛ منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر؛ ضوء المعالي شرح بدء الأمالي؛ مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح؛ جمع الوسائل في شرح الشمائل؛ شرح مسند أبي حنيفة؛ شرح الشفا؛ شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر.



المصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ سنن أبي داود (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

أبو يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلية (ت: ٣٠٧هـ)؛ المسند؛ تحقيق: حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث، دمشق، ١-١٣، ط ٢، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

أبو الليث، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)؛ تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين؛ تحقيق: يوسف علي بديوي؛ دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ٣، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء؛ دار السعادة، مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواسي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، ط ١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ صحيح ابن حبان؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-١٨، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (ت: ٩٧٤هـ)؛ تحفة المحتاج في شرح المنهاج؛ المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٥٧هـ/١٩٨٣م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ سنن ابن ماجه (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي (ت: ٢٣٠هـ)؛ الطبقات الكبرى؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون؛ مؤسسة الرسالة، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

_____، الزهد؛ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

البيزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢هـ)؛ مسند البيزار؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، ط ١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت: ٤٦٣هـ)؛ تاريخ بغداد؛ تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١-١٦، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ شعب الإيمان؛ تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١-١٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

_____، السنن الصغير؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلجعي؛ جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، ط ١، ١-٤، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

- _____، السنن الصغرى؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي؛ جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، ١-٤، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
- _____، الزهد الكبير؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ٣، (١٤٢٣هـ/١٩٩٦م).
- _____، فضائل الأوقات؛ تحقيق: عدنان عبد الرحمن مجيد القيسي؛ مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٨٣م).
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ صحيح البخاري (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.
- البغوي، عبد الله بن أحمد بن علي الزيد (ت: ٥١٦هـ)؛ مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل؛ دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: ٢٥٥هـ)؛ مسند الدارمي (سنن الدارمي)؛ تحقيق: حسين سليم أسد الداراني؛ دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١-٤، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمداني (ت: ٥٠٩هـ)؛ الفردوس بمأثور الخطاب (مسند الفردوس)؛ تحقيق: السعيد بن بسبوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الظهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ المستدرک علی الصحیحین؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ المعجم الكبير؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛
الموطأ؛ تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي؛ مؤسسة زايد بن سلطان آل
نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ١-٨، ط ١،
(١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ صحيح
مسلم (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.
النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت:
٣٠٣هـ)؛ سنن النسائي (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٥)؛ دار
السلام، الرياض.

_____، السنن الكبرى؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت،
١٠-١، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

سعيد التُّورسي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: الكلمات؛ دار
النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

_____، من كليات رسائل النور: المكتوبات؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول،
ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

_____، من كليات رسائل النور: اللغات؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط
٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

_____، من كليات رسائل النور: صيقل الإسلام؛ دار النيل للطباعة والنشر،
إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)؛ الدر
المنثور في التفسير بالمأثور؛ دار الفكر، بيروت، ١-٨.

_____، شرح سنن ابن ماجه؛ قديمي كتب خاتنة، كراتشي.

عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت:
٢١١هـ)؛ مصنف عبد الرزاق؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب
الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

علي القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)؛ شرح الشفا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت: ٦٠٦هـ)؛ مفاتيح الغيب؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٣٢، ط ٣، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي (ت: ٥٤٤هـ)؛ الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ دار الفحاء، عمان، ١-٢، ط ٢، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)؛ الجامع لأحكام القرآن؛ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١-١٠، ط ٢، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

الإمام الرباني، أحمد السرهندي الفاروقي (ت: ١٠٣٤هـ)؛ المكتوبات؛ وقف الإخلاص، إسطنبول، ١-٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

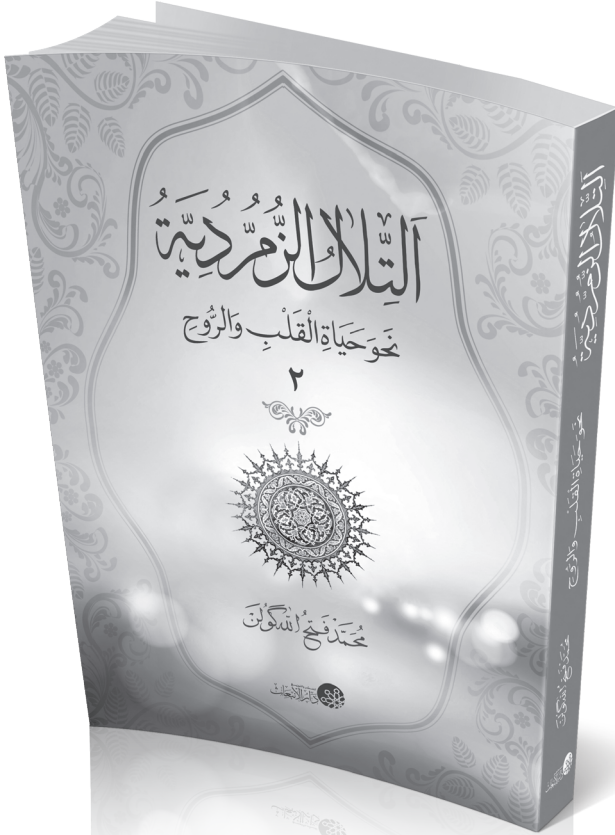
الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ سنن الترمذي؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: ٤٢٧هـ)؛ الكشف والبيان عن تفسير القرآن؛ تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١-١٠، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)؛ سير أعلام النبلاء؛ دار الحديث، القاهرة، ١-١٨، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إصدارات متميزة



اطلبه الآن من

daralinbiath.com

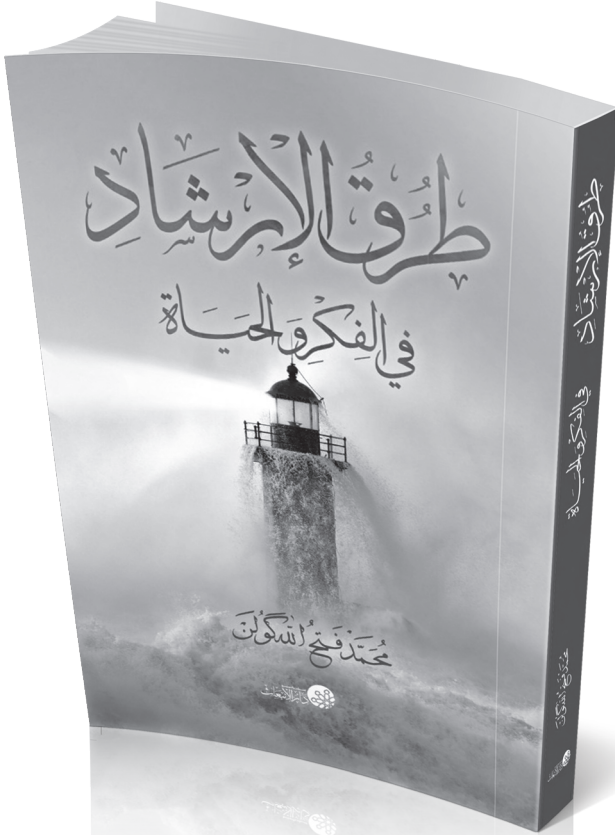
إصدارات متميزة



اطلبه الآن من

daralinbiath.com

إصدارات متميزة



اطلبه الآن من

daralinbiath.com

إصدارات متميزة



اطلبه الآن من

daralinbiath.com